

السلسلة الأكثر مبيعاً رقم 1 في نيويورك تايمز

بريدجيرتون

السِّرُ في قُبلَتِهِ

قصّة هياسنث

جوليا كُوين

ترجمة / كاميليا

السِرُّ في قُبلَتِه

IT'S IN HIS KISS

تُرجم هذا الكتاب بدعم من مبادرة ترجم

مبادرة ترجم

Tarjim Initiative

هيئة الأدب والنشر والترجمة

Literature, Publishing & Translation Commission

Translation funded by the Tarjim Initiative

ترجمة / كاميليا

جوليا كوين

JULIA QUINN

السِرٌ فى قُبلَتِه

IT'S IN HIS KISS



عائلة بريدجرتون
فايوليت ليدجر (1766-)
إدموند (1764-1803)
هياسينث (1803-)
غاريث سانت كلير (1797-)
- السر في قبلته، كتاب 7
غريغوري (1801-)
فرانشيسكا (1797-)
م.1 جون ستيرلينغ (إيرل كيلمارتين الثامن، 1792-1820)،
م.2 مايكل ستيرلينغ (إيرل كيلمارتين التاسع، 1791-)
- حينما كان آثماً، كتاب 6
إلويز (1796-)
م. سير فيليب كرين (1794-)
- إلى سير فيليب، مع حبي، كتاب 5
تظهر مارينا طومسون (1794-1823)
أوليفر (1816-)
أماندا (1816-)
بينيلوب (1825-)
دافني (1792-)
م. سيمون باسيت (1784-)، دوق هاستينغز
- الدوق وأنا، كتاب 1
أميليا (1814-)
بيليندا (1815-)
كارولين (1816-)
ديفيد (1817-)
بينيديكت (1786-)
م. صوفيا بيكيت (1794-)
عرض من سيد نبيل، كتاب 3
تشارلز (1818-)
ألكسندر (1820-)
ويليام (1822-)
فايوليت (1824-)
كولين (1791-)
م. بينيلوب فيذرينغتون (1796-)
مراودة السيد بريدجيرتون، كتاب 4
أغاثا (1825-)
أنتوني (1784-)
م. كيت شيفيلد (1793-)
- الفيكونت الذي أحبني، كتاب 2
إدموند (1815-)
مايلز (1817-)
شارلوت (1822-)



مقدمة

عام 1815

قبل عقدٍ من الزمان من بدء حكايتنا...

ثَمَّةَ أربعةُ أركانٍ شادَ عليها غاريث سانت كلير صرحَ علاقته بوالده، واتخذها مِجنًّا يدرأ به سخطَ النفس ويحتمي بها من غوائل الجنون، ليبقى محتفظًا برباطة جأشه وصفاء سريرته.

أما الركن الأول: فألا يجرى بينهما رسيلُ كلامٍ، ولا تنعقد بينهما عُروةٌ لحديث، إلا ما ألجأت إليه الضرورةُ المُلجئةُ التي لا يجدُ عنها المرءُ مَحيصاً.

وأما الثاني: فأن تُقيد تلك الأحاديثُ الضروريةُ – إذا وقعت – بقيود الاختصار الشديد، وتُلجم بلجام الإيجاز، فلا تتجاوز من الكلم إلا أقل القليل.

وأما الثالث: فإنه إذا ما حُمَّ القضاءُ واضطُر الفتى لنطقٍ يتجاوز رقيق التحايا، فمن الحزم استحضارُ طرفٍ ثالثٍ ليكون بينهما شاهداً وحجاباً.

وأما الرابع والأخير: وتحقيقاً لما سلف من الأركان، فقد دأب غاريث على أن يسلك من المسالك ما يجعله مَغنماً لدعوات الرفاق، فيقضي عطلاته المدرسية بعيداً عن ربوع أهله.

وبعبارةٍ أخرى: ألا يطأ عتبة الدار. وبلفظٍ أشدَّ جلاءً: أن ينأى بجانبه عن حوزة والده.

وكان غاريث يرى في قرارة نفسه – حين يفرغ لتأمل حاله، وهو أمرٌ ندر وقوعه منذ أن صيَّر فنَّ التغافل والاجتناب علماً مُحكماً – أن هذه القواعد قد

آتت أُكلها، وأقامت عوده، واستقامت بها حال والده أيضاً؛ إذ كان ريتشارد سانت كلير لا يحمل لابنه الأصغر من الودّ إلا بمقدار ما يحمله الولد لأبيه من جفاء. ومن هنا، اعتصرت جبين غاريث غضونُ الدهشة، وهو يطالع أمر الاستدعاء الذي وافاه من مدرسته، ليقفل راجعاً إلى الدار بغير ميعاد.

لقد جاء الطلبُ عارماً لا وهن فيه، ولم يترك كتابُ والده مساحةً للتأويل، بل كان نصاً قاطعاً:

على غاريث أن يَمثل في كلير هول فوراً.

لقد كان هذا الأمر غُصةً في حلق أمانيه، وكدراً شاب صفو حياته؛ فلم يكن قد بقي له في رحاب مدرسة إيتون (Eton) إلا شهران، حيث كانت حياته تتدفق حيويةً ونشاطاً، تموجُ بمباريات اللهو ومجاهدة الدروس، ولا تخلو من هجماتٍ سريةٍ وئيدةٍ نحو الحانات المحلية في هزيع الليل، حيث يُدار الكأسُ وتُطالعُ وجوهُ الحسان.

كانت حياةُ غاريث تجري على النحو الذي يشتهيه فتىً في مقتبل الثامنة عشرة، وكان يمنّي النفس بأن تظلَّ أعوامه القابلة مباركةً بظلال النعيم، ما دام قد أفلح في التواري عن ناظري والده. فقد كان يزمع الارتحال إلى جامعة كامبريدج (Cambridge) في الخريف القادم رفقةَ خُلصائه، عازماً على الانكباب على الدرس ومخالطة الصحب بذات الحماسة والاتقاد.

وبينما هو يجول ببصره في ردهة كلير هول، أرسل تنهيدةً مديدةً، أرادها أن تنطق بالضجر، بيد أنها خرجت مشوبةً برعشة الوجل.

تُرى أيُّ أمرٍ عظيمٍ يبغيه مني ذلك البارون؟

لقد أعلن الأب منذ أمدٍ بعيدٍ أنه قد نفض يده من ابنه الأصغر، وأنه لا ينفق على تعليمه إلا رعايةً لحق المظاهر وما يوجبه العُرف. وهو أمرٌ يعلم القاصي والداني معناه الحقيقي: أنه سيكون مظهرنا بئيساً أمام الصحب والجيران إن لم يُرسل غاريث إلى مدرسةٍ تليق بمقامه.

وحينما كان القدر يجمع بين غاريث ووالده، كان البارون يزجي وقته في تقريع الفتى وسرد خيباته، ولم يكن ذلك إلا حافزاً لـ غاريث ليزيد من إغاضة

والده؛ فليس ثمة ما هو أشهى من تحقيق مخاوف الآخرين فيك حين يتوقعون منك الإخفاق.

ضرب غاريث الأرض بقدمه، شاعِراً بأنه غريبٌ في عُقر داره، منتظراً أن يؤذن له بالدخول. لقد قضى من الأعوام التسعة الخالية وقتًا شحيحاً في هذا المكان، حتى استغلق عليه الشعور بأيِّ آصرةٍ تربطه به. فما هذا القصر في عينه إلا ركامٌ من حجارةٍ يملكها أبوه، وستؤول حتماً إلى أخيه الأكبر جورج. لن ينال غاريث من جدران هذا البيت ولا من ثروات آل سانت كلير نقيراً ولا قطميراً، وقد أيقن أن عليه أن يشقَّ طريقه في ملكوت الله بنفسه. وحسب أن مصيره سينتهي به إلى سلك الجندية بعد فراغه من جامعة كامبريدج؛ إذ لم يكن ثمَّةَ بابٌ آخر يطرقه النبلاء سوى سلك الكهنوت، واللهُ يعلم أنه لم يُخلق لتلك المحاريب.

لم تحمل ذاكرة غاريث عن أمه إلا طيوفاً باهتةً، فقد اختطفها الموت في حادثةٍ وهو لم يزل ابن خمس سنين، لكنه يذكر جيداً كيف كانت تعبث بشعره ضاحكةً، تداعبه بأنه لا يأخذ الحياة على محمل الجد أبدًا.

كانت تقول له همساً:

– "يا عفريتي الصغير، إياك أن تفقد هذا الروح، مهما جرى بك الزمان، إياك أن تفقدها."

ولم يفقدها حقاً، ويساوره الشكُّ في أن كنيسة إنجلترا ستفتح أبوابها لاستقبال مثله في صفوفها.

هتف رئيس الخدم غيلفويل:

– "سيد غاريث."

رفع غاريث رأسه عند سماع الصوت، وكعادته دائماً، كان غيلفويل يتحدث بجملٍ قاطعةٍ كأنها القدر، لا تعرف صيغة الاستفهام.

تابع غيلفويل قائلاً:

– "والدك سيلقاك الآن؛ هو في غرفة مكتبه."

أومأ غاريث برأسه للرجل الذي وخطه الشيب، ومضى يخطو في الرواق نحو مكتب والده، تلك الغرفة التي كانت أبغض بقاع الأرض إلى قلبه. هناك حيث يلقي والده مواعظه الجافة، وهناك حيث يخبره بأنه لن يبلغ في المجد شأواً، وهناك كان البارون يتكهن ببرودٍ أنه ما كان ينبغي له أن يرزق بابنٍ ثانٍ، وأن غاريث ليس إلا استنزافاً لموارد الأسرة ولطخةً في ثوب شرفها.

لا، ليس في هذا المكان ذرةٌ من ذكرى سعيدة.

طرق غاريث الباب، فجاءه الصوت من الداخل:

- "ادخل!"

دفع غاريث الباب البلوطي الثقيل وولج. كان والده قابضاً على مقعده خلف المكتب، يخطُّ بضعة أسطرٍ على ورقةٍ أمامه. بدا في حالٍ من القوة والمنعة، واللورد سانت كلير كان صُلب العود، ممتلئاً حيويةً، يظهر كأنه في الثلاثين من عمره وهو قد جاوز الخمسين بنيف. كان يبدو كطرازٍ من الرجال الذين يستوجبون من فتىً مثل غاريث الاحترام، وهذا ما جعل طعنة الرفض والإقصاء أشدَّ إيلاماً وقسوة.

انتظر غاريث بصبرٍ أن يرفع والده بصره، فلما استطال الصمت، تنحنح الفتى، فلا مجيب. ثم سعل، فلا حياة لمن تنادي. شعر غاريث بأسنان تضغط على بعضها؛ فهذا هو دأب والده، يتجاهله لأمدٍ يكفي لتذكيره بأنه أتفه من أن يُلتفت إليه.

فكر غاريث أن يناديه بـ "سيدي"، أو "يا لورد"، بل فكر في قول "أبي"، لكنه في النهاية اتكأ بظهره على إطار الباب وأطلق صفرةً وئيدة. رفع الأب بصره على الفور، وانفجر قائلاً:

- "كُفَّ عن هذا!"

رفع غاريث حاجبًا في ترفع، ثم استكان للصمت.

قال البارون في حنق:

- "وقوّم صُلبك! يا لله! كم مرةً أخبرتك أن التصفير خصلةٌ تنمُّ عن سوء أدب؟"

تريث غاريث هنيهة، ثم سأل:

– "أعليَّ أن أجيب عن هذا، أم أنه سؤالٌ لا ينتظر جواباً؟"

اربدَّ وجه والده واحمرَّت وجنتاه. ابتلع غاريث ريقه؛ أحسَّ أنه قد شطَّ في القول. كان يعلم أن نبرته العابثة ستذكي نار الغضب في صدر والده، لكنه كان يجد مشقةً كبرى في لجم لسانه.

قال والده:

– "عجبتُ أنك أتيت."

أجاب غاريث في حيرة:

– "لقد أمرتني بالمجيء."

والحقيقة المرة أنني لم أعصِ له أمراً قط.

في أحلامه، كان يثور ويواجه، أما في عالم الحقيقة، فكانت ثورته لا تتعدى صفرةً أو نظرةً عابسة.

قال البارون وهو يتكئ بظهره على مقعده:

– "بلى، فعلتُ. ومع ذلك، فأنا لا أصدر أمراً وأتوقع منك صدق الامتثال، فأنت نادراً ما تفعل."

لم ينبس الفتى ببنت شفة، فنهض والده ومضى نحو طاولةٍ قريبةٍ وقال:

– "أحسبك تتساءل عن جِدوى هذا اللقاء."

أومأ غاريث برأسه، فأردف:

– "نعم، يا سيدي."

تجرع البارون جرعةً من كأسه في استمتاع، تاركاً غاريث في الانتظار، وأخيراً التفت إليه وقال:

– "لقد اهتديتُ أخيراً إلى سبيلٍ يجعل منك فرداً نافعاً لأسرة سانت كلير."

انتفض رأس الفتى دهشةً وسأل:

– "حقاً؟ يا سيدي؟"

التفت إليه والده وحدق في عينيه مباشرةً وقال:

– "سوف تتزوج."

غصَّ غاريث بالكلمة وقال بصوتٍ مخنوق:

– "سيدي؟"

أكد اللورد سانت كلير قائلاً:

– "في هذا الصيف."

قبض غاريث على ظهر المقعد لئلا يترنح. أنا في الثامنة عشرة من عمري، يا لله! أأُغلَّ بقيود الزواج الآن؟ وماذا عن كامبريدج؟

استطرد البارون:

– "إنه زواجٌ رفيع القدر، وسوف يعيد مهرها بناء خزائننا الخاوية."

همس غاريث:

– "خزائننا، يا سيدي؟"

ضيق اللورد سانت كلير عينيه في وجه ابنه وقال بحدة:

– "إن ديوننا قد بلغت عنان السماء، وعقاراتنا مرهونةٌ حتى الثمالة. عامٌ آخر، وسنفقد كل ما نملك مما ليس موقوفاً للإرث."

سأل الفتى:

– "ولكن... كيف؟"

انفجر والده قائلاً:

– "إن تكاليف إيتون ليست بالهينة!"

أأنا المذنبُ في هذا الفقر؟ لا يمكن أن يقع هذا الوزر كله على عاتقي.

قال والده:

– "قد تكون مخيباً للآمال، لكني لم أقصر في أداء واجبي نحوك. والآن آن الأوان لكي تسلك مسلك الرجال."

همس غاريث:

– "مَن؟"

رفع صوته قليلاً:

– "مَن سأتزوج؟"

قال والده بنبرةٍ جافة:

– "ماري وينثروب."

شعر غاريث كأن الدماء قد انسحبت من عروقه، وتمتم:

– "ماري..."

أضاف والده:

– "ابنة روثام."

استطرد البارون:

– "ستكون زوجةً صالحة، فهي مطواعة، ويمكنك أن تقذف بها في الريف إذا ما رغبت في التسكع في المدينة مع رفاقك الحمقى."

قال غاريث:

– "ولكن يا أبتِ، ماري –"

قطع والده قوله:

– "لقد قبلتُ العرض نيابةً عنك. انتهى الأمر. ووُقعت المواثيق. ويريد روثام أن يتم الأمر في يوليو، وقد أخبرته أنه لا ممانعة لدينا."

شهق غاريث:

– "ولكن... ماري... لا أستطيع الزواج من ماري!"

ارتفع حاجب البارون نحو جبهته وقال:

– "تستطيع، وستفعل."

قال الفتى:

– "لكن يا أبتِ، إنها... إنها..."

أتم البارون الجملة عنه:

– "بلهاء؟ لن يشكل هذا فارقاً حين تكون معك في الفراش. ولن تضطر للتعامل معها في غير ذلك. كل ما عليك فعله هو المثول في الكنيسة. أفهمت؟"

لم ينطق غاريث بكلمة. لقد عرف ماري وينثروب طوال حياته، وسرعان ما تبين أن عقلها لم ينضج كبقية البشر. ظلَّ غاريث مدافعاً عنها كلما حاول

أحدٌ السخرية منها. لكنه لا يستطيع الزواج منها؛ إنها كطفلة، وإنَّ فعل ذلك لخطيئةٌ كبرى. لن أستطيع أن أشاركها الفراش أبداً. أبداً.

قال والده وهو يبتسم لصمت ابنه:

– "أرى أننا قد تفاهمنا."

انفجر غاريث فجأة:

– "لا! لا أستطيع!"

ضيق والده عينيه:

– "سوف تكون هناك، ولو اضطررتُ لتكبيلك بالحبال."

أجاب الفتى:

– "لا! يا أبتِ، ماري... إنها طفلة. أنت تعلم ذلك. لا يمكنني الزواج منها. إنَّ هذا لإثمٌ عظيم."

ضحك والده مبتعداً:

– "أتحاول إقناعي بأنك قد اهتديت فجأةً إلى طريق التقوى؟ ليس ثمة ما يُناقش. لقد كان روثام كريماً جداً في المهر، وهو مضطرٌ لذلك ليتحلل من عبء حمقاء."

همس غاريث:

– "لا تتحدث عنها بهذا الأسلوب."

قال اللورد سانت كلير:

– "هذا أفضل ما ستناله في حياتك. إن تسوية روثام سخيةٌ إلى أبعد الحدود، وسأخصص لك راتباً يجعلك تعيش في رغدٍ طوال عمرك."

ردد غاريث في ذهول:

– "راتب؟"

ضحك والده ضحكةً قصيرة:

– "لا تظنَّ أني سأئتمنك على مبلغٍ ضخمٍ دفعةً واحدة. أنت؟"

ابتلع الفتى ريقه في ضيق وسأل:

– "وماذا عن دراستي؟"

قال والده:

– "يمكنك الاستمرار؛ ولولا مهرها لما ملكتُ نَقداً أدفعه لتعليمك. لقد قُضي الأمر يا غاريث. ولا بد أن تكون أنت العريس، فجورج هو الوريث، ولا يمكنني أن أسمح له بتدنيس سلالتنا."

همس غاريث:

– "لكنك ترضاه لي؟"

رفع بصره إلى والده وسأل بالتياع:

– "لماذا؟ لماذا تفعل هذا؟"

لم ينطق والده، فتمتم الفتى:

– "أنا ابنك... ابنك! كيف تفعل هذا بابنك؟"

وحينها، انفجر والده وزأر صوته في الغرفة كأنه شيطانٌ مريد:

– "بالله عليك! ألم تدرك الحقيقة حتى الآن؟ لستَ ابني! ولم تكن ابني قط! ما أنت إلا نغلٌ دنيء، سلالةٌ ضالةٌ حملت بها أمك من رجلٍ آخر وأنا بعيد!"

صدمت الكلمات غاريث كالموجة العاتية، فقال وهو يهز رأسه في ذعر:

– "لا."

قال البارون بصوتٍ صلب:

– "لقد أطعمتك، وكسوتك، وقدمتك للعالم على أنك ابني. وقد آن الأوان لتردَّ لي الجميل."

قال غاريث ثانيةً:

– "لا، لا يمكن. أنا أشبهك. أنا –"

قال اللورد سانت كلير بمرارة:

– "مصادفةٌ بئيسة، أؤكد لك ذلك. كان بوسعي أن أنبذك عند ولادتك، لكني لم أفعل. لقد اعترُف بك، وأنت شرعيٌّ أمام القانون. أنت مدينٌ لي."

قال غاريث، وقد وجد أخيرًا نبرة اليقين:

– "لا. لن أفعل."

حذره والده:

– "سأقطع عنك كل صلة، ولن ترى مني قرشاً واحداً. انسَ أحلامك في كامبريدج."

قال غاريث مجدداً:

– "لا."

أدرك أن هذه هي النهاية. نهاية طفولته، وبداية مجهولٍ عظيم.

فحيح الرجل قائلاً:

– "لقد انتهى ما بيني وبينك. انتهى!"

قال غاريث:

– "ليكن ما يكون."

ثم استدار ومضى بعيداً.

الفصل الأول

بعد عشر سنوات

لقد انصرمت عشرُ سنوات كاملة، ودار الفلك دورته، حتى أقبلنا على بطلتنا، تلك التي – والحقُّ يُقال – لم يُعهد عنها يومًا أنها زهرة خفرة تلوذ بالانزواء، أو نبتة ضعيفة تفرّ من وهج الأضواء. ونحن الآن بإزاء المشهد السنوي المعتاد: حفل سميث–سميث الموسيقي، وذلك قبيل عشر دقائق – لا تزيد ولا تنقص – من اللحظة التي سيضطرب فيها الموسيقار موتسارت في تابوته، ويتململ في قبره تململ السليم.

تساءلت هياسنث بريدجرتون بصوتٍ مسموع، كأنما تُخاطب الأقدار:

– "لِمَ نسوم أرواحنا هذا العذاب؟"

فأجابتها زوجة أخيها، وقد اتخذت مجلسها – كان الله في عونهما – في الصف الأمامي مباشرة:

– "لأننا قومٌ جُبلوا على الخير، وفُطروا على الإحسان".

فأصرت هياسنث على رأيها، وهي ترمق المقعد الخالي بجوار بينيلوبي بذات الحماسة التي قد تُبديها لرؤية قنفذ البحر الشائك:

– "قد يحسب المرء أننا استوعبنا الدرس في العام المنصرم، أو لعلنا وعيناه في العام الذي سبقه، أو ربما حتى..."

قاطعتها بينيلوبي قائلة:

– "هياسنث؟"

فتلفتت هياسنث ببصرها صوب بينيلوبي، ورفعت حاجبًا واحدًا ـفي استنكارٍ مشوب بالتساؤل.

تابعت بينيلوبي بلهجة آمرة:

– "اجلسي".

فزفرت هياسنث زفرةً حرّى، بيد أنها – على مضض – جلست.

وا حسرتاه على حفل سميث–سميث الموسيقي! ولله الحمد والمنة أنه لا يحلّ إلا مرةً واحدة ـفي العام؛ إذ كانت هياسنث على يقينٍ جازم بأن أذنيها ستحتاجان إلى اثني عشر شهرًا كاملة لتبرآ مما سيلمّ بهما من أذى.

أطلقت هياسنث زفرة أخرى، كانت أشد وطأة وأعلى صوتًا من سابقتها، وقالت:

– "لستُ على يقين تام من أنني أتحلى بالخير أو الإحسان".

فردت بينيلوبي:

– "ولا أنا بمتيقنة من ذلك أيضًا، بيد أنني عقدت العزم على أن أُحسن الظن بكِ، رغم كل شيء".

علّقت هياسنث:

– "تلك مروءةٌ منكِ وروحٌ رياضية".

– "لقد خلتُ ذلك أيضًا".

رمقتها هياسنث بنظرة جانبية وقالت:

– "والحق أنكِ لم تملكي من الأمر خيارًا".

استدارت بينيلوبي ـفي مقعدها، وقد ضيقت عينيها كمن يتفرس ـفي خصم:

– "ماذا تعنين؟"

قالت هياسنث بنظرة ماكرة:

– "إن كولن قد أبى أن يظاهركِ ـفي محنتكِ ويصحبكِ، أليس كذلك؟"

وكان كولن شقيق هياسنث، وقد تزوج بـ بينيلوبي قبل عامٍ مضى. أطبقت بينيلوبي شفتيها حتى صارتا خطًا صارمًا.

هتفت هياسنث بزهو المنتصر:

– "كم يطربني أن أكون على صواب! ومن حسن الطالع أنني كثيرًا ما أكون كذلك".

اكتفت بينيلوبي بالنظر إليها وقالت:

– "أتعلمين أنكِ لا تُطاقين؟"

– "بطبيعة الحال".

مالت هياسنث نحو بينيلوبي بابتسامة شيطانية وأردفت:

– "ولكنكِ تُحبينني رغم ذلك، أقرّي واعترفي".

– "لن أقر بشيء حتى ينقضي هذا المساء".

– "أبعد أن يُصيبنا الصمم كلتانا؟"

– "بل بعد أن نرى إن كنتِ ستحسنين السلوك".

ضحكت هياسنث وقالت:

– "لقد صاهرتِ هذه العائلة، وعليكِ أن تحبيني قسرًا، إنه التزام تعاقدي لا مناص منه".

– "عجبًا، لا أذكر أنني قرأتُ ذلك في عهود الزفاف".

ردت هياسنث:

– "عجبًا، أما أنا فأذكره تمام الذكر".

نظرت إليها بينيلوبي وضحكت قائلة:

– "لستُ أدري كيف تفعلين ذلك يا هياسنث، ولكن برغم ما أنتِ عليه من إثارة للغيظ، فإنكِ بطريقة ما تظلين آسرةً ساحرة".

قالت هياسنث بتواضع مُصطنع:

– "تلك أعظم مواهبي".

ربتت بينيلوبي على يدها وقالت:

– "حسنًا، لكِ نقاط إضافية نظير مرافقتكِ إياي الليلة".

أجابت هياسنث:

– "بالطبع، فعلى الرغم من كل ما يبدو عليّ من طباع لا تُطاق، فإنني في جوهر الأمر روحٌ تفيض طيبةً ودماثة".

يجب أن أكون كذلك حقًا.

فكرت في قرارة نفسها وهي ترقب المشهد الذي بدأ يتكشف على تلك المنصة الصغيرة المرتجلة. عامٌ آخر، وحفلٌ آخر من حفلات سميث-سميث. فرصة أخرى لتعلم كم من السبل المبتكرة يمكن بها إفساد مقطوعة موسيقية بديعة. في كل عام كانت هياسنث تقسم بأغلظ الأيمان ألا تحضر، ثم في كل عام تجد نفسها – لسبب مجهول – في قلب الحدث، تبتسم بتشجيع للفتيات الأربع على المنصة.

قالت هياسنث:

– "على الأقل حظيتُ بالجلوس في الصفوف الخلفية العام الماضي".

ردت بينيلوبي وقد التفتت إليها بعينين ملؤهما الريبة:

– "نعم، فعلتِ، وكيف تسنى لكِ ذلك؟ لقد كنا أنا وفيليستي وإلويز في المقدمة".

هزت هياسنث كتفيها وقالت:

– "زيارة محسوبة التوقيت إلى مخدع السيدات، والحق يقال..."

قاطعتها بينيلوبي محذرة:

– "إياكِ أن تجرؤي على فعلها الليلة، إن تركتني هاهنا وحيدة..."

قالت هياسنث مع تنهيدة:

– "لا تجزعي، أنا هنا طوال المدة. ولكن..."

أشارت بإصبعها بطريقة كانت والدتها لتصفها حتمًا بأنها منافية للياقة السيدات، وأضافت:

– "أريد أن يُسجّل إخلاصي لكِ في الصحائف".

سألت بينيلوبي:

– "لِمَ يتملكني شعورٌ بأنكِ تُحصين عليّ المواقف، وحينما لا أتوقع الأمر، ستقفزين أمامي مطالبةً برد الجميل؟"

نظرت إليها هياسنث ورفت بعينيها:

– "ولم قد أحتاج للقفز؟"

قالت بينيلوبي بعد أن حدقت في أخت زوجها وكأنها مجنونة:

– "آه، انظري، ها هي ذي السيدة دانبري قد أقبلت".

قالت السيدة دانبري – أو بالأحرى نبحت بصوتها –:

– "السيدة بريدجرتون... الآنسة بريدجرتون".

قالت بينيلوبي مخاطبة الكونتيسة العجوز:

– "مساء الخير يا سيدة دانبري، لقد ادخرنا لكِ مقعدًا في المقدمة مباشرة".

ضيّقت السيدة دانبري عينيها، ونكزت بينيلوبي بخفة في كاحلها بعصاها قائلة:

– "دائمًا ما تؤثرين الآخرين على نفسك، أليس كذلك؟"

تظاهرت بينيلوبي بالتواضع وقالت:

– "بالطبع، ما كنت لأحلم بـ..."

قاطعتها السيدة دانبري:

– "هاه!"

كانت تلك – كما لاحظت هياسنث – هي اللفظة الأثيرة لدى الكونتيسة، هي ولفظة "همممف".

أمرت السيدة دانبري:

– "تزحزحي يا هياسنث، سأجلس بينكما".

انزاحت هياسنث طائعةً مقعدًا واحدًا إلى اليسار وقالت بينما كانت السيدة دانبري تتخذ مجلسها:

– "كنا للتو نتفكر في الأسباب التي دعتنا للحضور، وأنا عن نفسي لم أهتدِ لسبب".

قالت السيدة دانبري لـ هياسنث:

– "لا أستطيع التحدث بلسانك، أما هي..."

أشارت برأسها نحو بينيلوبي وتابعت:

– "... فهي هنا لنفس السبب الذي أتيتُ لأجله".

سألت هياسنث – وربما بتهذيب مبالغ فيه –:

– "أمن أجل الموسيقى؟"

التفتت السيدة دانبري عائدةً ببصرها إلى هياسنث، وقد تجعد وجهها فيما يشبه الابتسامة:

– "لطالما استلطفتكِ يا هياسنث بريدجرتون".

ردت هياسنث:

– "ولطالما استلطفتكِ أنا أيضًا".

– "أحسبُ أن مردّ ذلك هو أنكِ تأتين لتقرئي لي من حين لآخر".

ذكرتها هياسنث:

– "كل أسبوع".

– "من حين لآخر، كل أسبوع... بففف".

شقت يد السيدة دانبري الهواء بحركة تعبر عن عدم الاكتراث:

– "الكل سواء ما لم تجعلي منه دأبًا يوميًا".

آثرت هياسنث الصمت؛ إذ كانت تعلم يقينًا أن السيدة دانبري ستجد سبيلًا لتحوير كلماتها إلى وعد بزيارتها كل ظهيرة.

أضافت السيدة دانبري مع نشقة أنف:

– "وقد أضيف أنكِ كنتِ قاسية غاية القسوة في الأسبوع الفائت، حين توقفتِ وتركتِ شخصية المسكينة بريسيلا معلقةً من شفا جرف في الرواية".

سألت بينيلوبي:

– "ماذا تقرآن؟"

أجابت هياسنث:

– "الآنسة باتروورث والبارون المجنون، ولم تكن معلقةً بعد".

سألت السيدة دانبري بحدة:

– "هل استبقتِ الأحداث بالقراءة؟"

قالت هياسنث وهي تدير عينيها:

– "كلا، ولكن ليس من العسير التنبؤ بالأحداث؛ فالآنسة باترورث قد تدلّت مسبقًا من بناية ومن شجرة".

سألت بينيلوبي:

– "وما زالت على قيد الحياة؟"

دمدمت هياسنث:

– "قلت تدلّت ولم أقل شُنقت... ويا للأسف".

قاطعتها السيدة دانبري:

– "بصرف النظر، لقد كان من قسوة القلب أن تتركيني معلقةً في حيرة".

قالت هياسنث دون أدنى شعور بالندم:

– "هنا توقف المؤلف في نهاية الفصل، ثم أليس الصبر من الفضائل؟"

قالت السيدة دانبري بتوكيد:

– "كلا البتة، وإن كنتِ تظنين ذلك، فأنتِ أقل شأنًا كامرأة مما كنتُ أحسب".

لم يكن أحد ليدرك لِمَ دأبت هياسنث على زيارة السيدة دانبري كل ثلاثاء لتقرأ لها، لكنها كانت تستمتع بظهيرتها مع الكونتيسة. كانت السيدة دانبري نكدة وصريحة إلى حد التجريح، ومع ذلك كانت هياسنث تعشقها.

علقت بينيلوبي:

– "أنتما الاثنتان معًا تمثلان خطرًا داهمًا".

أعلنت السيدة دانبري:

– "إن غايتي في الحياة أن أكون مصدر إزعاج لأكبر عدد ممكن من البشر، لذا سأعدّ قولكِ هذا أسمى أنواع المديح يا سيدة بريدجرتون".

تساءلت بينيلوبي:

– "لِمَ لا تنادينني بالسيدة بريدجرتون إلا حينما تُلقين حكمكِ بأسلوب فخيم؟"

قالت السيدة دانبري، مختتمةً ملاحظتها بضربة قوية من عصاها:

– "الوقع أفضل هكذا".

ابتسمت هياسنث. حينما تبلغ من العمر عتيًا، تود أن تكون صورة طبق الأصل من السيدة دانبري. والحق يُقال، كانت تستلطف الكونتيسة العجوز أكثر من معظم أترابها. فبعد ثلاثة مواسم في سوق الزواج، بدأت هياسنث تضجر قليلًا من الوجوه ذاتها يومًا إثر يوم. ما كان يومًا يبعث في النفس البهجة – من حفلات راقصة، ومآدب، وخُطّاب – أضحى، حسنًا، لا يزال ممتعًا – هذا ما توجب عليها الإقرار به. لم تكن هياسنث قطعًا من أولئك الفتيات اللواتي يتذمرن من الثراء والامتيازات التي فُرض عليهن تجشمها.

ولكن الأمر لم يعد كما كان. لم تعد تحبس أنفاسها كلما ولجت قاعة رقص. والرقصة باتت مجرد رقصة، لم تعد تلك الدوامة السحرية من الحركة كما كانت في سالف الأعوام.

لقد أدركت أن الشغف قد ولى.

ولسوء الطالع، كلما ذكرت ذلك لأمها، كان الرد ببساطة أن تجد لنفسها زوجًا. تلك الحقيقة التي لم تألُ فيوليت بريدجرتون جهدًا في التنويه بأنها ستغير كل شيء.

بالتأكيد.

لقد تخلت والدة هياسنث منذ أمد بعيد عن أي ادعاء بالتلميح حينما يتعلق الأمر بعزوبية ابنتها الرابعة والأخيرة. ولقد تحول الأمر – كما فكرت هياسنث بعبوس – إلى حملة صليبية شخصية.

لندع جان دارك جانبًا؛ فأمها هي فيوليت قاهرة مايفير، ولن يثنيها طاعون ولا وباء ولا عشيق غادر عن مسعاها لرؤية أبنائها الثمانية جميعًا وقد سعدوا بالزواج. لم يبقَ سوى اثنين، غريغوري وهياسنث، لكن غريغوري كان لا يزال في الرابعة والعشرين، وهو سنٌ – بشكل مجحف إلى حد ما في رأي هياسنث – يُعد مقبولًا تمامًا ليبقى الرجل فيه عزبًا.

أما هياسنث في الثانية والعشرين؟ الشيء الوحيد الذي كان يحول دون انهيار أمها التام هو حقيقة أن شقيقتها الكبرى إلويز قد انتظرت حتى سن

الثامنة والعشرين الجليلة قبل أن تصبح عروسًا. وبالمقارنة، كانت هياسنث لا تزال تحبو في مهاد الطفولة.

لا أحد يستطيع القول بأن هياسنث قد بارت بضاعتها ويئس منها، لكن حتى هي كان عليها الاعتراف بأنها تدنو من تلك المنزلة. لقد تلقت بضعة عروض منذ ظهورها الأول قبل ثلاث سنوات، لكن ليس بالعدد الذي قد يظنه المرء، نظرًا لمظهرها – لم تكن أجمل فتاة في المدينة ولكنها قطعًا أفضل من النصف على الأقل – وثروتها – مرة أخرى، لم تكن تملك المهر الأضخم في السوق، لكنه قطعًا كان كافيًا لجعل صائد الثروات يعيد النظر مرتين.

أما نسبها، فكان – بلا جدال – منزهًا عن كل شائبة. شقيقها هو الفيكونت بريدجرتون، كما كان أبوهم قبله، ولئن لم يكن لقبهم هو الأرفع في البلاد، فإن العائلة كانت تحظى بشعبية ونفوذ طاغيين. وإن لم يكن ذلك كافيًا، فأختها دافني هي دوقة هاستينغز، وأختها فرانشيسكا هي كونتيسة كيلمارتن.

لو أراد رجل أن يصاهر أقوى العائلات في بريطانيا، لما وجد خيارًا أفضل من هياسنث بريدجرتون.

ولكن، لو تكلف المرء عناء التأمل في توقيت العروض التي تلقتها، وهو ما لم ترغب هياسنث في الاعتراف بأنها فعلته، لبدا الأمر مدعاة للشؤم حقًا.

ثلاثة عروض في موسمها الأول.

اثنان في الثاني.

واحد في العام المنصرم.

ولا شيء حتى الآن في هذه المرة.

لا يمكن تعليل ذلك إلا بأن شعبيتها آخذة في التضاؤل. إلا إذا – بالطبع – كان أحدهم أحمق بما يكفي ليجهر بهذه الحجة، وحينها ستضطر هياسنث لاتخاذ الجانب المعاكس، ضاربةً بالحقائق والمنطق عرض الحائط.

وعلى الأرجح ستكسب الجولة أيضًا. فقلما تجد رجلًا – أو امرأة – يستطيع أن يضاهي هياسنث بريدجرتون دهاءً، أو فصاحةً، أو جدالًا.

وقد يكون لهذا الأمر – كما فكرت في لحظة نادرة من مصارحة النفس – علاقة ما بانحدار معدل عروض الزواج بتلك الوتيرة المفزعة.

لا يهم.

فكرت وهي تراقب فتيات سميث–سميث يدرن حول المنصة الصغيرة التي نُصبت في مقدمة القاعة. لم يكن الأمر وكأنها كان ينبغي أن تقبل أيًا من عروضها الستة. ثلاثة منهم كانوا صائدي ثروة، واثنان كانوا حمقى، وواحد كان مملًا إلى حدٍ قاتل.

خيرٌ للمرأة أن تظل عزباء من أن تكبل نفسها بشخص يضجرها حتى البكاء.

حتى أمها، الخاطبة التي لا تكل، لم تستطع دحض تلك الحجة.

أما بخصوص موسمها الحالي الخالي من العروض – حسنًا، إن كان رجال بريطانيا لا يقدرون القيمة الجوهرية لأنثى ذكية تدرك ما تريد، فتلك مشكلتهم وليست مشكلتها.

ضربت السيدة دانبري بعصاها الأرض، وكادت تخطئ قدم هياسنث اليمنى بشعرة، وقالت:

– "أقول، هل لمحت أي منكما حفيدي؟"

سألت هياسنث:

– "أي أحفادك؟"

رددت السيدة دانبري بنفاد صبر:

– "أي أحفادي... أي أحفادي؟ الوحيد الذي أحبه، هذا هو المقصود".

لم تكلف هياسنث نفسها عناء إخفاء صدمتها، وهتفت:

– "السيد سانت كلير قادم الليلة؟"

قهقهت السيدة دانبري:

– "أعلم، أعلم، أكاد لا أصدق ذلك بنفسي. ما زلت أنتظر شعاعًا من النور السماوي ينبثق عبر السقف".

تجعّد أنف بينيلوبي وقالت:

– "أظن أن هذا قد يُعد تجديفًا، لستُ واثقة".

قالت هياسنث دون أن تنظر إليها حتى:

– "ليس كذلك. ولماذا سيأتي؟"

ابتسمت السيدة دانبري ببطء.. كأفعى رقطاء، وقالت:

– "لِمَ أنتِ مهتمة بهذا القدر؟"

قالت هياسنث بصراحة تامة:

– "أنا دائمًا مهتمة بالنميمة، عن أي شخص كان. ينبغي أن تعلمي ذلك سلفًا".

قالت السيدة دانبري بتذمر ما بعد أن أُحبط مسعاها:

– "حسنًا جدًا، إنه قادم لأنني ابتززته".

رمقتها هياسنث وبينيلوبي بحاجبين مقوسين بتماثل تام.

استدركت السيدة دانبري:

– "حسنًا، إن لم يكن ابتزازًا، فجرعة مكثفة من الشعور بالذنب".

غمغمت بينيلوبي:

– "بالطبع".

في اللحظة عينها التي قالت فيها هياسنث:

– "هذا يبدو أكثر منطقية".

تنهدت السيدة دانبري:

– "ربما أخبرته أنني لستُ على ما يرام".

بدت الشكوك على هياسنث:

– "ربما؟"

أقرت السيدة دانبري:

– "فعلتُ".

قالت هياسنث بإعجاب:

– "لا بد أنكِ أبليتِ بلاءً حسنًا لتقنعيه بالمجيء الليلة".

كان على المرء أن يقدر حس الدراما لدى السيدة دانبري، لا سيما حينما يتمخض عن تلاعب مبهر بمن حولها. وكانت تلك موهبة صقلتها هياسنث أيضًا.

علقت بينيلوبي:

- "لا أظن أنني رأيته في حفل موسيقي من قبل قط".

دمدمت السيدة دانبري:

- "هممممف، ليس ثمة ما يكفي من النساء الخليعات لأجله، أنا واثقة".

لو صدر هذا القول من أي شخص آخر لكان صادمًا. ولكن هذه هي السيدة دانبري، ولقد اعتادت هياسنث - وبقية الطبقة الراقية في واقع الأمر - منذ زمن على عباراتها المباغتة.

وعلاوة على ذلك، كان على المرء أن يضع في اعتباره الرجل المعنيّ.

حفيد السيدة دانبري لم يكن سوى غاريث سانت كلير ذائع الصيت.

ورغم أنه - كما فكرت هياسنث - ربما لم يكن الخطأ خطأه بالكامل في اكتساب تلك السمعة الأثيمة؛ فقد كان هناك وفرة من الرجال الآخرين الذين يسلكون مسالك تفتقر إلى اللياقة بنفس القدر، وأكثر من قلة كانوا على قدر من الوسامة يضاهي الخطيئة، ولكن غاريث سانت كلير كان الوحيد الذي استطاع أن يجمع بين الأمرين بمثل هذا النجاح الباهر.

لكن سمعته كانت منفرة.

كان بالتأكيد في سن الزواج، لكنه لم يسبق له قط - ولا حتى مرة واحدة - أن زار فتاةً كريمة في منزلها. كانت هياسنث واثقة من ذلك تمام الثقة؛ فلو أنه ألمح مجرد تلميح إلى التودد لإحداهن، لهاجت طواحين الشائعات وماجت. وفضلًا عن ذلك، لسمعت بالأمر من السيدة دانبري، التي كانت تعشق النميمة أكثر مما تعشقها هي.

ثم، بالطبع، كانت هناك مسألة أبيه، اللورد سانت كلير. كانت القطيعة بينهما ذائعة الصيت، رغم أن أحدًا لم يعلم السبب. ورأت هياسنث شخصيًا أن في عدم نشره لغسيل عائلته القذر على الملأ ما يُحسب لـ غاريث - خاصة أنها

قابلت أباه ورأته فظًا غليظًا – مما قادها للاعتقاد بأنه مهما كان الأمر، فإن سانت كلير الابن لم يكن الملوم.

لكن الأمر برمته أضفى هالة من الغموض على الرجل الذي يفيض جاذبية أصلًا، وفي رأي هياسنث جعله ذلك تحديًا لنساء الطبقة الراقية. لم يكن أحد يعلم يقينًا كيف ينظر إليه. فمن ناحية، كانت الأمهات يُبعدن بناتهن عنه؛ فمن المؤكد أن الارتباط بـ غاريث سانت كلير لن يعزز سمعة الفتاة. ومن ناحية أخرى، مات شقيقه ميتة مأساوية وهو في ريعان الشباب، قبل عام تقريبًا، وأضحى هو الآن وريث البارونية. مما زاد من كونه شخصية رومانسية – ومؤهلة للزواج. في الشهر الماضي رأت هياسنث فتاة يُغشى عليها – أو تتظاهر بذلك على الأقل – حينما تنازل وحضر حفل آل بيفيلستوك الراقص.

كان أمرًا مخزيًا.

حاولت هياسنث أن تخبر الفتاة الحمقاء أنه لم يحضر إلا لأن جدته أرغمته على ذلك، وبالطبع لأن أباه كان خارج المدينة. ففي النهاية، كان الجميع يعلم أنه لا يخالط إلا مغنيات الأوبرا والممثلات، وبالتأكيد لسن السيدات اللواتي قد يقابلهن في حفل آل بيفيلستوك. لكن الفتاة لم تكن لترتدع عن حالتها المفرطة في العاطفة، وفي النهاية تهاوت على أريكة قريبة في كومة بلا رشاقة.

وكانت هياسنث أول من عثر على زجاجة أملاح إنعاش ودستها تحت أنفها. حقًا، بعض التصرفات لا يمكن التغاضي عنها.

لكن بينما كانت واقفة هناك، تنعش الفتاة الحمقاء بتلك الأبخرة النفاذة، لمحت نظراته مصوبةً نحوها بتلك الطريقة الساخرة الغامضة التي يتقنها، ولم تستطع التخلص من الشعور بأنه يجدها مدعاة للتسلية.

تمامًا كما يجد المرء الأطفال الصغار والكلاب الضخمة مدعاة للتسلية.

وغني عن البيان أنها لم تشعر بالإطراء إزاء اهتمامه، رغم كونه عابرًا.

"همممف".

التفتت هياسنث لتواجه السيدة دانبري، التي كانت لا تزال تجوب القاعة ببصرها بحثًا عن حفيدها.

قالت هياسنث:

– "لا أظن أنه وصل بعد".

ثم أضافت بصوت خافت:

– "لم يُغمَ على أحد".

– "آه؟ ماذا كان ذلك؟"

– "قلتُ لا أظن أنه وصل بعد".

ضيقت السيدة دانبري عينيها:

– "لقد سمعتُ هذا الجزء".

كذبت هياسنث:

– "هذا كل ما قلته".

– "كاذبة".

نظرت هياسنث متجاوزة إياها إلى بينيلوبي وقالت:

– "إنها تعاملني معاملة شنيعة، أتعلمين ذلك؟"

هزت بينيلوبي كتفيها:

– "على شخص ما أن يفعل".

انفرجت أسارير السيدة دانبري عن ابتسامة عريضة، والتفتت إلى بينيلوبي وقالت:

– "والآن، يجب أن أسأل..."

ونظرت نحو المنصة، تمد عنقها وهي تحدق في الرباعي الموسيقي:

– "أهي الفتاة نفسها على آلة التشيلو هذا العام؟"

أومأت بينيلوبي بأسى.

نظرت إليهما هياسنث:

– "عمّ تتحدثان؟"

قالت السيدة دانبري بتعالٍ:

- "إن كنتِ لا تعلمين، فأنتِ لم تكوني منتبهة، وعارٌ عليكِ ذلك".

انفرغ فاه هياسنث عن دهشة.

- "حسنًا".

قالتها، إذ كان البديل هو الصمت، وهي لم تكن تحب ذلك قط. لم يكن هناك ما هو أكثر إثارة للحنق من أن تظل خارج دائرة نكتة ما. إلا – ربما – أن توبخ على شيء لم تكن تفهمه حتى. التفتت عائدةً نحو المنصة، تراقب عازفة التشيلو عن كثب. وحين لم ترَ شيئًا خارجًا عن المألوف، استدارت مرة أخرى لتواجه رفيقتيها وفتحت فمها لتتحدث، لكنهما كانتا قد غرقتا بالفعل في حديث لا يشملها.

كانت تمقت حدوث ذلك.

"همممف".

جلست هياسنث في مقعدها وكررتها:

- "همممف".

فجاءها صوت مستمتع من خلف كتفها:

- "أنتِ تبدين تمامًا كجدتي".

رفعت هياسنث بصرها. ها هو ذا، غاريث سانت كلير، يظهر حتمًا في لحظة انزعاجها القصوى. وبالطبع، المقعد الوحيد الخالي كان بجوارها.

سألت السيدة دانبري وهي تنظر لأعلى نحو حفيدها وتضرب بعصاها الأرض:

- "ألا تبدو كذلك حقًا؟ إنها تحل محلك بسرعة بصفتها مصدر فخري وبهجتي".

سأل السيد سانت كلير، وقد التوى طرف شفتيه في نصف ابتسامة ساخرة:

- "أخبريني يا آنسة بريدجرتون، هل تعيد جدتي صياغتكِ على صورتها؟"

لم تملك هياسنث ردًا حاضرًا، وهو ما وجدته مثيرًا للغيظ العميق.

نبحت السيدة دانبري:

– "تزحزحي مرة أخرى يا هياسنث، أحتاج للجلوس بجوار غاريث".

التفتت هياسنث لتقول شيئًا، لكن السيدة دانبري قاطعتها:

– "شخص ما يجب أن يحرص على حسن سلوكه".

أطلقت هياسنث زفيرًا صاخبًا وانتقلت مقعدًا آخر.

قالت السيدة دانبري وهي تربت على المقعد الخالي بابتهاج واضح:

– "تفضل يا ولدي، اجلس واستمتع".

نظر إليها مليًا قبل أن يقول أخيرًا:

– "أنتِ مدينة لي نظير هذا يا جدتي".

فكان ردها:

– "ها! لولاي، لما كنتَ موجودًا من الأساس".

غمغمت هياسنث:

– "نقطة يصعب دحضها".

التفت السيد سانت كلير لينظر إليها، وربما فعل ذلك فقط ليتحاشى النظر لجدته. ابتسمت له هياسنث بفتور، مسرورة من نفسها لعدم إبدائها أي رد فعل.

لطالما ذكرها بأسد، شرس ومفترس، مفعم بطاقة لا تهدأ. وشعره كذلك، كان أشهب، يحوم في تلك المنطقة الغريبة بين البني الفاتح والأشقر الداكن، وكان يصففه باستهتار، متحديًا العرف بإبقائه طويلًا بما يكفي لربطه في ذيل قصير عند مؤخرة عنقه. كان طويل القامة، وإن لم يكن بفرط، يتمتع برشاقة رياضي وقوته، وبوجه كان غير متقن الجمال بما يكفي ليكون وسيمًا، بدلًا من أن يكون جميلًا.

وكانت عيناه زرقاوين. زرقاوين بحق. زرقاوين بشكل غير مريح.

بشكل غير مريح؟

هزت رأسها هزة خفيفة. لا بد أن تلك أكثر فكرة حمقاء طرأت على ذهنها قط. عيناها هي كانت زرقاء، وبالتأكيد لم يكن هناك شيء غير مريح في ذلك.

سألها:

– "وما الذي جاء بكِ إلى هنا يا آنسة بريدجرتون؟ لم أكن أدرك أنكِ من عشاق الموسيقى إلى هذا الحد".

قالت السيدة دانبري من خلفه:

– "لو كانت تعشق الموسيقى، لفرّت مسبقاً إلى فرنسا".

غمغم دون أن يلتفت:

– "إنها تكره أن تُستبعد من الحديث، أليس كذلك؟ آخ!"

سألت هياسنث بعذوبة:

– "العصا؟"

دمدم:

– "إنها خطر على المجتمع".

راقبت هياسنث باهتمام بينما مد يده خلفه، ودون حتى أن يدير رأسه، لف يده حول العصا وانتزعها من قبضة جدته.

قال وهو يسلمها لـ هياسنث:

– "هاكِ، ستعتنين بهذه، أليس كذلك؟ لن تحتاج إليها وهي جالسة".

انفرغ فاه هياسنث عن آخره. حتى هي لم تجرؤ قط على التدخل في شأن عصا السيدة دانبري.

قال وهو يرجع بظهره في مقعده بتعبير من هو مسرور جدًا بنفسه:

– "أرى أنني قد أثرت إعجابك أخيرًا".

قالت هياسنث قبل أن تتمكن من كبح جماح نفسها:

– "نعم... أعني، لا. أعني، لا تكن سخيفاً. أنا بالتأكيد لم أكن غير معجبة بك".

غمغم:

– "كم هذا مُرضٍ".

قالت وهي تطحن أسنانها:

– "ما عنيته، هو أنني لم أفكر في الأمر حقاً، لا سلبًا ولا إيجابًا".

ضرب على قلبه بيده وقال باستهتار:

– "جريحٌ أنا... وفي الصميم".

صرّت هياسنث على أسنانها. الشيء الوحيد الأسوأ من السخرية منها هو عدم التأكد مما إذا كان يُسخر منها أم لا. كل شخص آخر في لندن كان بإمكانها قراءته ككتاب مفتوح. لكن مع غاريث سانت كلير، لم تكن تعلم أبدًا. نظرت متجاوزة إياه لترى إن كانت بينيلوبي تستمع – ليس لأنها كانت متأكدة من أهمية ذلك – لكن بين كانت مشغولة باسترضاء السيدة دانبري، التي كانت لا تزال تتألم من فقدان عصاها.

تململت هياسنث في مقعدها، تشعر بضيق غير معهود في المكان. اللورد سومرشال – الذي لم يكن يومًا أنحف رجل في القاعة – كان على يسارها، يفيض جسده على مقعدها. وهو ما اضطرها للانزياح قليلًا إلى اليمين، مما وضعها بالطبع في تقارب أشد مع غاريث سانت كلير، الذي كان يشع حرارة بشكل لافت.

يا إلهي، هل دهن الرجل نفسه بزجاجات الماء الساخن قبل خروجه للمساء؟

التقطت هياسنث برنامج الحفل بتحفظ قدر استطاعتها واستخدمته لتهوية نفسها.

استفسر سانت كلير، وهو يميل برأسه متفحصًا إياها باستمتاع فضولي:

– "هل ثمة خطب ما يا آنسة بريدجرتون؟"

أجابت:

– "بالطبع لا، الأمر مجرد أن الجو دافئ قليلًا هنا، ألا تظن ذلك؟"

رمقها لثانية واحدة أطول مما ودت، ثم التفت إلى السيدة دانبري وسأل باهتمام:

– "هل تشعرين بالحر يا جدتي؟"

فجاء الرد قاطعًا:

– "كلا البتة".

التفت عائدًا إلى هياسنث مع هزّة كتف صغيرة وغمغم:

– "لا بد أنه أنتِ إذًا".

صرت على كلماتها وهي تحدق أمامها بإصرار:

– "لا بد أنه كذلك".

ربما لا يزال هناك وقت للفرار إلى مخدع السيدات. سترغب بينيلوبي في تقطيعها إربًا، لكن هل يُعد ذلك تخليًا حقًا وهناك شخصان يجلسان بينهما؟

وفضلًا عن ذلك، يمكنها بالتأكيد استخدام اللورد سومرشال كعذر. حتى الآن كان يتململ في مقعده، يصطدم بها بطريقة لم تكن هياسنث واثقة تمامًا من أنها عرضية.

انزاحت هياسنث قليلًا إلى اليمين. مجرد بوصة – ولا حتى ذلك. آخر ما كانت تريده هو أن تلتصق بـ غاريث سانت كلير. حسنًا، ثاني آخر ما تريده على أية حال. هيكل اللورد سومرشال المكتنز كان أسوأ بلا جدال.

استفسر السيد سانت كلير:

– "هل ثمة خطب ما يا آنسة بريدجرتون؟"

هزت رأسها، تتأهب لرفع نفسها بالاستناد بكعبي كفيها على المقعد على جانبي حجرها.

لم أستطع...

تصفيق.

تصفيق، تصفيق، تصفيق.

كادت هياسنث تئن. لقد كانت إحدى سيدات عائلة سميث-سميث، تعطي الإشارة بأن الحفل على وشك البدء. لقد أضاعت لحظة الفرصة. لم تكن هناك طريقة للمغادرة بتهذيب الآن.

لكنها، على الأقل، استطاعت أن تجد بعض السلوى في حقيقة أنها لم تكن الروح البائسة الوحيدة. ففي اللحظة التي رفعت فيها آنسات سميث-سميث أقواسهن لضرب أوتار آلاتهن، سمعت السيد سانت كلير يطلق أنّةً خافتة للغاية، تبعتها عبارة نابعة من القلب:

- "كان الله في عوننا جميعًا".

الفصل الثاني

بعد انصرامِ نصفِ ساعةٍ من الزمان، وفي بقعةٍ ليست بالنائية، كان ثَمَّةَ كلبٌ عَقورٌ يرسلُ عواءً يمزقُ نياطَ القلوبِ من فَرطِ الوجعِ. بيدَ أنَّ سوءَ الحظِّ قضى ألا يَعِيَ صوتَه أحدٌ، فقد غمرت المكانَ جلبةٌ وطنةٌ صَمَّت الآذانَ...

لم يكن في هذا الوجودِ بأسرهِ امرؤٌ واحدٌ يحملُ غاريث سانت كلير على أن يستويَ في مجلسِهِ متصنِّعاً أدبَ الملوكِ، مُصيخاً السمعَ إلى أنغامٍ تنبو عن الطبعِ وتأباها الفطرةُ، سوى جدتِه العظيمةِ الليدي دانبري، فقد كانت هي القطبَ الذي تدورُ حولَهُ رغباتُه.

انحنى غاريث على أذنِ جدتِهِ، بينما كانت أصواتٌ منكرةٌ – يَحسبُ السامعُ أنها لمحاكاةِ "موزارت" – تغتالُ مَسامِعَه، وذلك بعدَ وصلةٍ زُعِمَ أنها من "هايدن"، تلتْ جلبةً أُريدَ بها "هاندل"، فهمسَ قائلاً:

– "لا أعادَ اللهُ علينا هذه الغاشيةَ أبداً."

فردت عليه الجدةُ في همسٍ لم يخلُ من صرامة:

– "لستَ تجلسُ بالأدبِ الذي تدَّعيهِ يا فتى."

تذمرَّ غاريث قائلاً:

– "كان حَرِيّاً بنا أن نتخذَ مكاناً في مؤخرةِ القاعةِ."

أجابتْ بلهجةٍ متهكمةٍ:

– "وَنَحرمَ أنفسَنا من هذا المهرجانِ المرح؟"

عجزَ لسانُ غاريث عن فهمِ كيف يستقيمُ وصفُ حفلاتِ آل سميث–سميث الموسيقيةِ بالمرحِ، غيرَ أنَّ جدتَه كانت تُضمرُ عشقاً لا تفسيرَ له – يكادُ يكونُ مَرَضياً – لهذا المحفلِ السنويِّ الرتيبِ.

وكالعادةِ، استوتْ أربعٌ من فتياتِ آل سميث–سميث فوقَ منصةٍ مرتفعةٍ، اثنتانِ مَسكتَا بالكمنجاتِ، وثالثةٌ بآلةِ "التشيلو"، بينما تربعتِ الرابعةُ خلفَ "البيانوفورت"؛ وكانتِ الجلبةُ التي تخرجُ من تحتِ أناملهنَّ منكرةً نُبُوّاً وتنافراً، حتى لَيكادَ المرءُ ينبهرُ من قُدرتهنَّ على بلوغِ هذا الحدِّ من الرداءةِ.

التفتَ غاريث إلى جدتِهِ وقال:

– "إنَّ حُبَّي لكِ هو الذي ألقى بيِ في هذا الأتونِ."

فردتْ عليه بحدَّةٍ لا يُخففُ من وَطأتِها خفضُ الصوتِ:

– "بل إنَّ حُبِّي لكَ هو الذي يَجعلني أصطحبُكَ مَعي."

وأخيراً – والحمدُ للهِ – انفضَّ السامرُ، وراحتِ الفتياتُ يومئنَ برؤوسِهنَّ ويؤدّينَ تحيةَ الانصرافِ؛ وبدتِ الثلاثُ الأُولى منهنَّ في غايةِ الرضا عن أنفسِهنَّ، أما الرابعةُ – صاحبةُ "التشيلو" – فكانت تَنظرُ وكأنها تودُّ لو تَقذفُ بنفسِها من أقربِ نافذةٍ.

أشاحَ غاريث بوجهِهِ حين سَمِعَ زفرةَ جدتِهِ، فقد كانت تهزُّ رأسَها وقد بدا عليها عطفٌ لم يَعتدْهُ منها. ففتياتُ آل سميث–سميث قد طارتْ شهرتُهُنَّ في لندن بسوءِ العزفِ، وكان كلُّ عرضٍ يقدمنَهُ يخرجُ – لسببٍ غامضٍ – أسوأَ مما سبقهُ. وحين يَحسبُ المرءُ أنه ليس في الإمكانِ أبدعُ مما كانَ في السخريةِ من ألحانِ "موزارت"، يظهرُ جيلٌ جديدٌ من فتياتِ تلك الأسرةِ لِيُثبتَ للعالمِ أنَّ للرداءةِ آفاقاً لم تُكتشفْ بعدُ.

بيدَ أنهنَّ كنَّ فتياتٍ طيباتِ المعشرِ – كما نُقِلَ إليه – وكانتْ جدتُه، في نوبةٍ من نوباتِ حنانِها الجامحِ، تُصِرُّ على أنَّ من الواجبِ أن يجلسَ امرؤٌ ما في الصفِ الأولِ لِيَشدَّ من أزرِهنَّ بالتصفيقِ؛ لأنَّه كما تقولُ:

– "ثلاثٌ منهنَّ لا يُفرّقنَ بين زئيرِ الفيلِ وعزفِ الناي، ولكن ثَمَّةَ دائماً واحدةٌ مِسكينةٌ تذوبُ خجلاً من فَرطِ البؤسِ."

ويبدو أنَّ الليدي دانبري، التي لا تتهيبُ أن تَرشقَ دوقاً بالقولِ بأنهُ لا يملكُ من العقلِ قدرَ ما تملكُه البعوضةُ، كانت ترى من أوجبِ الواجباتِ أن تُصفقَ لتلك الفتاةِ الوحيدةِ من آل سميث–سميث التي لم تُصَبْ أُذنُها بالصممِ الموسيقيِّ في كلِّ جيلٍ.

هبَّ الجميعُ واقفينَ للتصفيقِ، رَغمَ أنَّ غاريث كان يَرتابُ في أنَّ جدتَه إنما فعلتْ ذلك لتجدَ ذريعةً لاستعادةِ مِحجنِها – عصاها – التي كانت هياسنث بريدجيرتون قد تسلمتْها منها دونَ أدنى اعتراضٍ.

همسَ غاريث وهو يلتفتُ خلفَهُ:

– "يا لَكِ من خائنةٍ."

فردتْ عليه هياسنث:

– "إنَّ أصابعَ قدمِكَ هي التي كانت تحتَ رَحمتِها، لا أصابعي."

فارتسمتْ على وجههِ ابتسامةٌ رَغماً عنه؛ إذ لم يَلقَ في حياتِهِ قطُّ مِثلَ هياسنث بريدجيرتون. كانت تارةً تثيرُ إعجابَهُ لِفِطنتِها، وتارةً تثيرُ حَنقَهُ لِصلافتِها، ولكن لم يكن للمرءِ بُدٌّ من الإقرارِ بذكائِها الوقادِ.

إنَّ لـ هياسنث بريدجيرتون مَنزلةً فريدةً بينَ نساءِ الطبقةِ الراقيةِ في لندن. فهي صغرى ثمانيةِ إخوةٍ، نُظمتْ أسماؤُهم حَسْبَ حُروفِ الهجاء، وهي في نظرِ الخاطبينَ صَيدٌ ثمينٌ ومَطمعٌ جليلٌ. لم يَمَسَّ سُمعتَها سوءُ قطُّ، ولم يَعلَقْ بذيلِها غُبارُ الفضائحِ، أما صِلاتُ أهلِها ومَقامُ أسرتِها ففوقَ مَستوى الموازنةِ. كانت حسناءَ الجمالِ، صافيةَ الملامحِ، بعيونٍ زرقاءَ لا تُخفي ما تَنطوي عليهِ من مَهارةٍ ودَهاءٍ. ولعلَّ الأهمَّ من ذلك كُلِّهِ – كما فكَّرَ غاريث في شيءٍ من السخريةِ – ما هَمَسَ به الناسُ من أنَّ شقيقَها الأكبرَ، اللورد بريدجيرتون، قد ضاعفَ مهرَها العامَ الماضي بعدَ أن انقضى موسمُها الثالثُ في لندن دونَ أن يَطرقَ بابَها خاطبٌ يُرتضى.

بيدَ أنهُ حينَ استقصى خَبرَها – لا رغبةً فيها، وإنما حُبّاً في سَبْرِ غَوْرِ تلك الفتاةِ التي تَقضي وقتاً طويلاً مع جدتِهِ – رآى رفاقَهُ يرتعدونَ ذُعراً.

تساءلَ أحدُهم مُستنكراً:

– "هياسنث بريدجيرتون؟ هل تَنوي الزواجَ منها؟ لا جَرَمَ أنك قد جُننتَ!" ووصفَها آخَرُ بأنها "مُخيفةٌ".

لم يكن أحدٌ يبغضُها حقاً – فلها سحرٌ يمتلكُ القلوبَ – غيرَ أنَّ الإجماعَ كان يَنعقدُ على أنَّ جُرعاتٍ قليلةً منها تكفي.

قال أحدُ أصدقائِهِ الحكماءِ:

– "الرجالُ لا يحبونَ النساءَ اللواتي يفُقْنَهم ذكاءً، وهياسنث بريدجيرتون ليستْ من اللواتي يَتصنعنَ الغباءَ لِيَنلنَ الرضا."

كانت في نظرِ غاريث – كما فكَّرَ مراراً – نُسخةً فَتيةً من جدتِهِ. ورَغمَ أنهُ لا يحبُّ في الدنيا أحداً كحُبِّهِ لليدي دانبري، إلا أنهُ كان يرى أنَّ العالَمَ لا يتسعُ إلا لواحدةٍ مِثلِها.

قالتِ الليدي العجوزُ بصوتٍ جَهوريٍّ عَلا فوقَ ضجيجِ التصفيقِ:

– "أما تزالُ غاضباً لمجيئِكَ؟"

لم يَكُنْ جمهورُ آل سميث–سميث يُصفِّقُ بحرارةٍ قطُّ إلا لحظةَ النهايةِ؛ فرحاً بانقضاءِ المحنةِ.

قال غاريث بحزمٍ:

– "لا أعادَ اللهُ علينا هذه الغاشيةَ أبداً."

فردتْ جدتُه بنبرةٍ مِلؤُها الترفعُ الذي يَفضحُ كَذِبَها:

– "بكلِّ تأكيدٍ."

حدقَ في عينَيها مباشرةً وقال:

– "عليكِ أن تجدي رفيقاً غيري في العامِ القادمِ."

قالتِ الليدي دانبري:

– "لم يخطرْ ببالي أبداً أن أسألَكَ ثانيةً."

– "أنتِ تكذبينَ."

– "يا لَها من كَلمةٍ غليظةٍ تَرشقُ بها جدتَكَ الحبيبةَ!" ثم انحنتْ قليلاً وأردفتْ: "كيف عرفتَ؟"

نظرَ إلى العصا الساكنةِ في يدِها وقال:

– "لم تلوّحي بتلك الأداةِ في الهواءِ مُنذُ أن احتلتِ على الآنسةِ بريدجيرتون لِتُعيدَها إليكِ."

قالتِ الليدي:

– "هراءٌ! الآنسةُ بريدجيرتون أذكى من أن يُحتالَ عليها، أليسَ كذلك يا هياسنث؟"

تقدمتْ هياسنث قليلاً لِتُبصرَ الكونتيسةَ من خلفِ غاريث وقالت:

– "عفواً، ماذا قلتِ؟"

قالتِ الليدي دانبري:

– "قولي "نعم" فحسب، فذلك سيغيظُهُ."

ابتسمتْ هياسنث وقالت:

– "نعم، بكلِّ تأكيدٍ إذن."

تابعتِ الجدةُ حديثَها وكأنَّ ذلك الحوارَ العابثَ لم يكن:

– "واعلمْ أنني مثالٌ للرصانةِ والتعقلِ حين يتعلقُ الأمرُ بمِحجني."

رمقَها غاريث بنظرةٍ ذاتِ معنى وقال:

– "إنها لَمعجزةٌ أنَّ قدميَّ لا تزالانِ سليمتينِ."

فردتْ عليهِ بترفُّعٍ:

– "بل المعجزةُ الحقيقيةُ أنَّ أُذنيكَ لا تزالانِ سليمَتينِ بعدَ هذا العزفِ، يا بَنِيَّ."

حذرَها غاريث قائلاً:

– "سأنتزعُ تلك العصا منكِ ثانيةً."

فضحكتِ الليدي وقالت:

– "كلا، لن تفعلَ. سأذهبُ مع بينيلوبي لِأبحثَ عن كأسٍ من شرابِ الليمونِ، ابقَ أنتَ لتؤنسَ وحشةَ هياسنث."

راقبَها وهي تمضي، ثم التفتَ إلى هياسنث التي كانت تَجولُ ببصرِها في الردهةِ بعينينِ مُضيقتينِ.

سألَها:

– "عمن تَبحثين؟"

فأجابتْ:

– "لا أحدَ بعينِهِ، إنما استكشفُ الميدانَ ليس إلا."

نظرَ إليها بفضولٍ وقال:

– "هل تتحدثينَ دائمًا بلسانِ المحققين؟"

هزتْ كتفَيها وقالت:

– "حين يَروقُ لي الأمرُ فقط؛ فأنا أحبُّ الإحاطةَ بكلِّ ما يجري."

– "وهل ثَمَّةَ ما "يجري" الآن؟"

ضاقتْ عيناها ثانيةً وهي تلاحظُ شخصينِ في نِقاشٍ حادٍّ في زاويةٍ قاصيةٍ، وقالت:

– "كلا، ولكنَّ المرءَ لا يَدري أبداً ما يخبئُهُ الغيبُ."

كتمَ غاريث رغبتَهُ في هزِّ رأسِهِ تَعجُّباً، فما رآى امرأةً مِثلَها في غَرابةِ الأطوارِ. ثم نظرَ إلى المنصةِ وسألَ:

– "أهل نَحنُ في مأمنٍ الآن؟"

التفتتْ إليهِ أخيراً، والتقتْ عيناهُ بعينيها الزرقاوينِ بصراحةٍ لم يَعتدْها، وقالت:

– "أتقصدُ هل انقضتِ المحنةُ؟"

– "نعم."

قطبتْ جَبينَها، وفي تلك اللحظةِ لمَحَ غاريث نَمشاً رقيقاً يزينُ أرنبةَ أنفِها، فقالت:

– "أحسبُ ذلك، فلم يسبقْ لهنَّ أن جَعلنَ للعرضِ فاصلاً."

قال غاريث بتأثرٍ بليغ:

– "الحمدُ للهِ! ولماذا يفعلنَ ذلك بأنفسِهنَّ وبالناسِ؟"

– "تقصدُ آل سميث–سميث؟"

– "نعم."

سكتتْ بُرهةً ثم هزتْ رأسَها وقالت:

– "لا أدري. كان يَنبغي للمرءِ أن يظنَّ..." ثم صمتتْ وكأنها تراجعتْ عما ستقولُ: "لا يهم."

ألحَّ عليها غاريث، وقد تملكهُ فُضولٌ لم يتوقعْهُ:

– "أخبريني."

قالتْ:

– "ليس بالأمرِ الخطيرِ، إنما كنتُ سأقولُ إنه يَنبغي للمرءِ أن يظنَّ أنَّ أحداً ما كان سَيُخبرُهنَّ بالحقيقةِ مُنذُ أمدٍ بعيدٍ. ولكن في الواقعِ..." ثم جالتْ ببصرِها في القاعةِ وأردفتْ: "لقد قلَّ عددُ الحاضرينَ في الأعوامِ الأخيرةِ، ولم يَبقَ إلا أصحابُ القلوبِ الرحيمةِ."

– "وهل تَعُدّينَ نفسَكِ من زُمرةِ هؤلاءِ الرحيمينَ يا آنسة بريدجيرتون؟"

رفعتْ بَصَرها إليهِ وقالت:

– "لم أكن لأصِفَ نفسي بذلك، ولكن نعم، أحسبُ أنني كذلك. وجدتكِ أيضاً، رَغمَ أنها ستنكرُ ذلك حتى آخرَ رَمقٍ في حياتِها."

انفجرَ غاريث ضاحكاً وهو يرى جدتَه تَنخسُ دوق أشبورن في ساقِهِ بمِحجنِها، وقال:

– "بلى، ستنكرُ، أليسَ كذلك؟"

لقد كانت جدتُه لِأُمِّهِ هي الملاذَ الأخيرَ في قلبِهِ بَعدَ وفاةِ أخيهِ جورج. فبَعدَ أن طردَهُ أبوهُ من الدارِ، يَمَّمَ شطرَ "دانبري هاوس" في "ساري"، وبثَّ إليها ما جرى، باستثناءِ ذلك السرِّ المُضني المتعلقِ بنسبِهِ.

كان غاريث يَرتابُ دائمًا في أنَّ الليدي دانبري كانت ستهبُّ واقفةً وتَحتفي بالخبرِ لو علمتْ أنهُ ليس من سُلالةِ آل سانت كلير حقاً؛ فهي لم تُطِقْ صِهرَها قطُّ، وكانت تَنعتُهُ دائمًا بـ "ذلك الأحمقِ المتغطرسِ". بيدَ أنَّ كشفَ الحقيقةِ كان سَيُعرّي أُمَّهُ – ابنتَها الصغرى – ويصمُها بالخيانةِ، ولم يكن يريدُ أن يَهتكَ سِترَ ذكراها.

والغريبُ في الأمرِ أنَّ أباهُ – ويا لَلعجبِ كيف لا يزالُ يَدعوهُ بهذا الاسمِ بَعدَ كلِّ تلك السنينِ – لم يَفضحْ أمرَهُ علانيةً قطُّ. لم يُدهشْ ذلك غاريث في

البدايةِ، فاللورد سانت كلير رجلٌ يركبهُ الكبرياءُ، ولن يرضى لنفسِهِ أن يظهرَ أمامَ المَلأِ في مَظهرِ الزوجِ المخدوعِ. وفوقَ ذلك، ربما كان يَأملُ في أن يَكبحَ جِماحَ غاريث يوماً ويُطوّعَهُ لإرادتِهِ، ولعلهُ كان يُمنّي النفسَ بأن يزوجَهُ من ماري وينثروب لِيُعيدَ بناءَ خزائنِ الأسرةِ.

بيدَ أنَّ جورج قد أصيبَ بداءٍ عُضالٍ في السابعةِ والعشرينَ من عُمرِهِ، ولم يبلغِ الثلاثينَ حتى كان قد أسلمَ الروحَ، دونَ أن يتركَ عَقِباً.

وهكذا صارَ غاريث هو الوارثَ الوحيدَ لآل سانت كلير، ووجدَ نفسَهُ في مَأزقٍ لا مَخرجَ منهُ. وطوالَ الأحدَ عشرَ شهراً الماضيةِ، لم يكن يفعلُ شيئاً سوى الانتظارِ. فآجلاً أم عاجلاً، سيعلنُ أبوهُ لِكلِّ مَن يُلقي إليهِ السمعَ أنَّ غاريث ليس ابنَهُ. فمن المؤكدِ أنَّ البارون، الذي كانت تتبُّعُ شجرةِ عائلتِهِ وصِلاتِها بـ "البلانتاجينت" هو شُغلُهُ الشاغلُ بَعدَ الصيدِ، لن يطيقَ أن يؤولَ لقبهُ لِنغلٍ مَجهولِ الدمِ.

كان غاريث يَعلمُ يقيناً أنَّ السبيلَ الوحيدَ لِتَجريدِهِ من الإرثِ هو أن يَسوقَهُ، مَعَ حشدٍ من الشهودِ، أمامَ لجنةِ الامتيازاتِ في مجلسِ اللورداتِ. وسيكونُ ذلك مَحفلاً قبيحاً كدِراً، ولن يُجديَ نفعاً على الأرجحِ؛ فالبارون كان متزوجاً من أُمِّ غاريث وقتَ ولادتِهِ، وهذا يَجعلُهُ ابناً شرعياً في نظرِ القانونِ، بغضِّ النظرِ عن عُروقِهِ.

بيدَ أنَّ ذلك سَيُحدثُ فضيحةً مدويةً قد تودي بمكانتِهِ الاجتماعيةِ. فثَمَّةَ الكثيرُ من النبلاءِ الذين يَحملونَ دماءً من رجالٍ وأسماءً من آخَرينَ، لكنَّ السادةَ لا يحبونَ الخوضَ في ذلك علانيةً.

غيرَ أنَّ الأبَ ظلَّ ساكتاً حتى اللحظةِ، وكان غاريث يتساءلُ أحياناً عما إذا كان البارونُ يَلتزمُ الصمتَ مَكايدةً لَهُ وتعذيباً.

نظرَ غاريث شَطرَ جدتِهِ، التي كانت تتسلمُ كأساً من شرابِ الليمونِ من بينيلوبي بريدجيرتون، بعدَ أن أرغمتْها سِحراً على خدمَتِها. كانت أجاثا، الليدي دانبري، تُوصَفُ دائمًا بأنها سَليطةُ اللسانِ، وذلك في عُرفِ مَن يحبونَها. كانت ذئبة وسطَ مَجالسِ القومِ، لا تهابُ القولَ وتَسخرُ من أعظمِ

الشخصياتِ، بل ومن نفسِها أحياناً. ولكن رَغمَ مرارةِ لسانِها، كانت مِثالاً للوفاءِ لِمَن تُحبُّ، وكان غاريث يَعلمُ أنهُ يتربعُ على عَرشِ تلك القائمةِ.

حينَ ذهبَ إليها وأخبرَها أنَّ أباهُ قد طردَهُ، اشتعلتْ غضباً، لكنها لم تحاولْ قَطُّ استخدامَ نفوذِها ككونتيسةٍ لِإرغامِ اللورد سانت كلير على استعادةِ ابنِهِ.

قالتِ الجدةُ حينذاك:

– "هاه! بل أُفضّلُ أن أبقيَكَ مَعي."

وهكذا كان؛ فقد دَفعتْ نفقاتِ دراستِهِ في كامبريدج، وحينَ تخرجَ، أخبرتْهُ أنَّ أُمَّهُ قد تركتْ لَهُ مِيراثاً صغيراً. لم يكن غاريث يَعلمُ أنَّ أُمَّهُ تملكُ مَالاً، لكنَّ الليدي دانبري لوتْ شِفاهَها وقالت:

– "أتظنني سأسمحُ لذلك الأحمقِ أن يَبسطَ يدَهُ على مَالِها؟ أنا مَن كتبتُ تسويةَ الزواجِ، كما تعلمُ."

ولم يَشُكَّ غاريث في ذلك لِلحظةٍ.

مَنحهُ مِيراثُهُ دَخلاً يسيراً، استأجرَ بهِ شقةً متواضعةً، واستطاعَ أن يُعيلَ نفسَهُ. لم يكن رغيدَ العيشِ، لكنه كان كافياً لِيَشعرَ بأنهُ ليس رَجلاً ضائعاً، وهو أمرٌ اكتشفَ – لِدهشتِهِ – أنهُ يَعنيهِ أكثرَ مما توقعَ.

وكان هذا الشعورُ بالمسؤوليةِ أمراً حَسناً، فإنهُ حينَ يَرثُ لقبَ آل سانت كلير، سَيَرثُ مَعَهُ جبالاً من الديونِ. لقد كان الباronُ يكذبُ بلاشكٍ حينَ زعمَ أنهم سيفقدونَ كلَّ شيءٍ إن لم يتزوجْ من ماري وينثروب، لكنَّ الحقيقةَ كانت أنَّ ثروةَ الأسرةِ غدتْ نزراً يسيراً. وعلاوةً على ذلك، لم يبدُ أنَّ اللورد سانت كلير يُحسنُ تدبيرَ المالِ بأفضلَ مما كانَ، بل يبدو كمن يَقودُ الضياعَ نَحوَ الهاويةِ بانتظامٍ.

كان هذا هو الأمرُ الوحيدُ الذي جَعلَ غاريث يتساءلُ عما إذا كان البارونُ لا يَنوي فَضحَهُ، فلعلهُ يرى أنَّ الانتقامَ الأكبرَ هو أن يتركَ لِابنِهِ الزائفِ تَرِكةً مُثقلةً بالديونِ.

كان غاريث يَعلمُ – بكلِّ ذرةٍ ـفي كيانِهِ – أنَّ البارونَ لا يرجو لَهُ سعادةً قطُّ. ورَغمَ أنَّ غاريث لم يكن يَحضرُ أغلبَ حفلاتِ السادةِ، إلا أنَّ لندن كانت ضيقةً اجتماعيًا، ولم يكن هناك مهرب من لقاءِ أبيهِ أحياناً. ولم يكن اللورد سانت كلير يبذلُ أيَّ جُهدٍ لإِخفاءِ عدائِه.

أما غاريث – فلم يكن بأفضلَ حالاً ـفي كتمانِ مَشاعرِهِ؛ إذ يَنزلقُ دائمًا إلى مسالِكِهِ القديمةِ، فيفعلُ ما يثيرُ حَنقَ البارونِ عَداً. وفي آخرِ مَرةٍ جمعتْهما، ضحكَ غاريث بصوتٍ عالٍ، ثم رقصَ مع أرملةٍ مَشهورةٍ بلهوِها.

فاحمرَّ وجهُ اللورد سانت كلير، وفحَّ بكلماتٍ تزعمُ أنَّ غاريث ليس بأفضلَ مما يَنبغي أن يكونَ. لم يفهمْ غاريث مقصَدَهُ تماماً، فقد كان البارونُ مَخموراً على أيةِ حالٍ، لكنَّ ذلك تركَ ـفي نفسِهِ يقيناً واحداً:

إنَّ العاصفةَ آتيةٌ لا مَحالة. حين لا أتوقعُها، أو ربما الآن وقد غدوتُ شديدَ الريبةِ، حين أشرعُ ـفي تغييرِ حَياتي أو المضيِّ قُدُماً... حينذاك سَيضربُ البارونُ ضربتَهُ، وسينهارُ عالَمي فوقَ رأسي.

قالتْ هياسنث بريدجيرتون:

– "سيد سانت كلير؟"

رمشَ غاريث بعينيهِ والتفتَ إليها، وشعرَ بالخجلِ لأنهُ أمعنَ ـفي التفكيرِ وتجاهلَ وجودَها. همسَ قائلاً:

– "أعتذرُ منكِ بشدة، فقد شردتُ بذهني بَعيداً." ورسمَ على وجههِ تلك الابتسامةَ الوئيدةَ التي تُفلحُ دائمًا ـفي استرضاءِ النساء.

وحينَ رأى على وجهِها علاماتِ الريبةِ، أردفَ:

– "فأنا أُفكرُ من حينٍ لآخَر، رَغمَ ما قد يَبدو عليَّ."

ابتسمتْ هياسنث رغماً عنها، فَعَدَّ ذلك نصراً؛ فاليومُ الذي يَعجزُ فيهِ عن إضحاكِ امرأةٍ هو اليومُ الذي يَنبغي لَهُ فيهِ اعتزالُ الحياةِ والارتحالُ إلى أقاصي الجُزرِ النائيةِ.

قال غاريث:

– "في الظروفِ العاديةِ، كنتُ سأسألُكِ عما إذا كنتِ قد استمتعتِ بهذا الحفلِ الموسيقيِّ، ولكن يبدو أنَّ في ذلك سُؤالاً غليظاً وقسوةً لا تليقُ."

تململت في مَقعدِها، وهو أمرٌ استرعى انتباهَهُ؛ فمعظمُ الفتياتِ يتدربنَ مُنذُ الصغرِ على السكونِ التامِ. ووجدَ نفسَهُ يَميلُ إليها أكثرَ بسببِ تلك الطاقةِ القلقةِ؛ فهو أيضاً من النوعِ الذي يَعجزُ عن إبقاءِ أناملِهِ ساكنةً.

انتظرَ جَوابَها، لكنَّ ملامحَ الِاضطرابِ بدتْ عليها، ثم انحنتْ نَحوَهُ وهمستْ:

– "سيد سانت كلير؟"

انحنى هو الآخَرُ، ورفعَ حاجباً في مَكرٍ وقال:

– "آنسة بريدجيرتون؟"

– "أتمانعُ لو قُمنا بجولةٍ في القاعة؟"

تريثَ لِيلمحَ إشارتَها الخفيةَ برأسِها نَحوَ اللورد سومرشال، الذي كان يضطربُ في مَقعدِهِ بجَسدِهِ الضخمِ الملاصقِ لـ هياسنث.

نهضَ غاريث بشهامةٍ وقدمَ لَها ذراعَهُ قائلاً:

– "بكلِّ سرورٍ؛ فعليَّ أن أُنقذَ اللورد سومرشال بَعدَ كلِّ شيء."

نظرتْ إليهِ بِحدةٍ وقالت:

– "عفواً، ماذا قلتَ؟"

– "لو كنتُ من رجالِ الرهانِ، لَوضعتُ رِهاني عليكِ بنسبةِ أربعةٍ إلى واحدٍ."

بدتْ عليها الحيرةُ لِثوانٍ، ثم ارتسمتْ على وجهِها ابتسامةُ رضا وقالت:

– "أتقصدُ أنك لستَ من رجالِ الرهان؟"

ضحكَ وقال بصدقٍ:

– "لا أملكُ مَالاً يكفي لِلرِهانِ."

– "يبدو أنَّ فقرَ المالِ لا يمنعُ معظمَ الرجالِ."

فردَّ عليها وهو يميلُ برأسِهِ:

– "ولا معظمَ النساء."

همستْ وهي تجولُ ببصرِها: "أصبتَ. فنحنُ أُمَّةٌ تَعشقُ المقامرةَ، أليسَ كذلك؟"

– "وماذا عنكِ يا آنسة بريدجيرتون؟ أتحبينَ الرهان؟"

قالتْ بصراحةٍ أدهشتْهُ: "بكلِّ تأكيدٍ، ولكن حينَ أوقنُ أنَّ الفوزَ حليفي."

ضحكَ وهو يَقودُها نَحوَ مَائدةِ المرطباتِ:

– "لسببٍ غامضٍ، أنا أصدقُكِ."

– "أوه، يَنبغي لكَ ذلك. سَلْ كلَّ مَن يَعرفني."

قال وهو يَمنحُها أبهى ابتساماتِهِ: "لقد جَرحتِني ثانيةً؛ فقد ظننتُ أنني أعرفُكِ."

فتحتْ فمَها لِتُجيبَ، ثم بدتْ مَصعوقةً لأنها لم تَجدْ جَواباً. أشفقَ عليها غاريث وقدمَ لَها كأساً من شرابِ الليمونِ وهمسَ:

– "اشربي؛ فقد بدا عليكِ الظمأ."

ضحكَ وهي ترمقُهُ بنظرةٍ ناريةٍ من فوقِ حافةِ كَأسِها، مما زادَ من رغبتِها في إحراقِهِ بنظراتِها.

قَرَّ في نفسِهِ أنَّ ثَمَّةَ مَنزعاً من المتعةِ الخالصةِ يَكتنفُ الحديثَ إلى هياسنث بريدجيرتون؛ فقد كانت – وربي – نسيجَ وَحدِها في الذكاء، بل كانت من أُولي الحِجا والنهى، يَغمرُها تِيهٌ بذكائِها كأنما جُبِلتْ على أن تكونَ قُطبَ الرَّحى وألمعيَّةَ المَحفِلِ أينما حلَّتْ. ولم يكن ذلك مَنفراً أو مَدعاةً للزُّهدِ فيها، بل كانت تَفيضُ سِحراً وجاذبيةً على طريقتِها الخاصةِ. وتخيَّلَ الفتى أنها لم تَجد بُدّاً من إرسالِ الكلامِ على عَواهنِهِ والإفصاحِ عما يجيشُ في صَدرِها بِكُلِّ جُرأةٍ، لِيُسمعَ لَها صَوتٌ في كَنَفِ أُسرتِها؛ فما هي إلا صُغرى ثمانيةٍ من الإخوةِ والأخواتِ.

بيدَ أنَّ ذلك الطبعَ جعلَهُ يَستعذبُ رؤيتَها وقد عُقِدَ لِسانُها وغاضَ بَيانُها؛ فقد كان يجدُ لَذةً في إرباكِ حِسِّها وبَلبلةِ فِكرِها، ولا يَدري لِمَ لا يَتخذُ من ذلك ديدناً يَتعهَّدُهُ في كُلِّ حين.

رَقَبها وهي تَضعُ كَأسَها، ثم بادرَتْهُ قائلةً:

- "أنبِئني يا سيد سانت كلير؛ أيُّ سِحرٍ نَفثتْ بهِ جَدَّتُكَ في رُوعِكَ لِتَحملَكَ على الحضورِ في هذه الليلةِ النَّكراءِ؟"

فأجابَها غاريث:

- "أوَتَحسبينَ أنني لم آتِ طَوعاً من تِلقاءِ نَفسي؟"

رفعتْ حاجباً واحداً في تِيهٍ أعجَبَهُ؛ فقد كان إعجابُهُ يَعظُمُ كُلَّما رآى غادةً تَملكُ ناصيةَ تِلك الإيماءةِ البليغةِ.

تابعَ غاريث قائلاً:

- "حَسناً، لقد كان ثَمَّةَ فيضٌ من اضطرابِ اليدينِ، وحديثٌ مُستفاضٌ عن زِيارةِ طَبيبِها، ثم زَفَرَتْ زَفرةً مكلومةً حسبتُها النَّزعَ الأخيرَ."

سألتْهُ:

- "أَزَفرةً واحدةً فقط؟"

رفعَ حاجبَهُ مُداعباً ورَدَّ عليها:

- "إنَّ شكيمتي أقوى من ذلك يا آنسة بريدجيرتون؛ فقد استغرقَ الأمرُ نِصفَ ساعةٍ كاملةٍ من التَّوسُّلِ حتى انهارَ صُمودي."

أومأتْ برأسِها وقالت:

- "إذن أنتَ رَجُلٌ مَطبوعٌ على الإجادةِ."

دنا منها بظِلِّهِ الممدودِ ورسمَ على شفتيهِ ابتسامةً عذبةً وهَمَسَ:

- "أُجيدُ أُموراً شتَّى، لَيس هذا فحسب."

ارتمى على وجنَتَيها وَردُ الخجلِ، وهو أمرٌ أثلجَ صَدرَهُ وأبهجَ نَفسَهُ، لكنها استجمعتْ رِباطةَ جَأشِها وقالت:

- "لقد حُذِّرتُ من صِنفِكَ من الرجالِ."

- "أرجو لِكُلِّ ناصحٍ أن يكونَ قد صَدقَكَ القولَ."

ضحكتْ هياسنث وقالت:

- "لا أحسبُكَ بذاك البطشِ الذي تَدَّعيهِ، ولا أراكَ مَخوفَ الجانِبِ كما تَرومُ أن يظنَّ الناسُ."

أمالَ رأسَهُ جَانِباً وسألَها:

– "وَمَا الذي حَملكِ على هذا الظنِّ؟"

لم تُجِبْ على الفَوْرِ، بل جعلتْ تَعضُّ على شَفَتِها السُّفلى وهي تَتخيَّرُ لِقولِها بَليغَ الكَلِمِ، ثم قالتْ أخيراً:

– "لأنَّكَ غارقٌ في لُطفِكَ وجَميلِ صَنيعِكَ مع جَدَّتِكَ."

– "رُبما قالَ القائلُ إنها هي مَن تَفيضُ عليَّ باللُّطفِ."

هزتْ هياسنث كَتفَيْها وقالت:

– "أوه، إنَّ هذا القولَ ذائعٌ بَينَ الناسِ، ويَلهجُ بهِ الكثيرون."

غَصَّ بشرابِ الليمونِ من مَفاجأةِ قولِها وسألَها:

– "أما في جَسدِكِ ذرةٌ من مكرِ النساءِ أو دَلالِ العذارى؟"

رمقتْ هياسنث كُلّاً من بينيلوبي والليدي دانبري بنظرةٍ خاطفةٍ قبل أن تَعودَ إليهِ قائلةً:

– "أنا أُحاولُ جاهدةً تَمثُّلَ ذلك، ولكن يَبدو أنني خِلوٌ منه تَماماً؛ ولعلَّ هذا هو السَّببُ في بَقائي دونَ زواجٍ حتى الآن."

ابتسمَ غاريث وقال:

– "لا جَرَمَ أنَّ الأمرَ لَيس كذلك."

قالتْ مُؤكدةً، رَغمَ يَقينِها بأنهُ يُداعبُها:

– "بلى، هو كذلك؛ فالرجالُ في حاجةٍ دَائمةٍ لِمَن يَنصبُ لَهم شِباكَ الزواجِ لِيُساقوا إليهِ سَوْقاً، سواءً أَدَروا ذلك أم غفَلَوا عنه. ويبدو أنني أفتقدُ مَهارةَ القَنصِ تِلك."

افترَّ ثَغرُهُ عن مَرحٍ وسألَها:

– "أتقصدينَ أنكِ براءٌ من الخديعةِ والمَكرِ؟"

اعترفتْ قائلةً:

– "أنا أَجمعُ بَينَ الخصلتَيْنِ، ولكنني أفتقدُ الدِّقةَ والتواري."

هَمَسَ غاريث:

– "نعم."

ولم تدرِ الفتاةُ أكانَ اتفاقُهُ معها في الرأي يُزعجُها أم يَروقُ لَها.

تابعَ غاريث حديثَهُ بفضولٍ مَشبوبٍ:

– "ولكن أنبئيني، فقد مَلَكَني العَجَبُ؛ لِمَ تَرينَ أنَّ الرجالَ لا بدَّ لَهم من شِباكٍ لِيَقعوا في أَسرِ الزواجِ؟"

سألتْهُ مُستنكرةً:

– "أَكُنْتَ ستمضي إلى مِحرابِ الزواجِ طوعاً من تِلقاءِ نَفسِكَ؟"

– "كلا، ولكن –"

– "أرأيتَ؟ لقد صَدَّقَ الواقعُ ظنِّي."

وبدتْ كأنها وجدتْ في قولِهِ ذاك راحةً لنفسِها، فقال لَها غاريث:

– "ويحَكِ يا آنسة بريدجيرتون! إنَّ هذا لَمن ضيقِ الذَّرعِ بالنزالِ؛ ألا تَتركينَ لي فُرصةً لِإتمامِ حُجَّتي؟"

أمالتْ رأسَها وقالت:

– "وهل كان لَديكَ ما يُثيرُ الاهتمامَ لِتقولَهُ؟"

ابتسمَ لَها، فَسرتْ في أوصالِ هياسنث قَشعريرةٌ بلغتْ مَكامِنَ شُعورِها، وهَمَسَ:

– "أنا مَبعثُ الإثارةِ دَوماً، والحديثُ إليَّ لا يُمَل."

– "أنتَ الآنَ تحاولُ إلقاءَ الرُّعبِ في قلبي."

لم تَدرِ من أينَ تَهجمُ عليها تِلك الجُرأةُ العاتيةُ؛ فـ هياسنث لم تكن رِعديدةً قَط، ولم تكن بذاتِ الوقارِ الساكنِ الذي يَنبغي لِمِثلِها، لكنها لم تكن مُتهورةً أيضاً. وغاريث سانت كلير لم يكن من طِرازِ الرجالِ الذين يُعبثُ مَعهم.

كانت تلاعبُ لظى النارِ، وتَعلمُ عاقبةَ حرقِها، لكنها لم تجد إلى كبحِ جِماحِ نَفسِها سبيلاً. كأنَّ كُلَّ لفظٍ يخرجُ من بَينِ شفتيهِ كان استنفاراً لِقُواها، وكان عليها أن تَستجمعَ فِطنتَها كُلَّها لِتَبقى في مَيدانِ السِّجالِ.

فلو كان هذا اللقاءُ مَيدانَ سِباقٍ، لآثرتْ ألا تخرجَ منهُ إلا وهي مَعقودةُ اللواءِ بالفوز.

ولو قُدِّر لَها أن تَهلكَ بعيبٍ من عُيوبِها، فلا جَرَمَ أنَّ هذا التحديَ هو الذي سَيُورِدُها المواردَ.

قال غاريث:

– "يا آنسة بريدجيرتون؛ أحسبُ أنَّ الشيطانَ بِمَكرِهِ يَعجزُ عن إفزاعِكِ."

أرغمتْ عينيها على لقاءِ عينيهِ وقالت:

– "لستُ أدري أهذا مَدحٌ أزدانُ بهِ، أم ذَمٌّ أُرمى بهِ؟"

تناولَ يدَها ورفعَها إلى شفتيهِ، وطبعَ عليها قُبلةً رقيقةً كأنها نَسيمُ الفجرِ، وهَمَسَ:

– "عليكِ أن تَستجلي ذلك بنفسِكِ."

بدا للناظرينَ كأنهُ مِثالٌ للوقارِ والأدبِ الرفيعِ، بيدَ أنَّ هياسنث لَمحتْ بريقَ الجُموحِ في عينيهِ، وشعرتْ كأنَّ أنفاسَها قد تلاشتْ، وسرتْ في إهابِها نَفحةٌ من سِحرٍ جَعلتْ جَسدَها يرتجفُ لَذَّةً ورهبةً. انفرجتْ شَفتاها، بيد أنها لم تَجد في جَعبتِها كَلمةً واحدةً؛ فقد ضاقَ عليها الفضاءُ، وعزَّ عليها حتى الهواءُ.

ثم استقامَ في وَقفتِهِ كأنَّ شيئاً لم يَكن، وقال:

– "أريدُ أن أعلمَ ما استقرَّ عليهِ رأيُكِ."

اكتفتْ هي بالتحديقِ فيهِ بذهولٍ.

فأردفَ قائلاً:

– "أقصدُ بشأنِ المَدحِ الذي قُلتُه؛ فأنا على يَقينٍ من أنكِ ستَرغبينَ في إخباري بما استشعرْتُهُ نَحوَكِ."

سقطَ فَمُها مَفتوحاً من فَرطِ الدهشةِ، فافترَّ ثغرُهُ عن ابتسامةٍ عريضةٍ وقال:

– "لقد عُقِدَ لِسانُكِ تماماً؛ إنَّ هذا لَمَفخرةٌ لي أُهَنَّأُ عليها."

قالت:

– "أنتَ..."

قطعَ قولَها وهو يرفعُ يدَهُ في الهواءِ ويُشيرُ نَحوَها، كأنهُ يَرغبُ في وضعِ إصبعِهِ على شفتيها لِيُسكتَها:

– "لا، لا تُفسدي تِلك اللحظةَ؛ فهي أندرُ من أن تَتكررَ."

كان بوسعِها أن تَنطقَ، بل كان يَجبُ عليها أن تَنطقَ، لكنها لم تَملكْ إلا أن تَقِفَ مَكانَها كالبلهاءِ، أو كشخصٍ آخَرَ لم تَعهَدْهُ في نَفسِها قَط.

هَمَسَ غاريث:

– "إلى لقاءٍ قادمٍ يا آنسة بريدجيرتون."

ثم انصرفَ وغابَ عن ناظريها.

الفصل الثالث

بعد انصرامِ ثلاثةِ أيامٍ من عُمرِ الزمانِ، وقفَ بطلُنا على حقيقةٍ مُرّةٍ مفادُها أنَّ المرءَ لا يَملكُ الانفلاتَ من رِبقةِ ماضيهِ أبداً، مهما نأى بجانبهِ أو ضربَ في الأرضِ مَهرباً.

قال خادِمُهُ الجديدُ وهو يَمثلُ بين يديهِ:

– "ثَمَّةَ سيدةٌ بالبابِ تَبغى لِقاءَكَ يا سيدي."

رفعَ غاريث بَصرهُ عن مَكتبهِ؛ ذلك الماردِ الضخمِ المَصنوعِ من خشبِ الماهوجني الذي استأثرَ لِنفسِهِ بنِصفِ مَساحةِ غُرفةِ مَكتبِهِ الضيقةِ، وسألَ مُستوضحاً:

– "سيدةٌ، تَقُول؟"

أومأَ الخادمُ برأسِهِ وقال:

– "لقد زَعمتْ أنها زوجةُ أخيكَ الراحل."

انتفضَ انتباهُ غاريث كأنما لَسعتْهُ نارٌ، وهتفَ:

– "كارولين؟ أَذِنْ لَها بالدخولِ لِلحين."

هبَّ واقفاً يَستقبلُ قُدومَها. لَعَمْرُ الحقِّ إنهُ لم يَرَ كارولين مُنذُ أشعرٍ طِوال، ولم يَلتقِها إلا مَرةً واحدةً يتيمةً مُنذُ مُواراةِ جورج الثرى، ولم تكن تِلك المناسبةُ – وعِلمُ اللهِ – بالمَقامِ الذي يُستجلبُ فيهِ السرورُ. لقد قضى غاريث وقتَهُ آنذاك يَتوارى عن ناظري أبيهِ، مِمَّا زادَ من وَطأةِ الكربِ فوقَ حُزنِهِ الذي هَدَّ أركانَهُ فاجعةً في أخيهِ.

لقد أصدرَ اللورد سانت كلير أمراً حازماً لِـ جورج بأن يَقطعَ كُلَّ آصرةٍ تربطُهُ بـ غاريث، بيدَ أنَّ جورج لم يَرضَ قَطُّ بأن يَبُتَّ حِبالَ المودةِ بينهما. ـفِي كُلِّ شأنٍ آخَرَ، كان جورج طوعَ بَنانِ أبيهِ، إلا ـفِي هذا الأمرِ؛ فَقَد عصاهُ عصياناً جميلاً، وزادَهُ ذلك حُبّاً ـفِي قلبِ غاريث. لم يكن البارون يريدُ لِـ غاريث أن يَشهدَ مَراسمَ الجنازةِ، ولكن حينَ اقتحمَ الفتى حِمى الكنيسةِ، لم يَجرؤ الأبُ على إثارةِ جَلبةٍ بَينَ المَلأِ لإخراجِهِ عَنوةً.

جاءَ صَوتٌ رقيقٌ يَقطعُ سكونَ خلوتِهِ:

– "غاريث؟"

التفتَ عن النافذةِ، ولم يكن يَدري أنهُ كان يَرنو إليها بَصراً كَليلاً، وقال بِمودةٍ وهو يتقدَّمُ لِتحيةِ أرملةِ أخيهِ:

– "كارولين، كيفَ حالُكِ يا عزيزتي؟"

هزتْ كَتفيها ـفِي استسلامٍ حزين. لقد كان زواجُها من جورج رِباطاً مَعقوداً على الحُبِّ الخالصِ، ولم يَرَ غاريث ـفِي حَياتِهِ مَنظراً يَفطرُ الفؤادَ كَمَنظرِ عَيْنَي كارولين يومَ جِنازةِ زَوْجِها.

قال غاريث ـفِي صَوتٍ خفيض:

– "أنا أعلمُ ما تُقاسينَهُ."

فلقد كان يفتقدُ جورج لَوعةً وأسى. كانا نَقيضينِ لا يجتمعانِ؛ جورج الوقورُ الرصينُ، وغاريث الجامحُ الذي لا يَعرفُ القيدَ. بيدَ أنهما كانا صديقينِ قَبلَ أن يكونا أخوينِ، وكان غاريث يُحبُّ أن يظنَّ أنَّ كُلّاً منهما كان يُتممُ نَقصَ الآخَرِ. وفي الآونةِ الأخيرةِ، طفقَ غاريث يُحدّثُ نَفسَهُ بوجوبِ سُلوكِ طَريقِ الرَّشادِ، مُتخذاً من ذكرى أخيهِ مَناراً يَهتدي بِهِ ـفِي عَمَلِهِ ومَسلكِهِ.

قالتْ كارولين:

– "كنتُ أنبشُ ـفِي مقتنياتِهِ، فعثرتُ على شيءٍ أحسبُهُ مِلكاً لَكَ."

راقبَها غاريث بفضولٍ وهي تُخرجُ من حَقيبتِها كُتَيّباً صغيراً، فقال:

– "لستُ أعرفُ هذا الكُتَيّب."

فردتْ كارولين وهي تُناوله إياه:

– "بلى، لَن تَعرفَهُ؛ فهذا مِلكٌ لِجَدَّة لِأبيكَ."

جدةُ أبيك! لم يَملكْ غاريث مَنعَ نَفسِهِ من تَقَليصِ وجهِهِ في امتعاضٍ دَفين؛ فـ كارولين لا تَعلمُ أنَّ نَسبَهُ لآل سانت كلير ليس إلا وهماً، ولم يكن يَدري يقيناً إن كان جورج قد عَرفَ الحقيقةَ أم لا، فلو عَرفَها لَمَا نَطقَ بها قَطُّ.

كان الكُتيبُ صغيراً، مُجلَّداً بجلدٍ بنيٍّ عتيق، ولهُ لِسانٌ جلديٌّ يمتدُّ من الخَلَفِ لِيوثِقَ في الأمامِ بزرٍّ صغيرٍ. فَكَّ غاريث القفلَ بعنايةٍ فائقةٍ، وفتحَ الصفحاتِ التي عَدا عليها الزمانُ فغدتْ رقيقةً كأجنحةِ الفراشِ، وقال بدَهشة:

– "إنها مُذكراتٌ!" ثم افترَّ ثغرُهُ عن ابتسامةٍ حين رآى أنها كُتبتْ باللغةِ الإيطاليةِ، وسألَ: "مَا الذي تَحتويهِ تِلك السطورُ؟"

فأجابتْ كارولين:

– "لا عِلمَ لي؛ فلم أكن أَعرفُ بوجودِها حتى وجدتُها في مَكتبِ جورج في مُستهلِّ هذا الأسبوعِ، ولم يسبقْ لَهُ أن ذَكرَها لي بكلمة."

رنا غاريث إلى المُذكراتِ، وإلى ذلك الخطِّ الأنيقِ الذي صاَغ كلماتٍ لا يَفقهُ لَها مَعنى. كانت جَدَّةُ أبيهِ ابنةَ بيتٍ عريقٍ من نُبلاءِ إيطاليا. وكان يُضحكهُ دائمًا أنَّ أباهُ نِصفُ إيطاليٍّ؛ فالبارونُ كان يَعتدُّ بنَسبِ آل سانت كلير اعتداداً يُجاوزُ الحدَّ، ويُباهي بأنَّ جذورَهم نَبَتتْ في إنجلترا مُنذُ غزوِ "النورمان"، بل لا يذكرُ غاريث أنَّ أباهُ أتَى على ذِكرِ أُصولِهِ الإيطاليةِ قَطُّ.

قالتْ كارولين:

– "لقد تركَ جورج رِسالةً يُوصيني فيها بأن أدفعَ بهذا الكُتَيّبِ إليكَ."

عادَ بَصرهُ إلى الكتابِ، وقد ثَقُلَ قلبُهُ هَمّاً؛ فهذا دليلٌ آخَرُ على أنَّ جورج لم يَعلمْ قَطُّ أنهما لم يكونا أخوينِ شقيقينِ بالدمِ. فـ غاريث لا تجمعهُ بـ إيزابيلا مارينزولي سانت كلير أيةُ صِلةِ دَمٍ، وليس لَهُ حَقٌّ شرعيٌّ في مُذكراتِها.

قالتْ كارولين بابتسامةٍ حالمةٍ رقيقة:

– "عليك أن تَجدَ مَن يَنقلُ لَكَ هذا الكلامَ إلى الإنجليزية؛ فأنا يتملكُني الفُضولُ لِمَعرفةِ ما خُطَّ فيه. لقد كان جورج دائمَ الثناءِ على جَدَّتِكُما."

أومأَ غاريث برأسِهِ. لقد كان يذكرُها بمودةٍ أيضاً، رَغمَ قِصَرِ ما قضياهُ من وقتٍ مَعاً. لم يكن اللورد سانت كلير على وِفاقٍ مع أُمِّهِ، لذا لم تكن إيزابيلا تكثرُ من زِيارتِهم. بيدَ أنها كانت تُغدقُ الحنانَ على "حفيديها الغاليين" – كما كانت تَدعوهما بلغتِها – ويذكرُ غاريث أنهُ أحسَّ بانفطارِ قلبِهِ الصغيرِ حين تناهى إلى سَمعِهِ وهو في السابعةِ من عُمرِهِ أنها قد فَارقتِ الحياةَ. وإذا كانت المودةُ تَقومُ مَقامَ الدمِ في المنزلةِ، فقد رآى أنَّ تِلك المُذكراتِ قد وجدتْ مَستقرَّها الحقيقيَّ بَينَ يديهِ.

قال غاريث:

– "سأنظرُ في الأمرِ، ولا أحسبُ أنَّ العثورَ على مُترجمٍ لِلُّغةِ الإيطاليةِ بالأمرِ العسير."

حذرتْهُ كارولين:

– "إياكَ أن تضعَ سِرَّكَ بينَ يَدَيْ أيٍّ كان؛ فهذه مُذكراتُ جَدَّتِكَ، وهي تَحوي خَفايا نَفسِها وما استترَ من خَواطرِها."

أقرَّ غاريث صِدقَ قولِها؛ فهو مَدينٌ لـ إيزابيلا بأن يختارَ لِترجمةِ سِيرتِها رَجلاً حفيظاً كتوماً. وعَرفَ لِتَوِّهِ من أينَ يَبْدأُ رحلةَ البحثِ.

قال فجأةً وهو يَزِنُ الكُتَيِّبَ في يدِهِ صُعوداً وهبوطاً كأنهُ يَختبرُ ثِقَلَهُ:

– "سأحملُ هذا الكُتَيِّبَ إلى الجَدَّةِ دانبري؛ فهي بلاشكٍ سَتُرشدُني لِما فيهِ الرَّشاد."

وكان واثقاً من ذلك؛ فالليدي دانبري كانت تَدَّعي أنها تُحيطُ بكلِّ شيءٍ عِلماً، والحقيقةُ المزعجةُ أنها كانت تُصيبُ في زَعمِها ذلك غالباً.

قالتْ كارولين وهي تَهُمُّ بالانصراف:

– "أخبرني بما يَنكشفُ لَكَ من أمرِها."

تَمتمَ غاريث:

– "بكلِّ تأكيد." بيد أنها كانت قد غادرتِ المكان. نَظرَ إلى الكتابِ، فقرأَ: العاشر من سبتمبر، عام ١٧٩٣...

هزَّ غاريث رأسَهُ وضَحكَ ضِحكةً مَريرةً؛ فلقد قُدِّر لَهُ ألا يَنالَ من ثرواتِ آل سانت كلير إلا مُذكراتٍ لا يَفقهُ لُغتَها!

يا لَسخريةِ القَدَر!

وفي تِلك الأثناءِ، وفي رِحابِ غُرفةِ استقبالٍ ليستْ بالبعيدةِ...

صَرختِ الليدي دانبري نَاخرةً:

– "مَاذا؟ إنَّ صَوتَكِ لا يَكادُ يَبين!"

أطبقتْ هياسنث الكتابَ الذي كانت تَقرأُ فيهِ، وأبقتْ سبابتَها بَينَ الصفحاتِ لِتَحفظَ مَوضِعَ القراءةِ. لقد كانت الليدي دانبري تَهوى التظاهرَ بالصممِ حين يَروقُ لَها الأمرُ، ويَبدو أنهُ يَروقُ لَها كُلَّما بَلغتْ هياسنث مَواضعَ الإثارةِ في تِلك الرواياتِ المبتذلةِ التي تَعشقُها الكونتيسةُ.

قالتْ هياسنث وهي تُسددُ نَظراتِها لِوجهِ الليدي:

– "لقد قُلتُ إنَّ بطلتَنا العزيزةَ كانت تَلهثُ من فَرطِ التعبِ، بل دَعيني أتثبتُ... نعم، كانت تَتلاحقُ أنفاسُها ويَضيقُ صَدرُها." ثم رَفعتْ بَصرَها وقالت: "تَتلاحقُ أنفاسُها ويَضيقُ صَدرُها؟"

لَوحتِ الليدي دانبري بيدِها في استخفافٍ وقالت:

– "هراء!"

نظرتْ هياسنث إلى غِلافِ الكتابِ وقالت:

– "أتساءلُ حقاً إن كانتِ الإنجليزيةُ هي اللغةُ الأُمُّ لِهذا الكاتب؟"

أمرتْها الليدي:

– "تابعي القراءةَ."

فردتْ هياسنث:

– "حَسناً، لنرَ... راحتِ الآنسةُ بَمبلهيد تَعْدُو كَالرِّيحِ حِينَ لَمحتِ اللورد سَافاجوُود يَتَّجِهُ نَحْوَهَا."

ضيقتِ الليدي دانبري عينيها وقالت:

– "ليس اسمُها بَمبلهيد."

همستْ هياسنث:

– "بل يَنبغي لَهُ أن يكونَ كذلك."

وافقتْها الليدي قائلة:

– "هذا حَق، ولكننا لم نَصنعِ القصةَ، أليسَ كذلك؟"

تنحنحتْ هياسنث ووجدتْ مَوضعَها ثانيةً:

– "كان يَقتربُ منها أكثرَ، وراحتِ الآنسةُ بَمبلشوت –"

صاحتِ الليدي:

– "هياسنث!"

تذمرتْ هياسنث:

– "باتروورث، أياً كان اسمُها البغيضُ، لقد وَلَّتْ هاربةً نَحوَ المُنحدراتِ. انتهى الفصل."

– "المُنحدرات؟ أما تزالُ تَعْدُو نَحوَها؟ ألم تكن تَعْدُو في نهايةِ الفصلِ السابق؟"

– "رُبما كان الطريقُ طويلاً لا يَنتهي."

ضيقتِ الليدي عينيها وقالت:

– "لستُ أصدقُكِ."

هزتْ هياسنث كَتفيها وقالت:

– "صحيحٌ أنني قد أكذبُ عليكِ لِأتخلصَ من قراءةِ الفقراتِ القادمةِ عن حياةِ بريسيلا باتروورث المليئةِ بالمخاطرِ المضحكةِ، ولكنني في هذه المرةِ أقولُ الصدق." وحين صَمتتِ الليدي، قدمتْ لَها الكتابَ وقالت: "أتريدينَ التثبتَ بنفسِكِ؟"

قالتِ الليدي دانبري بتصنُّعِ الرضا:

– "كلا، كلا؛ سأصدقُكِ، فليس أمامي خيارٌ آخَر."

رمقتها هياسنث بنظرةٍ حادةٍ وقالت:

– "أوصرتِ عَمياءَ أيضاً بَعدَ أن أصابَكِ الصمم؟"

تنهدتِ الليدي ورفعتْ يدَها حتى استقرتْ ببراحةِ كفِّيها على جَبهتِها وقالت:

– "كلا، إنما أتدربُ على فُنونِ الدراما العالية."

انفجرتْ هياسنث ضاحكةً.

قالتِ الليدي دانبري وهي تَستعيدُ صَوتَها الحادَّ المعهودَ:

– "أنا لا أمزح؛ فأنا أُفكرُ جدِياً في تغييرِ مَسارِ حَياتي. إنني أستطيعُ أداءَ الأدوارِ على المَسرحِ بأفضلَ من تِلك الأحمقاتِ اللواتي يَدَّعينَ التمثيل."

فردتْ هياسنث:

– "للأسفِ، لا يَبدو أنَّ السُّوقَ تطلبُ كونتيساتٍ طاعناتٍ في السنِّ لِأداءِ الأدوار."

ضربتِ الليدي مِحجنَها بالأرضِ رَغمَ أنها كانت تَجلسُ على مَقعدٍ مريحٍ، وقالت:

– "لو قال لي أحدٌ غَيرُكِ هذا الكلامَ، لَعَدَدْتُهُ إهانةً نكراء."

سألتْها هياسنث بتصنُّعِ الخيبةِ:

– "ولكنكِ لا تَعُدِّينَهُ كذلك مني؟"

ضَحكتِ الليدي دانبري وقالت:

– "أتدرينَ لِمَ أُحبُّكِ كُلَّ هذا الحُبِّ يا هياسنث بريدجيرتون؟"

انحنتْ هياسنث نَحوَها وقالت:

– "كُلِّي آذانٌ صَاغية."

ارتسمتْ على وجهِ الليدي ابتسامةٌ غَضَّنَتْ جِلدَها وقالت:

– "لأنكِ يا عزيزتي، نُسخةٌ طِبقُ الأصلِ مني."

فردتْ هياسنث:

– "أتدرينَ يا ليدي دانبري، لو قلتِ هذا الكلامَ لِأيةِ فتاةٍ أخرى، لَعَدَّتْهُ إهانةً نَكراء."

ارتجفَ جَسدُ الليدي النحيلُ من الضحكِ وقالت:

– "ولكنكِ لا تَرينَهُ كذلك؟"

هزتْ هياسنث رأسَها:

– "كلا، ليس أنا."

قالتِ الليدي بابتسامةٍ حانيةٍ نادرة:

– "حَسناً." ثم نَظرتْ إلى الساعةِ المستقرةِ فوقَ الموقدِ وأردفتْ: "أحسبُ أنَّ لدينا وقتاً لِقراءةِ فصلٍ آخَر."

قالتْ هياسنث مَكايدةً لَها:

– "لقد اتفقنا على فصلٍ واحدٍ كُلَّ يومِ ثُلاثاء."

امتقعَ وجهُ الليدي وقالت وهي تَنظرُ إليها بمكر:

– "حَسناً إذن، سنتحدثُ في شأنٍ آخَر."

يا لَلهول!

انحنتِ الليدي دانبري نَحوَها وقالت:

– "أخبريني يا هياسنث، كيفَ هي آفاقُ خُطَّابِكِ في هذه الأيام؟"

فردتْ هياسنث بعذوبة:

– "إنَّ حديثَكِ هذا يُشبهُ حديثَ أُمي تَماماً."

فردتِ الليدي:

– "إنَّ هذا لَمديحٌ رفيعُ القدر؛ فأنا أُحبُّ أُمَّكِ، وأنا لا أكادُ أُحبُّ أحداً من البَشر."

– "سأحرصُ على إيصالِ هذا الخبرِ إليها."

– "هراء! هي تَعلمُ ذلك يقيناً، وأنتِ تتهربينَ من الإجابة."

قالتْ هياسنث:

– "إنَّ آفاقي – كما تَفضلتِ بوصفِها بدبلوماسيةٍ – لم تَتغيرْ عما كانت عليه."

– "وهنا تكمنُ العِلَّة؛ فأنتِ يا عزيزتي في حَاجةٍ ماسةٍ إلى زَوْج."

– "أأنتِ واثقةٌ من أنَّ أُمي لا تختبئُ خَلفَ الستائرِ وتُلقنكِ هذا الكلام؟"

ابتسمتِ الليدي وقالت:

– "أرأيتِ؟ لقد قلتُ لَكِ إنني سأكونُ بارعةً في التمثيل."

بحملقتْ فيها هياسنث وقالت:

– "لقد فَقَدتِ صَوابَكِ تَماماً، أتعلمينَ ذلك؟"

– "بلى! إنني بَلغتُ من العُمرِ مبلغهُ الذي يَسمحُ لي بقولِ ما يجيشُ في صَدري. وسوف تَستمتعينَ بهذا الأمرِ حين تبلغينَ سِني، أَعِدُكِ بذلك."

قالتْ هياسنث:

– "أنا أستمتعُ بهِ الآن."

وافقتْها الليدي وقالت:

– "هذا حَق، ولعلَّ هذا هو السَّببُ في بَقائِكِ دونَ زواج."

تنهدتْ هياسنث تنهيدةً مُثقلةً وقالت:

– "لو وُجدَ رَجُلٌ ذكيٌّ وأعزبُ في لندن، لَأكدتُّ لَكِ أنني سأنصبُ فِخاخي لَهُ." ثم أمالتْ رأسَها بسخريةٍ وأردفتْ: "لا أحسبُكِ تَرْضَيْنَ لي الزواجَ من أحمق."

– "بكلِّ تأكيدٍ لا، ولكن –"

– "وكُفِّي عن ذِكرِ حَفيدكِ كأنني لا أملكُ من الذكاءِ ما يَكفي لِفهمِ مَراميكِ."

شهقتِ الليدي مُتظاهرةً بالاستنكار:

– "أنا لم أنطقْ بكلمةٍ واحدة!"

– "بل كُنتِ على وَشكِ ذلك."

تَمتمتِ الليدي دانبري دونَ أن تَنكرَ:

– "حَسناً، إنهُ رَجُلٌ رائعٌ حقاً، ووسيمٌ فوقَ ما يُتخيل."

عضتْ هياسنث على شَفَتِها السُّفلى، تُحاولُ مَنعَ نَفسِها من تذكُّرِ ذلك الشعورِ الغريبِ الذي داهمَها في حفلِ آل سميث–سميث حين كان السيد سانت كلير بجوارِها. تلك هي المشكلةُ مَعَهُ؛ فهي لا تَشعرُ بأنها على طَبيعتِها حين يَقتربُ منها، وهو أمرٌ يُربكُ حِسَّها تَماماً.

قالتِ الليدي:

– "أرى أنكِ لا تُعارضينَ قولي."

فردتْ هياسنث؛ إذ لا جدوى من الجِدالِ في مَسألةٍ جَليَّة:

– "بشأنِ وسامةِ وجهِ حَفيدكِ؟ بكلِّ تأكيدٍ لا؛ فثَمَّةَ أُناسٌ تُعدُّ وسامتُهم حقيقةً ثابتةً لا مَجالَ فيها للرأي."

تابعتِ الليدي دانبري بزهو:

– "ويُسعدُني أن أقولَ إنهُ ورثَ رجاحةَ عقلِهِ من جَانبي أنا، وهو أمرٌ – لِلأسفِ – لم يَحظَ بهِ جَميعُ أبنائي."

نظرتْ هياسنث إلى السَّقفِ تتهربُ من التعليقِ؛ فلقد طارتْ شُهرةُ ابنِ الليدي الأكبرِ حين حُشرَ رأسُهُ بَينَ قُضبانِ البوابةِ الأماميةِ لِقصرِ "وندسور".

تذمرتِ الليدي:

– "أوه، قُوليها ولا تترددي؛ فَاثنانِ من أبنائي على الأقلِّ لا يملكانِ نِصفَ عَقلٍ، واللهُ أعلمُ بحالِ أبنائِهما. إنني أَفرُّ في الاتجاهِ المعاكسِ حين يَحلُّون بالمدينة."

– "لم أكن لِأقولَ –"

– "بل كنتِ تُفكرينَ في ذلك، وهو حَقُّكِ. هذا جَزائي لِأنني تزوَّجتُ اللورد دانبري وأنا أَعلمُ أنهُ لا يملكُ فكرتينِ يَضربُ إحداهما بالأخرى في رأسِهِ. ولكن غاريث جَوْهرةٌ ثمينة، وأنتِ حَمقاءُ إن لم –"

قاطعتْها هياسنث:

– "حَفيدُكِ ليس مُهتماً بي قيدَ أُنملة، ولا بأيةِ فتاةٍ قابلةٍ للزواجِ، على أيةِ حال."

وافقتْها الليدي دانبري قائلة:

– "هذه مُشكلةٌ حقاً، ولَعَمْرُ الحقِّ لا أدري لِمَ يَزهدُ الفتى في مِثيلاتِكِ."

رددتْ هياسنث:

– "مِثيلاتي؟"

– "شابةٌ، ومن جِنسِ النساءِ، ومن اللواتي سَيُضطرُّ لِلزواجِ منهنَّ حتماً لو عَاشرَهُنَّ."

شعرتْ هياسنث باحتراقِ وجنَتَيها. في العادةِ، كانت تَعشقُ مِثلَ تِلك الأحاديثِ الخارجةِ عن حدودِ الوقارِ – فليس ثَمَّةَ أمتعُ من كَسرِ القواعدِ في حُدودِ المَعقولِ – ولكن في هذه المرةِ، لم تَجد مَحيصاً من القول:

– "لا أحسبُ أنَّ مِثلَ تِلك الأُمورِ يَنبغي أن تُناقَشَ مَعي."

لَوحتِ الليدي بيدِها في استخفافٍ وقالت:

– "هراء! مُنذُ متى وأنتِ تَتصنعينَ رِقةَ العذارى؟"

فتحتْ هياسنث فمَها، ولكنَّ الليدي دانبري لم تكن تَنظرُ جَواباً، فاستطردتْ:

– "إنهُ رَجُلٌ عابثٌ، هذا صَحيح، ولكن ليس ثَمَّةَ شيءٌ لا تستطيعينَ التغلبَ عليهِ لو شَحذتِ هِمَّتَكِ."

– "أنا لن أفعلَ –"

قاطعتْها الليدي دانبري وهي تُلوّحُ بيدِها أمامَ وجهِها في نَفادِ صَبر:

– "فقط اخفضي صَدرَ فُستانِكِ قليلاً حين تَرينَهُ في المرةِ القادمة؛ فالرجالُ يَفقدونَ صَوابَهم أمامَ مَنظرِ الصَّدرِ العامرِ بالصحة. وسوف تَملكينَ لُبَّهُ –"

– "ليدي دانبري!"

شَبكتْ هياسنث ذِراعيها؛ فلَها كبرياؤُها، ولن تَسعى خلفَ رَجُلٍ عابثٍ لا يَرغبُ في الزواج. إنَّ مِثلَ هذا الهوانِ الاجتماعيِّ هي في غِنىً عنهُ. وفضلاً عن ذلك، فإنَّ وصفَ صَدْرِها بـ "العامرِ بالصحة" يحتاجُ إلى خيالٍ جَامح؛ فهي تَعلمُ أنها ليستْ مَبنيةً كالأولادِ – والحمدُ للهِ – ولكنها لا تملكُ مَفاتنَ تَجعلُ الرجالَ يُطيلونَ النظرَ في تِلك المنطقةِ.

قالتِ الليدي دانبري بنبرةٍ تَنضحُ بالحَنق:

– "حَسناً، حَسناً؛ لن أنطقَ بكلمةٍ أخرى."

سألتْها هياسنث:

– "أبداً؟"

فردتِ الليدي بحزم:

– "إلى أن يَحينَ الوقت."

سألتْها هياسنث بريبة:

– "وأيُّ وقتٍ هذا؟"

فأجابتِ الليدي باللغةِ ذاتِها:

– "لا أدري."

وهو أمرٌ شَعرتْ هياسنث أنهُ يَعني بَعدَ خَمسِ دقائقَ من الآن.

صَمَتتِ الكونتيسةُ بُرهةً، بيد أنَّ شفَتَيْها كانتَا مَزمومتَيْنِ، مِمَّا يَعني أنَّ عَقلَها يَدبرُ أمراً قد بَلغَ الغايةَ في الدهاءِ. وسألتْ:

– "أتدرينَ فيما أُفكرُ الآن؟"

فردتْ هياسنث:

– "أدري غالباً."

تَجهمتِ الليدي وقالت:

– "إنَّ لِسانَكِ لَطويلٌ جِدّاً."

ابتسمتْ هياسنث واكتفتْ بتناوُلِ قِطعةِ بَسكويتٍ أخرى.

قالتِ الليدي دانبري بَعدَ أن سكنتْ ثَوْرتُها:

– "أظنُّ أنهُ يَنبغي لَنا أن نَصنعَ كِتاباً."

لم تَغصَّ هياسنث بطعامِها، وهذا يُحسبُ لَها، وقالت:

– "عفواً، مَاذا قلتِ؟"

فردتِ الليدي:

– "أنا في حَاجةٍ إلى تَحدٍّ جديدٍ لِيَبقى عَقلي وقاداً. ولا ريبَ أننا نَستطيعُ صُنعَ قصةٍ أفضلَ من قصةِ الآنسة باتروورث والبارون المتمتم."

قالتْ هياسنث تِلقائياً:

– "البارون المَجنون."

– "بالضبط! رُبما استطعنا صُنعَ ما هو أفضل."

– "أنا واثقةٌ من ذلك، ولكنَّ السؤالَ الذي يَطرحُ نَفسَهُ: لِمَ قد نَرغبُ في ذلك أصلاً؟"

– "لأننا نَستطيع."

تأملتْ هياسنث فِكرةَ التعاونِ الإبداعيِّ مع الليدي دانبري، وقضاءِ ساعاتٍ طِوالٍ مَعها... وقالت بحزم:

– "كلا، لا نَستطيع."

ضربتِ الليدي مِحجنَها بالأرضِ لِلمرةِ الثانيةِ في هذا اللقاءِ – وهذا رَقمٌ قياسيٌّ في ضَبطِ النَّفسِ – وقالت:

– "بلى نَستطيع! أنا سأضعُ الأفكارَ، وأنتِ عليكِ صِياغتُها بالكلمات."

قالتْ هياسنث:

– "لا يَبدو هذا تَقسيماً عادلاً لِلعمل."

– "ولِمَ يَنبغي لَهُ أن يكونَ عادلاً؟"

فتحتْ هياسنث فَمَها لِتُجيبَ، ثم رأتْ أنهُ لا جَدوى من ذلك.

تَجهمتِ الليدي دانبري بُرهةً، ثم أضافتْ:

– "حَسناً، فكّري في عَرضي؛ فسنكونُ فَريقاً رائعاً."

جاءَ صَوتٌ عَميقٌ من عِندِ البابِ يقولُ:

– "إنني لَأرتعدُ فَرَقاً حين أُفكرُ فيما تحاولينَ إرغامَ الآنسة بريدجيرتون المِسكينةِ عليهِ الآن."

هتفتِ الليدي دانبري بابتهاجٍ واضح:

– "غاريث! يا لَلُطفِكَ إذ تَفكرتَ في زِيارتي أخيراً."

التفتتْ هياسنث، فإذا بـ غاريث سانت كلير يخطو داخلَ الغرفةِ، ويَبدو وَسيماً بصورةٍ مُقلقةٍ في ثِيابِ الظهيرةِ الأنيقةِ. كانت حُزمةٌ من أشعةِ الشمسِ تَتسللُ عَبْرَ النافذةِ، لِتَستقرَّ على شَعرِهِ كأنها التبرُ المَصفى.

كان حُضورُهُ مَفاجأةً كُبرى؛ فـ هياسنث تَزورُ الجَدَّةَ كُلَّ ثُلاثاءٍ مُنذُ عامٍ مَضى، ولم تَلتقِ بِهِ إلا مَرةً واحدةً فقط. بدأتْ تَظنُّ أنهُ يَتعمَّدُ تَلافي لِقائِها.

وهنا يُطرحُ السؤالُ: لِمَ أتى الآن؟ إنَّ حَوارَهما في حفلِ آل سميث–سميث كان الأولَ من نَوعِهِ الذي يَتجاوزُ حدودَ التحايا العابرةِ، وفجأةً ها هو يَمثلُ في غُرفةِ استقبالِ جَدَّتِهِ في قَلبِ زِيارتِها الأسبوعية.

رَدَّ السيد سانت كلير بمرح:

- "أخيراً؟ لا أحسبُكِ نَسيتِ زِيارتي يومَ الجمعةِ الماضي." ثم التفتَ نَحوَ هياسنث ورسمَ على وجهِهِ تَعبيراً مُقنعاً من القلقِ وأردفَ: "ألا تَرينَ يا آنسة بريدجيرتون أنها بَدأتْ تَفقدُ ذاكرتَها؟ لقد بَلغتْ من العُمرِ، مَاذا عساها أن تكونَ الآن، تِسعينَ -"

نزلتْ عصا الليدي دانبري بدقةٍ مُتناهيةٍ فوقَ أصابعِ قَدَمِهِ، وصَرختْ:

- "لستُ قريبةً من ذلك الرقمِ بَعدُ يا بَنِيَّ، وإن كنتَ تَعتزُّ بأطرافِ جَسدِكَ، فلا تَتجاسرْ على التفوُّه بمثلِ هذا الهراءِ ثانيةً."

هَمستْ هياسنث:

- "هذا هو الإنجيلُ حَسْبَ رِوايةِ أجاثا دانبري."

افترَّ ثغرُ السيد سانت كلير عن ابتسامةٍ عَريضةٍ نَحوَها، وهو أمرٌ أدهشَها؛ أولاً لِأنها لم تظنَّ أنهُ سَيَسمعُ هَمسَها، وثانياً لِأنَّ الابتسامةَ جَعلتْهُ يَبدو كصبيٍّ بريءٍ، وهي تَعلمُ يقيناً أنهُ ليس كذلك.

ورَغمَ كُلِّ شيءٍ...

حاولتْ هياسنث كبحَ رغبتِها في هزِّ رأسِها. ثَمَّةَ دائمًا "رَغمَ كُلِّ شيء". فبَعيداً عن كَلماتِ الليدي دانبري العاتبةِ، كان غاريث سانت كلير زَائراً مُعتاداً لِـ "دانبري هاوس". وهذا جَعلَ هياسنث تتساءلُ عما إذا كان حقاً ذلك الرَّجُلَ العابثَ الذي تَتحدثُ عنهُ المجالسُ؛ فليس ثَمَّةَ شيطانٌ حقيقيٌّ يَبذلُ كُلَّ هذا الوفاءِ لِجَدَّتِهِ. لقد قالتْ لَهُ ذلك في حفلِ الموسيقى، بيد أنهُ راغَ من الإجابةِ ببراعة.

إنهُ لُغزٌ مُحيِّر، وهياسنث تَمقتُ الألغاز... لا بَل هي تَعشقُها حقاً، شريطةَ أن تَهتديَ إلى حَلٍّ لَها.

خَطا "اللُّغزُ" المذكورُ عَبْرَ الغرفةِ، وانحنى لِيَطبعَ قُبلةً على وجنةِ جَدَّتِهِ. وجدتْ هياسنث نَفسَها تُحدقُ في قَفاهُ، وفي خُصلاتِ شَعرِهِ المُرتبةِ التي تُلامسُ حَافةَ مِعطفِهِ الأخضرِ الزجاجيِّ الأنيق. كانت تَعلمُ أنهُ لا يَملكُ الكَثيرَ

من المالِ لِيُنفقهُ على الهندامِ، وتَعلمُ أنهُ لم يَسألْ جَدَّتَهُ شَيَئاً قَط، ولكن يا لَلعجب! ذلك المِعطفُ كان مَصنوعاً لَهُ بدقةٍ مُتناهية.

قال وهو يَستقرُّ فوقَ الأريكةِ ويضعُ كاحِلهُ فوقَ رُكبتِهِ بكسل:

– "آنسة بريدجيرتون، لا بدَّ أننا ــ في يومِ الثُّلاثاء."

وافقتْهُ هياسنث:

– "بكلِّ تأكيد."

– "وكيفَ حالُ بريسيلا باتروورث؟"

رفعتْ هياسنث حاجبيها، مُندهشةً من مَعرفتِهِ بالكتابِ الذي تَقْرؤه، وقالت:

– "إنها تَعْدُو نَحوَ المُنحدرات. وإنني لَأخشى على سَلامتِها، لو أردتَ الحق. أو بعبارةٍ أصح، كنتُ سأخشى لولا مَعرفتي بأنَّ ثَمَّةَ أحَدَ عشرَ فصلاً لم نَقرأها بَعد."

علَّقَ قائلاً:

– "يا لَلأسف! لكانَ الكتابُ أكثرَ إثارةً لو قُتلتِ البطلةُ الآن."

سألتْهُ هياسنث بأدب:

– "أقرأتَهُ إذن؟"

بَدا لِلحظةٍ أنهُ سيكتفي بنظرةٍ تَقُولُ "أتمزحينَ معي؟"، ولكنهُ أردفَ قوله:

– "جَدَّتي تَعشقُ سَرْدَ تِلك الحكايةِ عليَّ كُلَّ يومِ أربعاءٍ حين أزورُها. وأنا أزورُها دائمًا." وأرسلَ نظرةً ذاتَ جُفونٍ ثقيلةٍ نَحوَ الليدي دانبري وأكملَ: "وكذلك ــ في أغلبِ أيامِ الجُمعةِ والأحد."

قالتِ الليدي:

– "ليس الأحدَ الماضي."

فردَّ بوجهٍ جامد:

– "لقد ذَهبتُ إلى الكنيسة."

غَصَّتْ هياسنث بقطعةِ البسكويت.

التفتَ إليها وقال:

– "ألم تَرَيْ الصاعقةَ وهي تَضربُ المِئذنة؟"

استعادتْ هُدوءَها بَرشفةِ شايٍ، ثم ابتسمتْ بعذوبة وقالت:

– "لقد كُنتُ أستمعُ إلى الموعظةِ بكلِّ جَوارحي."

أعلنتِ الليدي دانبري:

– "كانت مَوعظةً خاويةً في الأسبوعِ الماضي؛ أحسبُ أنَّ القسَّ قد بَدأ يَهرم."

فتحَ غاريث فَمَهُ لِيَنطقَ، ولكن قَبلَ أن يَنبسَ بكلمةٍ، ارتفعَ مِحجنُ جَدَّتِهِ في الهواءِ رَاسِماً قَوْساً أُفقياً وقالتْ مُحذرة:

– "إياكَ أن تَنطقَ بكلمةٍ تَبُدأ بـ: هَذا قَوْلُ مَن..."

تراجعَ غاريث بتصنُّعِ التواضعِ وقال:

– "لم أكن لِأحلمَ بذلك."

فردتْ عليه:

– "بل كُنتَ ستحلم؛ فلَن تكونَ حَفيدي حقاً إن لم تَفعل." ثم التفتتْ نَحوَ هياسنث وسألتْ: "ألا تُوافقينني الرأي؟"

ضَمَّتْ هياسنث يدَيها في حِجرِها وقالت رَزَانةً:

– "لا أحسبُ أنَّ ثَمَّةَ إجابةً صَحيحةً لِهذا السؤال."

قالتِ الليدي دانبري بإعجاب:

– "يا لَكِ من فتاةٍ ذكية!"

– "أنا أتعلمُ من أستاذةِ الفَن."

تَهَلَّلَ وجهُ الليدي دانبري وقالت مُشيرةً نَحوَ غاريث كأنهُ كائنٌ غريبٌ في حديقةِ حيوان:

– "بَعيداً عن صَلافتِهِ، إنهُ حَفيدٌ استثنائيٌّ حقاً. لم أكن لِأطلبَ أكثرَ من ذلك."

راقبَ غاريث بتمتُّعٍ هياسنث وهي تُتمتمُ بكلماتٍ تُوحي بالموافقةِ دونَ أن تَنطقَ بها حقاً.

أضافتِ الجَدَّةُ وهي تُلَوِّحُ بيدِها:

– "وبالطبعِ، فليس لديهِ مُنافسٌ يُذكر؛ فَبقيةُ أحفادي لا يَملكونَ إلا ثلاثةَ عُقولٍ يتقاسمونَها فيما بينهم."

لم يكن هذا المديحُ هو الأفضل، خُصوصاً وأنَّ لَدَيها اثنا عشرَ حَفيداً على قَيدِ الحياة.

هَمَسَ غاريث لِنفسِهِ:

– "لقد سَمِعتُ أنَّ بَعضَ الحيواناتِ تأكلُ صِغارَها."

تجاهلتِ الجدةُ تَعليقهُ تَماماً وقالت:

– "بما أننا في يومِ الثُّلاثاء، مَا الذي جاءَ بكَ؟"

أحاطتْ أصابعُ غاريث بالكتابِ في جَيبِهِ. لقد كان مَأخوذاً بوجودِ هذا الكُتَيّبِ مُنذُ أن سَلَّمَتْهُ إياهُ كارولين، لدرجةِ أنهُ نَسِيَ تَماماً مَوعدَ زِيارةِ هياسنث بريدجيرتون الأسبوعية. ولو كان يُفكرُ برويّةٍ، لَانتظرَ حتى يَنقضيَ وقتُ الظهيرةِ وتغادرَ الفتاة.

ولكنهُ الآنَ هنا، ولا بدَّ لَهُ من عُذرٍ يُبررُ حُضورَهُ؛ وإلا – وا أسفاه – سَتظنُّ جَدَّتُهُ أنهُ أتى من أجلِ الآنسة بريدجيرتون، وسَيستغرقُ الأمرُ شُهوراً لِيُقنعَها بعكسِ ذلك.

سألتْهُ الجدةُ بطريقتِها الفريدة:

– "مَا الخَبرُ يا فتى؟ تكلَّم."

التفتَ غاريث نَحوَ هياسنث، وشَعَرَ بشيءٍ من الرضا حين رآها تضطربُ قليلاً تَحتَ وطأةِ نَظراتِهِ المُركَّزةِ، وسألَ:

– "لِمَ تزورينَ جَدَّتي؟"

هزتْ كَتفيها وقالت:

– "لأنني أُحبُّها."

ثم انحنتْ نَحوَهُ وسألتْهُ باللغةِ ذاتِها:

– "وأنتَ، لِمَ تزوُرها؟"

فردَّ مُسرعاً:

– "لأنها جَدَّتـ..." ثم صَمَتَ مُستدركاً. لم تكن زِيارتُهُ لَها لِمجردِ القَرابةِ؛ فَالليدي دانبري كانت تُمثلُ لَهُ أُموراً شتَّى، فهي الحنونة، وهي الذئبة، وهي البلاءُ الجميلُ في حَياتِهِ، ولكنها لم تكن قَطُّ "واجباً" ثقيلاً. وقال ببطءٍ وعيناهُ لا تُفارقانِ عَيْنَيْ هياسنث:

– "أنا أُحبُّها أيضاً."

لم تَرِفَّ لَها جَفنٌ وقالت:

– "حَسناً."

ثم راحا يتبادلانِ النظراتِ كأنهما حُبسا في صِراعٍ غريبٍ من نَوْعِهِ.

صَرختِ الليدي دانبري:

– "لستُ أعتذرُ عن هذا المَسارِ من الحديثِ، ولكن مَا الذي تَهذيانِ بهِ أنتما الاثنان؟"

عادتْ هياسنث لِتَستندَ إلى مَقعدِها ونظرتْ إلى الليدي كأنَّ شيئاً لم يَكن، وقالت بعذوبة:

– "لا أدري حقاً." ثم رَشفتْ رَشفةً من شايِها، وتابعتْ وهي تَضعُ الكأسَ فوقَ الصحنِ: "لقد طَرحَ عليَّ سؤالاً."

راقبَها غاريث بفضول. لم تكن جَدَّتُهُ من الأشخاصِ الذين يسهلُ كَسْبُ مودَّتِهم، وإذا كانت هياسنث بريدجيرتون تُضحي بظهيرةِ الثُّلاثاء لِتَكونَ مَعها، فذلك رصيدٌ يُضافُ لَها. ناهيكَ عن أنَّ الليدي دانبري لا تكادُ تُحبُّ أحداً، ومع ذلك تَهيمُ وُجداً بالآنسة بريدجيرتون في كُلِّ مَحفل. وبالطبعِ، كان جُزءٌ من ذلك لِأنها تُحاولُ التوفيقَ بينهما، فَالجدةُ لم تُعرفْ يوماً بالرقةِ أو التلميح.

ولكن، رَغمَ كُلِّ شيء، لو تَعلمَ غاريث شيئاً طوالَ سِني حَياتِهِ، فهو أنَّ جَدَّتَهُ بَصيرةٌ بمَعادنِ الناسِ. وفضلاً عن ذلك، فإنَّ المُذكراتِ كُتبتْ بالإيطاليةِ، وحتى لو كانت تَحوي سِرّاً خَطيراً، فإنَّ الآنسة بريدجيرتون لن تَفقهَ منهُ شيئاً.

حَسمَ أمرَهُ، وأدخلَ يدَهُ في جَيبِهِ وأخرجَ الكُتَيِّب.

الفصل الرابع

وهنا تغدو حياة هياسنث أخيرًا مفعمة بالإثارة، تكاد تضاهي حياة بريسيلا باتروورث.

دون المنحدرات بالطبع...

راقبت هياسنث باهتمام بينما بدا السيد سانت كلير مترددًا. رمقها بنظرة خاطفة، وعيناه الزرقاوان الصافيتان تضيقان بشكل غير ملحوظ تقريبًا قبل أن يلتفت عائدًا إلى جدته. حاولت هياسنث ألا تبدو مهتمة أكثر مما ينبغي؛ كان من الجلي أنه يحاول أن يقرر ما إذا كان ينبغي له ذكر شأنه في وجودها، وشكت في أن أي تدخل من جانبها سيدفعه للكتمان.

ولكن يبدو أنها اجتازت الاختبار؛ إذ بعد لحظة وجيزة من الصمت، مد يده إلى جيبه وأخرج ما بدا أنه كتاب صغير مجلد بالجلد.

سألت السيدة دانبري وهي تتناوله بين يديها:

– "ما هذا؟"

أجاب:

– "مذكرات الجدة سانت كلير. أحضرتها كارولين بعد ظهيرة هذا اليوم. وجدتها بين مقتنيات جورج".

قالت السيدة دانبري:

– "إنها بالإيطالية".

– "نعم، كنتُ على علم بذلك".

سألت بنفاد صبر:

– "عنيتُ، لِمَ أحضرتها إليّ؟"

منحها السيد سانت كلير نصف ابتسامة كسولة:

– "دائمًا ما تخبرينني أنكِ تعلمين كل شيء، أو إن لم يكن كل شيء، فكل شخص".

تداخلت هياسنث لتقديم العون:

– "لقد قلتَ لي ذلك في وقت سابق من هذا اليوم".

التفت إليها السيد سانت كلير بعبارة "شكرًا لك" مشوبة بتعالي مبهم، وصلت في اللحظة ذاتها التي وصلت فيها نظرة السيدة دانبري الحادة.

تململت هياسنث. ليس بسبب نظرة السيدة دانبري — فقد كانت محصنة تمامًا ضدها — ولكنها كرهت هذا الشعور بأن السيد سانت كلير يظنها تستحق التنازل في الحديث.

قال لجدته:

– "كنتُ آمل أنكِ قد تعرفين مترجمًا ذا سمعة طيبة".

– "للإيطالية؟"

– "يبدو أنها اللغة المطلوبة".

– "همممف".

نقرت السيدة دانبري بعصاها نقرًا متتابعًا على السجاد، تمامًا كما ينقر الشخص الطبيعي بأصابعه على الطاولة. وقالت:

– "الإيطالية؟ ليست منتشرة كالفرنسية، التي بالطبع أي شخص محترم سيـ..."

قاطعتها هياسنث:

– "أستطيع قراءة الإيطالية".

تحول زوجان متماثلان من العيون الزرقاء صوبها.

قال السيد سانت كلير:

– "أنتِ تمزحين".

جاء قوله قبل نصف ثانية فقط من نباح جدته:

– "تستطيعين؟"

قالت هياسنث بمكر:

– "أنتِ لا تعلمين كل شيء عني".

كان حديثها موجهًا لـ السيدة دانبري بالطبع، إذ لم يكن لـ السيد سانت كلير أن يدعي ذلك.

تلعثمت السيدة دانبري:

– "حسنًا، نعم، بالطبع، ولكن الإيطالية؟"

هزت هياسنث كتفيها وقالت:

– "كانت لدي مربية إيطالية حين كنت صغيرة. كان يروق لها تعليمي. لستُ طليقة اللسان فيها، ولكن إذا أُعطيتُ صفحة أو صفحتين، يمكنني استخلاص المعنى العام".

قال السيد سانت كلير وهو يميل برأسه نحو المذكرات التي لا تزال تستقر بين يدي جدته:

– "هذا أكثر بكثير من صفحة أو صفحتين".

ردت هياسنث بحدة:

– "بوضوح. لكنني لستُ بصدد قراءة أكثر من صفحة أو صفحتين في المرة الواحدة. وهي لم تكتبها بأسلوب الرومان القدماء، أليس كذلك؟"

مط السيد سانت كلير كلماته:

– "تلك ستكون اللاتينية".

أطبقت هياسنث أسنانها وصرت:

– "بصرف النظر".

قاطعت السيدة دانبري:

– "حبًا في الله يا فتى، أعطها الكتاب".

أحجم السيد سانت كلير عن الإشارة إلى أنها هي التي لا تزال تمسكه، وهو ما عدّته هياسنث ضبطًا مذهلاً للنفس من جانبه. بدلاً من ذلك، نهض

واقفًا، وانتزع المجلد النحيل من يدي جدته، والتفت نحو هياسنث. تردد حينها – للحظة فقط، وكانت هياسنث لتفوتها لو كانت تنظر إلى أي مكان آخر غير وجهه مباشرة.

ثم قدم الكتاب إليها، ممدًا يده به وهو يهمس بنعومة:

– "آنسة بريدجرتون".

أخذته هياسنث، وهي ترتعد من شعور غريب بأنها فعلت للتو شيئًا أقوى بكثير من مجرد أخذ كتاب بين يديها.

همس السيد سانت كلير:

– "هل تشعرين بالبرد يا آنسة بريدجرتون؟"

هزت رأسها، مستخدمة الكتاب وسيلة لتجنب النظر إليه. وقالت وهي تقلب إحدى الصفحات بحذر:

– "الصفحات هشة قليلاً".

سأل السيد سانت كلير:

– "ماذا تقولين؟"

صرت هياسنث على أسنانها. لم يكن من الممتع أبدًا أن تُجبر على الأداء تحت الضغط، وكان الأمر شبه مستحيل مع وجود غاريث سانت كلير يتنفس فوق عنقها.

نبحت السيدة دانبري:

– "أفسح لها بعض المجال!"

تحرك، ولكن ليس بالقدر الذي يجعل هياسنث تشعر بأي قدر من الراحة.

طالبها:

– "حسنًا؟"

تحرك رأس هياسنث قليلاً جيئة وذهابًا وهي تحاول فك طلاسم المعنى. قالت:

– "إنها تكتب عن زفافها المرتقب. أظن أنه من المقرر أن تتزوج جدك في..."

عضت شفتها وهي تمسح الصفحة بحثًا عن الكلمات المناسبة، وتابعت:

– "... ثلاثة أسابيع. أستشف أن المراسم كانت في إيطاليا".

أومأ السيد سانت كلير مرة واحدة قبل أن يحثها بقوله:

– "و؟"

– "و..."

جعدت هياسنث أنفها، كما كانت تفعل دائمًا حين تغرق في التفكير. لم يكن تعبيرًا جذابًا للغاية، لكن البديل كان ألا تفكر ببساطة، وهو ما لم تجده مغريًا.

حثتها السيدة دانبري:

– "ماذا قالت؟"

تمتمت هياسنث:

Orrendo orrendo..." –آه، صحيح."

نظرت لأعلى وقالت:

– "إنها ليست سعيدة جدًا بالأمر".

علقت السيدة دانبري:

– "ومن تكون كذلك؟ الرجل كان دبًا، مع الاعتذار لمن في الغرفة ممن يشاركونه دمه".

تجاهلها السيد سانت كلير وسأل:

– "ماذا أيضًا؟"

انفجرت هياسنث أخيرًا:

– "أخبرتك أنني لست طليقة اللسان. أحتاج وقتًا لاستيعاب الأمر".

قالت السيدة دانبري:

– "خذيه معكِ إلى المنزل. سترَيْنه غدًا ليلاً على أية حال".

تساءلت هياسنث:

– "سأفعل؟"

في اللحظة ذاتها التي قال فيها السيد سانت كلير:

– "ستفعل؟"

أخبرت السيدة دانبري حفيدها:

– "أنت سترافقني إلى أمسية بلينسوورث الشعرية. أم أنك نسيت؟"

رجعت هياسنث بظهرها، مستمتعة بمنظر فم غاريث سانت كلير وهو ينفتح وينغلق في ضيق واضح. قررت أنه يشبه السمكة قليلاً. سمكة بملامح إله إغريقي، لكنها تظل سمكة.

قال:

– "أنا حقًا... أعني القول، لا أستطيع..."

قالت السيدة دانبري:

– "تستطيع، وستكون هناك. لقد وعدت".

رمقها بتعبير صارم:

– "لا أستطيع أن أتخيل..."

– "حسنًا، إن لم تكن قد وعدت، كان ينبغي عليك ذلك، وإن كنت تحبني..."

سعلت هياسنث لتخفي ضحكتها، ثم حاولت ألا تبتسم بمكر حين رمقها السيد سانت كلير بنظرة ساخطة.

قال:

– "حين أموت، بالتأكيد سيُكتب على قبري: أحب جدته حين انفض عنها العالمين".

سألت السيدة دانبري:

– "وما العيب في ذلك؟"

تنهد:

– "سأكون هناك".

نصحته هياسنث:

– "أحضر صوفًا لأذنيك".

بدا عليه الذعر:

- "لا يمكن أن يكون الأمر أسوأ من الحفل الموسيقي الليلة الماضية".

لم تستطع هياسنث منع زاوية فمها من الارتفاع قليلاً:

- "الليدي بلينسوورث كانت في السابق من عائلة سميث-سميث".

على الجانب الآخر من الغرفة، قهقهت السيدة دانبري بابتهاج.

نهضت هياسنث وقالت:

- "من الأفضل أن أعود للمنزل. سأحاول ترجمة المدخل الأول قبل أن أراك مساء الغد يا سيد سانت كلير".

- "لكِ مني جزيل الامتنان يا آنسة بريدجرتون".

أومأت هياسنث وعبرت الغرفة، محاولة تجاهل ذلك الشعور الغريب بالدوخة الذي ينمو في صدرها. إنه مجرد كتاب، بحق السماء.

وهو مجرد رجل.

كان الأمر مزعجًا، هذا الدافع الغريب الذي شعرت به لإثارة إعجابه. أرادت أن تفعل شيئًا يثبت ذكاءها وفطنتها، شيئًا يجعله ينظر إليها بتعبير آخر غير الاستمتاع المبهم.

قال السيد سانت كلير وهو يواكب خطواتها:

- "اسمحِي لي بمرافقتكِ إلى الباب".

التفتت هياسنث، ثم شعرت بأنفاسها تحتبس من المفاجأة. لم تكن تدرك أنه يقف قريبًا جدًا.

- "أنا... آه..."

أدركت أنها عيناه. زرقاوان وصافيتان لدرجة أنها كان ينبغي أن تشعر بأنها تستطيع قراءة أفكاره، لكن بدلاً من ذلك، ظنت أنه هو من يستطيع قراءة أفكارها.

همس وهو يضع يدها على ذراعه:

- "نعم؟"

هزت رأسها:

- "لا شيء".

قال وهو يرشدها إلى الردهة:

– "يا للعجب يا آنسة بريدجرتون. لا أظن أنني رأيتكِ يومًا عاجزة عن الكلام. باستثناء الليلة الماضية".

وأضاف وهو يميل رأسه قليلاً جدًا إلى الجانب:

– "في الحفل الموسيقي. كان بديعًا".

ابتسم، بطريقة مثيرة للغيظ للغاية.

– "ألم يكن بديعًا؟"

أطبقت هياسنث شفتيها وقالت:

– "أنت بالكاد تعرفني يا سيد سانت كلير. سمعتك تسبقك".

– "وكذلك سمعتكِ".

– "أصبتِ القول، يا آنسة بريدجرتون".

لم تشعر بصفة خاصة أنها كسبت الحديث لصالحها. رأت هياسنث خادمتها تنتظر عند الباب، فخلصت يدها من ذراع السيد سانت كلير وعبرت البهو. وقالت:

– "حتى الغد، يا سيد سانت كلير".

وبينما كان الباب يُغلق خلفها، كادت تقسم أنها سمعته يرد:

– "أريفيديرتشي".

هياسنث تصل إلى المنزل.

أمها كانت في انتظارها.

هذا ليس جيدًا.

أعلنت فيوليت بريدجرتون:

– "شارلوت ستوكهيرست ستتزوج".

تساءلت هياسنث وهي تخلع قفازيها:

– "اليوم؟"

رمقتها أمها بنظرة وقالت:

– "لقد خُطبت. أخبرتني أمها هذا الصباح".

نظرت هياسنث حولها:

– "هل كنتِ تنتظرينني في الردهة؟"

أضافت فيوليت:

– "إلى إيرل رينتون. رينتون".

سألت هياسنث:

– "هل لدينا أي شاي؟ لقد مشيت الطريق كله إلى المنزل، وأنا عطشى".

هتفت فيوليت، وقد بدت مستعدة لرفع يديها يأسًا:

– "رينتون! هل سمعتني؟"

قالت هياسنث مطاوعة:

– "رينتون. لديه كاحلان مكتنزان".

توقفت فيوليت فجأة:

– "إنه... ولِمَ كنتِ تنظرين إلى كاحليه؟"

أجابت هياسنث:

– "لم يكن بوسعي تفويتهما".

وسلمت حقيبتها — التي كانت تحوي المذكرات الإيطالية — إلى خادمة، وقالت:

– "هلّا أخذتِ هذه إلى غرفتي، من فضلك؟"

انتظرت فيوليت حتى هرولت الخادمة مبتعدة، وقالت:

– "لدي شاي في غرفة الجلوس، وليس هناك خطب بكاحلي رينتون".

هزت هياسنث كتفيها:

– "إن كنتِ تحبين النوع المنتفخ".

– "هياسنث!"

تنهدت هياسنث بتعب، وهي تتبع أمها إلى غرفة الجلوس:

– "أمي، لديكِ ستة أبناء متزوجين، وجميعهم سعداء جدًا باختياراتهم. لِمَ تصرين على محاولة دفعي إلى زواج غير مناسب؟"

جلست فيوليت وأعدت كوبًا من الشاي لـ هياسنث. وقالت:

– "أنا لا أفعل، ولكن يا هياسنث، ألا يمكنك حتى النظر؟"

– "أمي، أنا..."

– "أو تظاهري بذلك من أجلي؟"

لم تستطع هياسنث إلا أن تبتسم.

مدت فيوليت الكوب، ثم استعادته وأضافت ملعقة أخرى من السكر. كانت هياسنث الوحيدة في العائلة التي تضع السكر في شايها، ولطالما أحبته حلوًا بزيادة.

قالت هياسنث وهي تتذوق المشروب:

– "شكرًا لكِ".

لم يكن ساخنًا كما تفضله، لكنها شربته على أية حال.

قالت أمها، بتلك النبرة التي دائمًا ما تجعل هياسنث تشعر بقليل من الذنب، رغم أنها كانت تدرك حقيقة الأمر:

– "هياسنث، تعلمين أنني لا أتمنى سوى رؤيتك سعيدة".

قالت هياسنث:

– "أعلم".

تلك كانت المشكلة. أمها كانت ترغب حقًا في سعادتها فقط. لو كانت فيوليت تدفعها نحو الزواج من أجل المجد الاجتماعي أو المكسب المادي، لكان تجاهلها أسهل بكثير. لكن لا، كانت أمها تحبها وتريد لها حقًا أن تكون سعيدة، وليس مجرد متزوجة، ولذا حاولت هياسنث بذل قصارى جهدها للحفاظ على مرحها وسط كل تنهيدات أمها.

تابعت فيوليت:

– "ما كنتُ لأتمنى أبدًا أن أراكِ متزوجة من شخص لا تستمتعين بصحبته".

– "أعلم".

– "وإذا لم تلتقي بالشخص المناسب أبدًا، سأكون سعيدة تمامًا برؤيتك تبقين بلا زواج".

رمقتها هياسنث بشك.

استدركت فيوليت:

– "حسنًا، ليس سعيدة تمامًا، لكنك تعلمين أنني لن أضغط عليك أبدًا للزواج من شخص غير مناسب".

قالت هياسنث مرة أخرى:

– "أعلم".

– "لكن يا عزيزتي، لن تجدي أحدًا أبدًا إن لم تبحثي".

احتجت هياسنث:

– "أنا أبحث! لقد خرجتُ كل ليلة تقريبًا هذا الأسبوع. حتى أنني ذهبت إلى حفل سميث-سميث الموسيقي الليلة الماضية. والذي، قد أضيف، أنكِ لم تحضريه".

سعلت فيوليت:

– "وعكة سعال خفيفة، أخشى ذلك".

لم تقل هياسنث شيئًا، لكن لم يكن لأحد أن يخطئ النظرة في عينيها.

قالت فيوليت بعد صمت مناسب:

– "سمعتُ أنكِ جلستِ بجوار غاريث سانت كلير".

تذمرت هياسنث:

– "هل لديك جواسيس في كل مكان؟"

أجابت فيوليت:

– "تقريبًا. هذا يجعل الحياة أسهل بكثير".

– "بالنسبة لكِ، ربما".

أصرت فيوليت:

– "هل أعجبكِ؟"

أعجبها؟ بدا سؤالاً غريبًا. هل أعجبها غاريث سانت كلير؟ هل أعجبها الشعور بأنه يضحك عليها في صمت دائمًا، حتى بعد موافقتها على ترجمة مذكرات جدته؟ هل أعجبها أنها لا تستطيع أبدًا معرفة ما يفكر فيه، أو أنه يتركها تشعر بالاضطراب، وبأنها ليست على طبيعتها؟

سألت أمها:

– "حسنًا؟"

راوغت هياسنث:

– "نوعًا ما".

لم تقل فيوليت شيئًا، لكن عينيها اكتسبتا بريقًا أرعب هياسنث حتى النخاع.

حذرت هياسنث:

– "إياكِ".

– "سيكون زوجًا ممتازًا يا هياسنث".

حدقت هياسنث في أمها وكأن رأسًا إضافيًا قد نبت لها.

– "هل جننتِ؟ أنتِ تعلمين سمعته مثلي تمامًا".

نحت فيوليت ذلك جانبًا في الحال:

– "سمعته لن تهم بمجرد زواجكما".

– "ستهم إن استمر في مخالطة مغنيات الأوبرا وأمثالهن".

قالت فيوليت وهي تلوح بيدها باستخفاف:

– "لن يفعل".

– "كيف يمكنكِ أن تعلمي ذلك؟"

صمتت فيوليت للحظة، وقالت:

– "لا أعلم. أفترض أنه شعور يراودني".

قالت هياسنث بتظاهر كبير بالاهتمام:

– "أمي، تعلمين أنني أحبك كثيرًا..."

تساءلت فيوليت:

– "لماذا أصبحتُ لا أتوقع خيرًا حين أسمع جملة تبدأ بهذه الطريقة؟"

قاطعتها هياسنث:

– "ولكن، يجب أن تغفري لي إن رفضتُ الزواج من شخص بناءً على شعور قد يراودك أو لا".

ارتشفت فيوليت شايها بلامبالاة مثيرة للإعجاب:

– "إنه ثاني أفضل شيء بعد شعور قد يراودك أنتِ. وإن جاز لي القول، فإن مشاعري تجاه هذه الأمور تميل لأن تكون صائبة تمامًا".

وعند رؤية تعبير هياسنث الجاف، أضافت:

– "لم أخطئ حتى الآن".

حسنًا، كان ذلك صحيحًا، توجب على هياسنث الاعتراف بذلك. لنفسها، بالطبع. لو أقرت بذلك بصوت عالٍ، لاتخذت أمها ذلك تفويضًا مطلقًا لمطاردة السيد سانت كلير حتى يفر صارخًا نحو الغابات.

قالت هياسنث، متوقفة لفترة أطول قليلاً من المعتاد لسرقة بعض الوقت لترتيب أفكارها:

– "أمي، لن أطارد السيد سانت كلير. إنه ليس من نوع الرجال المناسب لي على الإطلاق".

– "لستُ واثقة من أنك ستعرفين نوع الرجال المناسب لكِ حتى لو وصل إلى عتبة بابنا ممتطيًا فيلاً".

– "أعتقد أن الفيل سيكون مؤشرًا جيدًا نوعًا ما على أنني يجب أن أبحث في مكان آخر".

– "هياسنث".

أضافت هياسنث، وهي تفكر في الطريقة التي يبدو أن السيد سانت كلير ينظر بها إليها دائمًا بذلك الأسلوب المتعالي المبهم:

– "وفضلاً عن ذلك، لا أظن أنه يستلطفني كثيرًا".

قالت فيوليت، بكل سخط الأم الحنون:

– "هراء. الجميع يحبك".

فكرت هياسنث في ذلك للحظة.

– "كلا، لا أظن أن الجميع يفعل".

– "هياسنث، أنا أمك، وأنا أعلم..."

– "أمي، أنتِ آخر شخص قد يخبره أحد بأنه لا يحبني".

– "ومع ذلك..."

قاطعتها هياسنث، واضعة فنجان الشاي بحزم في صحنه:

– "أمي، لا يهم. أنا لا أمانع ألا أكون محبوبة من الجميع. لو أردتُ أن يحبني الجميع، لكان عليّ أن أكون طيبة وساحرة وتافهة ومملة طوال الوقت، وأين المتعة في ذلك؟"

قالت فيوليت:

– "أنتِ تتحدثين مثل السيدة دانبري".

– "أنا أحب السيدة دانبري".

– "أنا أحبها أيضًا، لكن هذا لا يعني أنني أريدها ابنة لي".

– "أمي..."

قالت فيوليت:

– "أنتِ لن تسعي لخطب ود السيد سانت كلير لأنه يخيفك".

شهقت هياسنث بالفعل:

– "هذا غير صحيح".

ردت فيوليت وهي تبدو مسرورة جدًا بنفسها:

– "بالطبع هو صحيح. لا أدري لِمَ لم يخطر ببالي من قبل. وهو ليس الوحيد".

– "لا أدري عما تتحدثين".

سألت فيوليت:

– "لِمَ لم تتزوجي بعد؟"

رمشت هياسنث من فجاجة السؤال:

– "عذرًا؟"

كررت فيوليت:

– "لِمَ لم تتزوجي؟ هل تريدين ذلك أصلاً؟"

– "بالطبع أريد".

وكانت تريد. كانت تريد ذلك أكثر مما قد تعترف به أبدًا، وربما أكثر مما أدركت حتى تلك اللحظة بالذات. نظرت إلى أمها ورأت عميدة أسرة، امرأة أحبت عائلتها بشراسة جلبت الدموع إلى عينيها. وفي تلك اللحظة أدركت هياسنث أنها تريد أن تحب بتلك الشراسة. أرادت أطفالاً. أرادت عائلة.

لكن ذلك لم يعنِ أنها مستعدة للزواج من أول رجل يطرق الباب. لم تكن هياسنث شيئًا إن لم تكن عملية؛ ستكون سعيدة بالزواج من شخص لا تحبه، شريطة أن يناسبها في كل الجوانب الأخرى تقريبًا. لكن، يا للسماء، هل كان كثيرًا أن تطلب رجلاً يتمتع بقدر من الذكاء؟

قالت ملينة نبرتها، لأنها تعلم أن فيوليت تعني الخير:

– "أمي، أنا أرغب في الزواج. أقسم لكِ أنني أفعل. ومن الواضح أنني كنتُ أبحث".

رفعت فيوليت حاجبيها:

– "من الواضح؟"

قالت هياسنث، ربما بشيء من الدفاعية:

– "لقد تلقيتُ ستة عروض. ليس خطئي أن أياً منها لم يكن مناسبًا".

– "حقًا".

شعرت هياسنث بشفتيها تفترقان دهشة من نبرة أمها:

– "ماذا تعنين بذلك؟"

– "بالطبع لم يكن أي من هؤلاء الرجال مناسبًا. نصفهم كان يطمع في ثروتك، أما النصف الآخر... حسنًا، كنتِ ستدفعينهم للبكاء في غضون شهر".

تمتمت هياسنث:

– "يا لهذه الرقة تجاه طفلتكِ الصغرى. إنها تحطمني تمامًا".

أطلقت فيوليت نخره تشبه نخرة السيدات الراقيات:

– "آه، أرجوكِ يا هياسنث، تعلمين تمامًا ما أعنيه، وتعلمين أنني محقة. لم يكن أي من هؤلاء الرجال ندًا لك. أنتِ بحاجة إلى شخص يكافئك".

– "هذا بالضبط ما كنت أحاول إخبارك به".

– "لكن سؤالي لكِ هو: لِمَ يطلب الرجال الخطأ يدك؟"

فتحت هياسنث فمها، لكن لم تكن لديها إجابة.

قالت فيوليت:

– "أنتِ تقولين إنكِ ترغبين في العثور على رجل يكون ندًا لك، وأظن أنكِ تعتقدين أنكِ تفعلين، لكن الحقيقة يا هياسنث هي أنكِ في كل مرة تقابلين فيها شخصًا يستطيع مجاراتك، تدفعينه بعيدًا".

قالت هياسنث، ولكن ليس بإقناع كبير:

– "أنا لا أفعل".

قالت فيوليت:

– "حسنًا، أنتِ بالتأكيد لا تشجعينهم".

ومالت للأمام، وعيناها تفيضان بمزيج متساوٍ من القلق والعتاب:

– "تعلمين أنني أحبك كثيرًا يا هياسنث، لكن يروق لكِ أن تكون لكِ اليد العليا في المحادثة".

تمتمت هياسنث:

– "ومن لا يروق له ذلك؟"

– "أي رجل يكون ندًا لكِ لن يسمح لكِ بإدارته كما ترين مناسبًا".

احتجت هياسنث:

– "لكن ليس هذا ما أريده".

تنهدت فيوليت. لكنه كان صوتًا مفعمًا بالحنين، مليئًا بالدفء والحب. قالت:

– "أتمنى لو كان بإمكاني أن أشرح لكِ كيف شعرتُ يوم ولادتك".

سألت هياسنث بصوت خافت:

– "أمي؟"

كان تغيير الموضوع مفاجئًا، وبطريقة ما علمت هياسنث أن ما ستقوله أمها لها سيعني أكثر من أي شيء سمعته في حياتها.

– "كان ذلك بعد وقت قصير جدًا من وفاة والدك. وكنتُ حزينة جدًا. لا أستطيع حتى أن أبدأ في إخبارك كم كنت حزينة. هناك نوع من الحزن يلتهم المرء التهامًا. يثقله. ولا يستطيع المرء..."

توقفت فيوليت، وتحركت شفتاها، وتشددت الزوايا بتلك الطريقة التي تحدث عندما يبتلع الشخص ريقه... ويحاول ألا يبكي.

– "حسنًا، لا يستطيع المرء فعل شيء. لا توجد طريقة لشرح ذلك ما لم تشعر به بنفسك".

أومأت هياسنث، رغم أنها كانت تعلم أنها لن تستطيع الفهم حقًا.

تابعت فيوليت، وقد أصبح صوتها أكثر نعومة:

– "طوال ذلك الشهر الأخير لم أكن أعرف كيف أشعر. لم أكن أعرف كيف أشعر تجاهك. لقد كان لدي سبعة أطفال بالفعل؛ قد يظن المرء أنني سأكون خبيرة. لكن فجأة كان كل شيء جديدًا. لن يكون لك أب، وكنتُ خائفة جدًا. كان عليّ أن أكون كل شيء لك. أفترض أنه كان عليّ أن أكون كل شيء لإخوتك وأخواتك أيضًا، لكن بطريقة ما كان الأمر مختلفًا. معكِ أنتِ..."

اكتفت هياسنث بمراقبتها، عاجزة عن رفع عينيها عن وجه أمها.

قالت فيوليت مرة أخرى:

– "كنت خائفة، مرعوبة من أن أخذُلك بطريقة ما".

همست هياسنث:

– "لم تفعلي".

ابتسمت فيوليت بحزن:

– "أعلم. انظري فقط كيف أصبحتِ رائعة".

شعرت هياسنث بفمها يرتجف، ولم تكن واثقة مما إذا كانت ستضحك أم تبكي.

قالت فيوليت، وقد اتخذت عيناها تعبيرًا حازمًا قليلاً:

– "لكن ليس هذا ما أحاول إخبارك به. ما أحاول قوله هو أنه حين ولدتِ، ووضعوكِ بين ذراعي، كان الأمر غريبًا، لسبب ما كنت مقتنعة تمامًا أنكِ ستشبهين والدك تمامًا. ظننتُ يقينًا أنني سأنظر لأسفل وأرى وجهه، وسيكون ذلك نوعًا من العلامة من السماء".

احتبست أنفاس هياسنث وهي تراقبها، وتساءلت لِمَ لم تخبرها أمها بهذه القصة قط. ولِمَ لم تسأل هي قط.

تابعت فيوليت:

– "لكنكِ لم تفعلي. كنتِ تشبهينني نوعًا ما. وبعد ذلك — يا إلهي، أذكر هذا وكأنه الأمس — نظرتِ في عيني، ورمشتِ. مرتين".

رددت هياسنث، متسائلة عن سبب أهمية ذلك:

– "مرتين؟"

– "مرتين".

نظرت فيوليت إليها، وانحنت شفتاها في ابتسامة صغيرة مضحكة:

– "أنا أتذكر ذلك فقط لأنكِ بدوتِ متعمدة جدًا. كان أغرب شيء. رمقتني بنظرة وكأنكِ تقولين: أنا أعرف بالضبط ما أفعله".

اندفعت دفقة صغيرة من الهواء عبر شفتي هياسنث، وأدركت أنها ضحكة. ضحكة صغيرة، من النوع الذي يباغت الجسد.

قالت فيوليت وهي تهز رأسها:

– "ثم أطلقتِ صرخة مدوية. يا إلهي، ظننتُ أنكِ ستهزين الطلاء عن الجدران. وابتسمتُ. كانت تلك المرة الأولى التي أبتسم فيها منذ وفاة والدك".

أخذت فيوليت نفسًا، ثم مدت يدها لشايها. راقبت هياسنث أمها وهي تتمالك نفسها، راغبة بشدة في أن تطلب منها الاستمرار، لكنها علمت بطريقة ما أن اللحظة تستدعي الصمت.

لمدة دقيقة كاملة انتظرت هياسنث، ثم قالت أمها أخيرًا بصوت خافت:

– "ومنذ تلك اللحظة، كنتِ عزيزة جدًا عليّ. أنا أحب كل أطفالي، لكن أنتِ..."

نظرت لأعلى، والتقت عيناها بعيني هياسنث:

– "أنتِ أنقذتني".

اعتصر شيء ما صدر هياسنث. لم تستطع التحرك تمامًا، ولم تستطع التنفس تمامًا. لم يكن بوسعها سوى مشاهدة وجه أمها، والاستماع لكلماتها، وأن تكون ممتنة جدًا، جدًا، لأنها كانت محظوظة بما يكفي لتكون ابنتها.

قالت فيوليت، وشفتاها تشكلان أصغر الابتسامات:

– "بطريقة ما كنتُ مفرطة في حمايتك، وفي الوقت ذاته مفرطة في التساهل. كنتِ مفعمة بالحيوية، واثقة تمامًا من هويتك وكيف تتناسبين مع العالم من حولك. كنتِ قوة من قوى الطبيعة، ولم أرغب في قص جناحيك".

همست هياسنث:

– "شكرًا لكِ".

لكن الكلمات كانت خافتة جدًا، لدرجة أنها لم تكن واثقة حتى مما إذا كانت قد قالتها بصوت مسموع.

– "لكن أحيانًا أتساءل عما إذا كان هذا قد تركك غافلة جدًا عن الناس من حولك".

فجأة شعرت هياسنث بشعور مريع.

قالت فيوليت بسرعة، حين رأت التعبير المفجوع على وجه هياسنث:

– "كلا، كلا. أنتِ طيبة، ومهتمة، وأنتِ أكثر تفكيرًا بكثير مما أظن أن أي شخص يدرك. لكن... يا عزيزتي، لا أعرف كيف أشرح هذا".

أخذت نفسًا، وتجعد أنفها وهي تبحث عن الكلمات الصحيحة:

– "أنتِ معتادة جدًا على أن تكوني مرتاحة تمامًا مع نفسك ومع ما تقولين".

سألت هياسنث:

– "ما الخطأ في ذلك؟"

لم يكن السؤال دفاعيًا، بل هادئًا فحسب.

– "لا شيء. أتمنى لو كان المزيد من الناس يملكون تلك الموهبة".

شبكت فيوليت يديها معًا، وإبهامها الأيسر يفرك راحة يدها اليمنى. كانت إيماءة رأتها هياسنث من أمها مرات لا تحصى، دائمًا حين تكون غارقة ـ في التفكير.

تابعت فيوليت:

– "لكن ما أظنه يحدث، هو أنكِ حين لا تشعرين بتلك الطريقة — حين يحدث شيء يسبب لكِ عدم الارتياح — حسنًا، لا يبدو أنكِ تعرفين كيف تديرين الأمر. وتلوذين بالفرار. أو تقررين أن الأمر لا يستحق العناء".

نظرت إلى ابنتها، وعيناها مباشرتان وربما مستسلمتان قليلاً. وقالت أخيرًا:

– "ولهذا السبب، أخشى أنكِ لن تجدي الرجل المناسب أبدًا. أو بالأحرى، ستجدينه، لكنكِ لن تعرفي ذلك. لن تسمحي لنفسكِ بمعرفة ذلك".

حدقت هياسنث ـ في أمها، تشعر بسكون شديد، وضآلة شديدة، وعدم يقين شديد بنفسها. كيف حدث هذا؟ كيف دخلت إلى هنا، متوقعة الحديث المعتاد عن الأزواج والزفاف وانعدام ذلك، لتجد نفسها مكشوفة وعارية حتى لم تعد واثقة تمامًا من تكون بعد الآن.

قالت لأمها:

– "سأفكر ـ في ذلك".

– "هذا كل ما يمكنني طلبه".

وكان ذلك كل ما يمكنها أن تعد به.

الفصل الخامس

وفي غداة تلك الليلة، وفي الردهة السنية للمصونة الليدي بلينزوورث، كان ثمة مشهد يبعث على الشده؛ فلسبب تعذر فهم كنهه، كانت أعواد من الشجر قد أثبتت بمعزف "البيانو"، وبدت طفلة صغيرة وقد نصبت فوق هامتها قرنا صناعيا.

قالت هياسنث، حينما اندفع السيد سانت كلير نحوها مباشرة، دون أن يتكلف عناء الالتفات يمنة أو يسرة:

– "سيظن الملأ أنك تروم وصالي وتسعى لخطبتي."

فأجابها وهو يتبوأ مقعده الخالي إلى جوارها:

– "هي ترهات لا طائل تحتها؛ فالقاصي والداني يعلم أنني لا أتودد للفاضلات من النساء، وعلى كل حال، فإنني أرى أن في هذا ما يضفي على سمعتك بهاء ورفعة."

– "ولكم كنت أحسب التواضع فضيلة مبخوسة القدر."

فافتر ثغره عن بسمة باهتة وقال:

– "لا أبغي أن أمدك بذخيرة تصوبينها نحوي، ولكن الحقيقة المرة أن جل الرجال كالشياه، إذا اندفع أحدهم تبعه القطيع. ألم تقولي إنك تبغين الزواج؟"

فأجابته:

– "ليس ممن يقتفون أثرك كما يقتفي الغنم قائدها."

فضحك عندئذ ضحكة فيها من جرأة الشياطين ما جعل هياسنث توقن أن هذا الثغر قد أغوى جحافل من الغانيات. ثم أجال بصره في الأرجاء، كمن ينوي الإقدام على أمر مستتر، وأدنى رأسه منها.

فلم تملك هياسنث إلا أن تدني رأسها هي الأخرى، وهمست قائلة:

– "أجل؟ ما الخبر؟"

– "إنني على شفا خطوة واحدة من الثغاء كالغنم."

حاولت هياسنث أن تكتم ضحكتها، فزلت بها القدم، إذ خرجت من بين ثناياها نحيبا مضطربا جافيا لأصول اللباقة.

قال غاريث وهو يعود بظهره إلى المقعد:

– "لقد كان من دواعي السعادة أنك لم تكوني تتجرعين كوبا من اللبن."

وظل الرجل – تبا له – مثالا يحتذى في رصانة السمت وهدوء الجنان.

حاولت هياسنث أن ترمقه بنظرة زاجرة، لكنها أيقنت أن بريق الدعابة في عينيها لم ينطفئ بعد.

فقال وهو يهز كتفيه:

– "لكان ذلك اللبن قد تدفق من منخريك."

فما إن استعادت صوتها حتى قالت:

– "ألم ينبئك أحد قط أن هذا ليس بالقول الذي يستمال به قلب امرأة؟"

فأجاب وهو يرنو ببصره نحو صدر القاعة:

– "إنني لا أروم استمالة قلبك."

ثم تمتم وقد بدا عليه مس من الدهشة:

– "يا للعجب! ما هذا الذي تقع عليه العين؟"

تبعت هياسنث نظراته، فإذا ببعض سلالة بلينزوورث يموج بهم المكان، وقد تزيت إحداهن بزي راعية غنم.

همس غاريث:

– "إنها لمصادفة تدعو للعجب."

فأمنت على قوله:

– "لعله آن الأوان لتشرع في الثغاء."

– "كنت أحسب أننا هنا في حضرة مجلس لإلقاء الشعر."

فقطبت هياسنث جبينها وهزت رأسها قائلة:

– "وا أسفاه! لقد طرأ على المنهاج تبديل غير متوقع."

فسألها مستنكرا:

– "هل انتقلنا من البحور الشعرية الخليلية إلى أهازيج راعية الغنم؟ إن هذا لأمر تمجه العقول."

فرمقته بنظرة ملؤها الأسى وقالت:

– "أحسب أننا لن نعدم بعض الشعر الرصين."

ففغر فاه دهشة وقال:

– "أمن تلك الراعية؟"

فأومأت برأسها، ورفعت له برنامج الحفل الذي كان يستقر في حجرها، وقالت كمن يبرر فظاعة الموقف:

– "إنه نص بديع من نسج خيال هاريت بلينزوورث؛ عنوانه: "الراعية، وأحادي القرن، والملك هنري الثامن"."

– "أكل هؤلاء معا؟ وفي آن واحد؟"

– "لست أمزح معك أبدا."

– "بالطبع لا؛ فمثل هذا الهذيان لا يقدر على ابتكاره حتى خيالك الجامح."

قررت هياسنث أن تعتبر قوله هذا مديحا.

ثم سألها وهو ينتزع البرنامج من يدها:

– "ولم لم أحظ بهذه الورقة؟"

فقالت وهي تلقي نظرة حول القاعة:

– "أحسب أن الرأي استقر على حجبه عن المعاشر من الرجال. والحق أن المرء لا يملك إلا الإعجاب ببُعد نظر الليدي بلينزوورث؛ فإنك لو علمت ما يخبئه القدر لك هنا، لوليت منه فرارا."

تململ غاريث في مقعده وقال:

- "هل أوصدت الأبواب بالأقفال بعد؟"

- "كلا، ولكن جدتك قد حطت رحالها بالفعل."

لم تكن هياسنث على يقين، لكنها خالت أنها سمعت أنينا مكتوما صادرا عنه.

ثم أردفت قائلة وهي تراقب الليدي دانبري وهي تتخذ مجلسها في الردهة الخلفية:

- "يبدو أنها لا تنوي المجيء نحونا."

فتمتم غاريث:

- "بالطبع لن تفعل."

وعلمت هياسنث أن ما يدور في خلده هو عين ما يعتلج في صدرها.

إنها تسعى للتوفيق بيننا.

ولم يكن خافيا على أحد أن الليدي دانبري لم تكن يوما ممن يسلكون سبل التلميح الملتوية.

همت هياسنث بالالتفات نحو المنصة، لكنها تسمرت حينما أبصرت أمها، تلك التي كانت تحجز لها مقعدا خاليا عن يمينها. تظاهرت فيوليت – بإخفاق ذريع في تقدير ابنتها – بعدم رؤيتها، وجلست إلى جوار الليدي دانبري.

تمتمت هياسنث:

- "حسنا!"

فلم تعرف أمها يوما بالدهاء في مثل هذه المواقف، ولكنها ظنت أنه بعد حديثهما في المساء السالف، ستكون فيوليت أكثر تحفظا.

لقد كان حريا بها أن تمنحها بضعة أيام للتدبر.

ولكن الواقع أن هياسنث أمضت اليومين المنصرمين في تقليب أوجه الحديث الذي دار بينها وبين والدتها. حاولت أن تستعرض وجوه كل من لقيتهم خلال سنواتها في "سوق الزواج"؛ وفي الأعم الأغلب، كانت تقضي أوقاتا

طيبة، تطلق لسانها بما تشاء، وتنتزع الضحك من الشفاه، وتنتشي بإعجاب الناس بذكائها.

بيد أن ثمة نفرا قليلا لم تشعر معهم بتمام الراحة. كان من بينهم أحد النبلاء في موسمها الأول، جعلها عاجزة تمامًا عن الكلام؛ كان وسيما أريبا، وحينما كان يرمقها بنظراته، خيل إليها أن ساقيها لن تحملاها. وقبل عام واحد، قدم لها شقيقها غريغوري أحد خلان صباه، وقد كان - بحق - جاف الطبع، ساخر اللهجة، بل كان ندا لها لا يشق له غبار. أقنعت نفسها آنذاك أنها لا تطيقه، ثم زعمت لأمها أنه يبدو من أولئك الذين يقسون على الحيوان. لكن الحقيقة كانت...

حسنا، إنها لا تعلم كنه الحقيقة، فهي لا تحيط بكل شيء علما، مهما حاولت أن توهم الآخرين بخلاف ذلك.

إلا أنها كانت تتحاشى أولئك الرجال. كانت تدعي أنها لا تحبهم، ولعل الأمر لم يكن كذلك؛ لعلها فقط لم تكن تحب نفسها وهي في حضرتهم.

رفعت بصرها، فإذا بالسيد سانت كلير يتكئ في مقعده، وقد ارتسم على محياه مزيج من السأم والتسلي؛ ذلك السمت المتمدن الرفيع الذي يجتهد رجال لندن في محاكاته. ورأت أن السيد سانت كلير قد غلبهم جميعا في هذا المضمار.

قال لها:

- "أراك واجمة جدا في ليلة ينتظر فيها سماع شعر عن البقر."

نظرت هياسنث نحو المنصة بمفاجأة وقالت:

- "هل نحن في انتظار ظهور البقر أيضا؟"

أعاد إليها النشرة الصغيرة وتنهد قائلا:

- "إنني أوطن نفسي على لقاء أسوأ المصائر."

ابتسمت هياسنث؛ فقد كان حقا رجلا خفيف الظل، ذكي الفؤاد، وسيم الطلعة إلى أبعد الحدود، وإن كان هذا الأمر الأخير مما لا ينتطح فيه عنزان.

وأدركت في لحظة خاطفة أنه يجمع كل الصفات التي طالما منت نفسها بها في فارس أحلامها.

يا إلهي العظيم!

سألها معتدلا في جلسته بغتة:

– "هل أنت على ما يرام؟"

فأجابت بصوت متهدج:

– "بخير، ولم السؤال؟"

– "لقد كنت تبدين..." ثم تنحنح وأكمل: "حسنا، لقد بدوت... آه... معذرة، فلا يسعني أن أنطق بهذا في حضرة امرأة."

فقالت هياسنث بلهجة متهكمة رغم ما شاب صوتها من توتر:

– "حتى تلك التي لا تروم استمالة قلبها؟"

حملق فيها لبرهة ثم قال:

– "حسنا، لقد بدوت كمن أوشك أن يصاب بدوار وغثيان."

قالت وهي تنظر أمامها بثبات:

– "أنا لا أمرض أبدا."

وأخذت تحدث نفسها أن غاريث سانت كلير ليس هو الرجل الذي تنشده، ولا يمكن أن يكون كذلك. ثم أضافت:

– "كما أنني لا يغشى علي قط."

همس قائلا:

– "والآن تبدين غاضبة."

فأجابت:

– "لست كذلك." وقد راقها كيف بدا صوتها مشرقا ملؤه الحبور.

ذكرت نفسها بأن له سمعة منقوصة؛ فهل ترغب حقا في الارتباط برجل تعددت مآثر غرامه؟ وعلى خلاف العذارى غير المتزوجات، كانت هياسنث تعلم علم اليقين ما تعنيه "العلاقات"؛ ليس عن تجربة شخصية بالطبع، بل بعد أن انتزعت أدق التفاصيل من شقيقاتها المتزوجات. وإذا كانت دافني و إلويز و

فرانشيسكا قد أكدن لها أن الأمر متعة مع الزوج الصالح، فإن العقل يقتضي أن الزوج الصالح هو من يقتصر بوفاده على زوجته. أما السيد سانت كلير، فقد كانت له صولات مع جمهرة من النساء، ولا ريب أن مثل هذا المسلك ليس بالأمر السوي.

وحتى لو كان في الأمر مبالغة، وكان العدد أقل مما يشاع، فكيف لها أن تنافس؟ إنها تعلم يقينا أن آخر خليلاته لم تكن سوى ماريا بارتولوميو، المرنمة الإيطالية التي ذاع صيت جمالها كما ذاع صيت صوتها. ولا يمكن لأمها نفسها أن تدعي أن ابنتها تداني تلك الحسناء جمالا.

يا له من أمر مهول، أن تدخل المرأة ليلة زفافها وهي تعلم أنها ستكون محل مقارنة ظالمة!

سمعت زفير السيد سانت كلير وهو يقول:

– "أحسب أن العرض قد بدأ."

كان الخدم يجوبون القاعة، يطفئون الشموع ليسود الغبش. التفتت هياسنث فلمحت جانب وجهه، وكانت ثمة شمعة قد أبقيت مشتعلة خلف كتفه، فجعل ضوؤها المتراقص شعره يبدو كما لو كان منسوجا من خيوط الذهب. ولاحظت أنه كان معقود الشعر إلى الخلف، وكان الرجل الوحيد في القاعة الذي احتفظ بهذه العادة.

راقها ذلك، ولم تدر لماذا، لكنه راقها.

سمعت همسه يقول:

– "كيف سيكون وقع فراري نحو الباب الآن؟"

فهمست بدورها، محاولة تناسي تلك القشعريرة التي سرت في جسدها حينما دنا منها:

– "سيكون وقعه سيئا للغاية."

فعاد إلى ورائها بتنهد حزين، ثم رمق المنصة بنظرة فيها كل جلال الرجل النبيل المهذب الذي لا يشوبه إلا نزر يسير من الملل.

ولكن، بعد دقيقة واحدة، تناهى إلى سمع هياسنث صوت خفي لم يسمعه غيرها:

– "مــاااا."

– "مــــااااااا."

وبعد تسعين دقيقة من العناء الذي يذهب العقل، تبين – ويا للأسف – أن بطلنا كان محقا بشأن البقر.

سأل غاريث وعيناه لا تفارقانه المنصة وهو يقف ليصفق لأبناء بلينزوورث:

– "آنسة بريدجيرتون، هل تتجرعين نبيذ البورت؟"

– "كلا بالطبع، ولكني طالما رغبت في تبين طعمه، لماذا؟"

– "لأننا كلينا نستحق جرعة مما يذهب الهم بعد هذا العرض."

سمعها تكتم ضحكة ثم تقول:

– "حسنا، لقد كان أحادي القرن لطيفا بشكل ما."

فشخر ساخرا؛ فلم يكن عمر ذلك "الأحادي" يتجاوز عشر سنوات، وكان الأمر سيمر لولا إصرار هنري الثامن على ركوب متنه في مشهد لم يرد في النص. تمتم قائلا:

– "عجبت كيف لم يستدعوا جراحا بعد تلك المعمعة."

تألمت هياسنث لأجلها وقالت:

– "لقد بدت تعرج قليلا."

– "لقد كنت على وشك أن أصهل وجعا نيابة عنها. يا لله! من هذا... أوه! الليدي بلينزوورث!"

قال غاريث ذلك وهو يرتدي قناع الابتسامة بسرعة فائقة حسد نفسه عليها:

– "كم أنا سعيد بلقائك."

قالت الليدي بلينزوورث بحفاوة بالغة:

– "سيد سانت كلير، كم أنا مسرورة بتشريفك لنا."

– "ما كان لي أن أفوت مثل هذا المحفل."

ثم التفتت نحو هياسنث بفضول يبحث عن شيء من النميمة:

– "والآن يا آنسة بريدجيرتون، هل لي أن أشكرك على مجيء السيد سانت كلير؟"

فأجابت هياسنث:

– "أخشى أن اللوم يقع على عاتق جدته؛ فقد هددته بعصاها."

لم تدر الليدي بلينزوورث كيف ترد، فالتفتت نحو غاريث وتنحنحت قبل أن تسأله:

– "هل تعرفت إلى كريماتي؟"

جاهد غاريث لكي لا ترتسم على وجهه علامات الاستياء، فهذا هو عين ما كان يتحاشاه.

– "آه... كلا، لا أظن أنني نلت هذا الشرف."

قالت الليدي:

– "راعية الغنم."

فأومأ غاريث برأسه وسأل مبتسما:

– "وأحادي القرن أيضا؟"

فأجابت الليدي بلينزوورث وهي ترمش في حيرة وربما ضيق:

– "أجل، ولكنها ما زالت غضة الإهاب."

قاطعتها هياسنث قائلة:

– "إنني على يقين من أن السيد سانت كلير سيسعد بلقاء هاريت." ثم التفتت نحو غاريث موضحة: "أعني راعية الغنم."

فقال:

– "بالطبع، سأكون في غاية السعادة."

التفتت هياسنث نحو الليدي بلينزوورث بابتسامة تفيض براءة مصطنعة:

– "إن السيد سانت كلير خبير ضليع في كل ما يتصل بشؤون الضأن."

تمتم غاريث:

- "أين عصا جدتي حينما أحتاج إليها؟"

سألت الليدي وهي تميل نحوه:

- "عفوا، ماذا قلت؟"

- "قلت إنني سأشرف بلقاء كريمتك."

فهتفت الليدي بلينزوورث وهي تصفق بيديها:

- "يا للروعة! إنني أعلم أنها ستكون في غاية الحماس للقائك." ثم انصرفت بعد أن تمتمت بأن عليها رعاية بقية الضيوف.

قالت هياسنث بعد أن خلا لهما المكان:

- "لا تبتئس هكذا، فأنت صيد ثمين تتنافس عليه النساء."

فنظر إليها بتفحص وقال:

- "هل يجدر بالمرء أن ينطق بمثل هذه الأمور بهذه الصراحة المباشرة؟"

فهزت كتفيها وقالت:

- "ليس للرجال الذين تروم المرأة استمالة قلوبهم."

- "لقد أصبت المرمى يا آنسة بريدجيرتون."

فتنهدت بسعادة وقالت:

- "تلك هي أحب الكلمات إلى قلبي."

ولم يكن لديه أدنى شك في ذلك.

سألها:

- "أنبئيني يا آنسة بريدجيرتون، هل شرعت في قراءة مذكرات جدتي؟"

فأومأت برأسها وقالت:

- "لقد عجبت كيف لم تسأل عن ذلك من قبل."

- "لقد ألهتني راعية الغنم، ولكن رجاء، لا تنقلي هذا إلى أمها، فلربما فهمته على غير محمله."

- "الأمهات يفعلن ذلك دوما." قالت ذلك وهي تلقي نظرة في الأرجاء.

سألها:

- "عن أي شيء تبحثين؟"

– "هم م م؟ لا شيء، إنما هو بحث عام."

– "ولكن عن ماذا؟"

التفتت إليه، وكانت عيناها الزرقاوان واسعتين تبعثان على الدهشة:

– "لا شيء بعينه. ألا تحب أن تكون على علم بكل ما يجري حولك؟"

– "فقط فيما يتعلق بي شخصيا."

– "حقا؟ أما أنا، فأحب الإحاطة بكل شيء."

– "هذا ما أدركته لتوّي. وبالمناسبة، ماذا استقيت من تلك المذكرات؟"

تهللت أساريرها فورا، وبدا كما لو أن هياسنث بريدجيرتون تتوهج ضياء حينما تتاح لها فرصة الحديث بثقة وسلطان، ورأى غاريث في ذلك سحرا لا يقاوم.

قالت:

– "وا أسفاه! لم أقرأ سوى اثنتي عشرة صفحة؛ فقد استعانت بي أمي في تحرير رسائلها هذا المساء، ولم يكن لدي الوقت الكافي. وبالمناسبة، لم أنبئها بأمر المذكرات، فلم أكن أدري إن كان الأمر سرا."

فكر غاريث في أبيه، الذي ربما سيرغب في الحصول على المذكرات فقط لأنها في حوزة ابنه، فقال:

– "إنه سر، إلى أن أرى غير ذلك."

فأومأت برأسها وقالت:

– "لعل الأفضل ألا ننبس ببنت شفة حتى تعلم ما سطرته بيدها."

– "وماذا وجدت فيها؟"

رمقتها بنظرة فيها تورع، فسألها:

– "ما بالك؟"

انقبضت أسارير وجهها كمن يحمل خبرا سيئا ويخشى النطق به:

– "أخشى أنه لا توجد طريقة مهذبة لقول ذلك."

فأجاب:

– "نادرا ما يكون التهذيب موجودا حينما يتعلق الأمر بعائلتي."

نظرت إليه بفضول وقالت:

– "لم تكن لديها رغبة حقيقية في الزواج من جدك."

– "أجل، لقد قلت ذلك مساء اليوم."

– "كلا، أنا أعني أنها كانت تأبى ذلك إباء شديدا."

فتمتم غاريث:

– "يا لها من امرأة حصيفة! فالرجال في عائلتي ليسوا سوى حمقى يتسمون بالعناد."

فابتسمت قليلا وقالت:

– "وأنت من بينهم؟"

لقد كان عليه أن يتوقع هذا منها. همس قائلا:

– "لم تستطيعي مقاومة المزحة، أليس كذلك؟"

– "وهل استطعت أنت؟"

– "أحسب أنني لم أفعل. ماذا قالت أيضا؟"

– "ليس الكثير؛ فقد كانت في السابعة عشرة من عمرها حينما شرعت في تدوين هذه المذكرات. لقد أجبرها والداها على ذلك الزواج، وقد سطرت ثلاث صفحات تنضح بالالتياع."

– "الالتياع؟"

فقالت بحذر:

– "حسنا، لقد كان الأمر أشد من ذلك، ولكن..."

– "سنكتفي بمصطلح الالتياع."

فأمنت على قوله:

– "أجل، هذا أفضل."

فسألها:

– "وكيف كان اللقاء الأول؟ هل ذكرت ذلك؟"

هزت هياسنث رأسها نفيا:

- "كلا، يبدو أنها بدأت التدوين بعد التعارف، وإن كانت قد أشارت إلى حفلة في منزل عمها، فلعل ذلك هو الموضع."

أومأ غاريث برأسه ساهيا:

- "لقد قام جدي برحلة كبرى، وتعارفا وتزوجا في إيطاليا، هذا كل ما تناهى إلى علمي."

فقالت هياسنث:

- "حسنا، لا أظن أنه غرر بها، لو كان هذا ما تبغي معرفته؛ فلا ريب أنها كانت ستذكر ذلك في ديوانها."

لم يملك إلا أن يلقي إليها بكلمة مستفزة:

- "أتظنين ذلك؟"

- "عفوا؟"

- "هل كنت ستسطرين ذلك في مذكراتك لو أن شخصا ما غرر بك؟"

ارتسمت حمرة الخجل على وجنتيها، مما أثار بهجته. فقالت:

- "أنا لا أحتفظ بمذكرات."

لقد راقه هذا الموقف أيما روق.

- "ولكن لو فعلت..."

فقالت بنبرة حادة:

- "ولكنني لم أفعل."

فقال بنعومة:

- "يا لك من جبانة!"

فردت عليه:

- "وهل كنت أنت ستودع كل أسرارك في ديوان؟"

- "كلا بالطبع؛ فلو وقع في يد أحد، لما كان ذلك إنصافا في حق من ذكرتهم."

- "أي أشخاص تعني؟"

فافتر ثغره عن بسمة جريئة وقال:

– "الغانيات."

تورد وجهها خجلا مرة أخرى، لكنها كانت حمرة رقيقة، زانت أنفها المرصع بنمش خفيف. وفي حين أن معظم النساء كن سيظهرن السخط، إلا أن هياسنث لم تفعل، بل زمت شفتيها كمن يكتم ردا مفحما.

وأدرك عندئذ أنه يستمتع بوقته؛ رغم أنه يقف جوار معزف تعلوه الأغصان، ورغم علمه أنه سيقضي بقية الليلة في مداراة راعية غنم وأمها الطموح.

سألتها هياسنث:

– "هل أنت حقا بمثل السوء الذي يتحدث عنه الناس؟"

بهت من سؤالها الذي لم يتوقعه، ثم اعترف قائلا:

– "كلا، ولكن لا تفشي هذا السر لأحد."

فقالت بتفكر:

– "لم أكن أحسبك كذلك."

أوجس خيفة من نبرتها؛ فلم يكن يريد لـ هياسنث بريدجيرتون أن تطيل التفكير فيه، فلربما نفذت بصيرتها إلى مكنون نفسه، ولم يكن يدري ماذا عساها أن تجد هناك.

قالت له:

– "إن جدتك آتية نحونا."

– "أرى ذلك، فهل نحاول الفرار؟"

– "لقد فات الأوان، فهي تجر أمي خلفها."

تعالى صوت الجدة الصارم:

– "غاريث!"

فقال وهو يلثم يدها بنبل حينما وصلت إليه:

– "جدتي، إنه لمن دواعي سروري دوما أن أراك."

فأجابته بلهجة حادة:

– "بالطبع هو كذلك."

ثم التفت غاريث ليواجه نسخة أكبر سنا وأكثر نورا من هياسنث:

– "الليدي بريدجيرتون."

فقالت الليدي بريدجيرتون بمودة:

– "سيد سانت كلير، لقد مر دهر لم نرك فيه."

– "إنني لا أحضر مثل هذه المحافل الشعرية غالبا."

فقالت الليدي بصراحة:

– "أجل، لقد أنبأتني جدتك أنها اضطرت لقسرك على المجيء."

فالتفت نحو جدته وقد رفع حاجبيه دهشة:

– "إنك ستفسدين سمعتي."

فردت الليدي دانبري:

– "لقد فعلت ذلك بنفسك يا بني."

فتدخلت هياسنث قائلة:

– "أحسب أنه يعني أن العالم لن يراه بعد الآن ذلك الرجل الجسور المخوف إذا علموا مدى بره بك."

ساد صمت مرتبك بعد أن أدرك الجميع مغزى قولها. فأشفق عليها غاريث وقطع الصمت بقوله:

– "إن لدي موعدا آخر هذا المساء، وأخشى أن علي الاستئذان."

ابتسمت الليدي بريدجيرتون وقالت:

– "ولكننا سنراك مساء الثلاثاء، أليس كذلك؟"

– "الثلاثاء؟" سأل مستفهما، وأدرك أن ابتسامة الليدي ليست بريئة كما تبدو.

– "إن ابني وزوجته يقيمان حفلا راقصا كبيرا، وأنا على يقين أنك تلقيت دعوة."

كان غاريث على يقين من ذلك أيضا، لكنه دوما ما ينبذ الدعوات جانبا دون نظر.

وتابعت الليدي بريدجيرتون:

- "أعدك أنه لن يكون ثمة أحادي قرن."

لقد أحكم الفخ حوله، وعلى يد خبيرة أيضا. فقال بأدب:

- "في هذه الحالة، كيف لي أن أرفض؟"

- "هذا رائع! إنني على يقين أن هياسنث ستكون مسرورة بلقائك."

تمتمت هياسنث:

- "إنني أكاد أطير فرحا."

فقالت الليدي بريدجيرتون زاجرة:

- "هياسنث!" ثم التفتت نحو غاريث: "إنها لا تعني ما تقول."

فالتفت نحو هياسنث وقال:

- "لقد تحطم فؤادي."

- "ألأنني أطير فرحا، أم لأنني لا أفعل؟"

- "أيهما شئت." ثم قال مخاطبا الجميع: "سيداتي، طاب مساؤكن."

قالت هياسنث وابتسامتها تنضح بشيء من المكر:

- "لا تنس راعية الغنم، فقد وعدت أمها."

تبا له! لقد نسي الأمر. نظر نحو أقصى القاعة، فإذا بتلك الراعية تصوب عصاها نحوه، وشعر بانقباض حينما خيل إليه أنها قد تلقي بالعصا حول عنقه لتجذبه نحوها.

سأل هياسنث:

- "ألستما صديقتين؟"

- "أوه، كلا، فأنا لا أكاد أعرفها."

- "ألا ترغبين في لقائها؟"

وضعت إصبعها على ذقنها وقالت بمكر:

- "أنا... كلا." ثم ابتسمت: "ولكني سأراقب مشهد لقائكما من بعيد."

همس وهو يمر من جانبها متجها نحو الراعية:

- "يا لك من خائنة!"

وطوال ما تبقى من الليل، لم يستطع أن يسلو رائحة عطرها.

أو لعله صوت ضحكتها الرقيقة.

أو لعله لم يكن هذا ولا ذاك، بل كانت هي بشخصها التي ملكت عليه مجامع قلبه.

الفصل السادس

في يوم الثلاثاء الذي تلا ذلك، تحديدًا في قاعة الرقص الفسيحة بمنزل آل بريدجرتون، حيث تضاء الشموع، وتملأ الموسيقى الأرجاء، وتبدو الليلة كأنها نُسجت من خيوط الرومانسية الحالمة.

ولكن، ليس بالنسبة لـ هياسنث، التي راحت تتعلم درسًا قاسيًا مفاده أن الأصدقاء قد يكونون مدعاة للغيظ تمامًا كأفراد العائلة.

وربما أكثر.

قالت فيليستي:

- "أتعلمين بمن أظن أنه يجدر بكِ الزواج؟ أظن أنه يجدر بكِ الزواج بـ غاريث سانت كلير".

نظرت هياسنث إلى فيليستي ألبانسديل، صديقتها المقربة، بتعبير تأرجح في منطقة وسطى بين عدم التصديق والذعر. كانت، بشكل قاطع وحاسم، غير مستعدة للقول بأن عليها الزواج من غاريث سانت كلير، لكنها من ناحية أخرى، بدأت تتساءل عما إذا كان يجدر بها منحه لمسة من التفكير.

ولكن مع ذلك، هل كانت شفافة إلى هذا الحد؟

قالت:

- "لقد جُن جنونكِ".

إذ لم تكن بصدد إخبار أحد بأنها ربما بدأت تكنّ للرجل بعض الميل. لم تكن تحب فعل أي شيء إن لم تتقنه، وكان يساورها شعور بالغرق بأنها لا تعرف كيف تسعى وراء رجل بأي شيء يشبه الرشاقة أو الكرامة.

قالت فيليستي، وهي ترمق الرجل المعنيّ من الجانب الآخر من قاعة الرقص:

- "كلا البتة. سيكون مثاليًا لكِ".

ولأن هياسنث أمضت الأيام القليلة الماضية لا تفكر في شيء سوى غاريث، وجدته، ومذكرات جدته الأخرى، لم يكن أمامها خيار سوى القول:

- "هراء. أنا بالكاد أعرف الرجل".

- "لا أحد يعرفه. إنه لغز".

دمدمت هياسنث:

- "حسنًا، ما كنتُ لأقول ذلك".

بدت كلمة "لغز" رومانسية للغاية، و...

قاطعت فيليستي أفكارها:

- "بالطبع هو كذلك. ماذا نعرف عنه؟ لا شيء. إذن..."

- "إذن لا شيء. وأنا بالتأكيد لن أتزوجه".

- "حسنًا، لا بد لكِ من الزواج بشخص ما".

قالت هياسنث باشمئزاز:

- "هذا ما يحدث حين يتزوج الناس. كل ما يريدونه هو رؤية الجميع متزوجين".

هزت فيليستي، التي تزوجت جيفري ألبانسديل قبل ستة أشهر، كتفيها:

- "إنها غاية نبيلة".

ألقت هياسنث نظرة خاطفة على غاريث، الذي كان يرقص مع جين هوتشكيس الجميلة جدًا، والشقراء جدًا، والضئيلة الحجم جدًا. بدا وكأنه يتعلق بكل كلمة تقولها.

قالت، وهي تلتفت إلى فيليستي بتصميم متجدد:

– "أنا لن أسعى لخطب ود غاريث سانت كلير".

قالت فيليستي بخفة:

– "يُخيّل إليّ أن السيدة تبالغ في الاحتجاج".

صرت هياسنث على أسنانها:

– "السيدة احتجت مرتين".

– "لو توقفتِ للتفكير في الأمر..."

قاطعتها هياسنث:

– "وهو ما لن أفعله".

– "... لتبين لكِ أنه زوج مثالي".

سألت هياسنث، رغم علمها أن ذلك سيشجع فيليستي فقط:

– "وكيف ذلك؟"

التفتت فيليستي إلى صديقتها ونظرت في عينيها مباشرة:

– "إنه الشخص الوحيد الذي يخطر ببالي ممن لن... أو بالأحرى، لا يمكنكِ... تحطيمه".

نظرت إليها هياسنث لبرهة طويلة، وهي تشعر بلسعة غير مبررة.

– "لستُ واثقة مما إذا كان عليّ اعتبار ذلك مجاملة".

هتفت فيليستي:

– "هياسنث! تعلمين أنني لم أقصد إهانة. بحق السماء، ما خطبك؟"

تمتمت هياسنث:

– "لا شيء".

لكن بين هذه المحادثة وتلك التي جرت الأسبوع الماضي مع والدتها، بدأت تتساءل كيف يراها العالم بالضبط.

لأنها لم تكن واثقة من أن ذلك يتوافق مع رؤيتها لنفسها.

قالت فيليستي، وهي تأخذ يد هياسنث في بادرة صداقة:

– "لم أكن أقول إنني أريدكِ أن تتغيري. يا إلهي، كلا. فقط أنكِ بحاجة إلى شخص يستطيع مجاراتك. حتى أنتِ يجب أن تعترفي بأن معظم الناس لا يستطيعون".

قالت هياسنث وهي تهز رأسها قليلاً:

– "أنا آسفة. لقد بالغتُ في رد الفعل. أنا فقط... لم أشعر أنني على طبيعتي في الأيام القليلة الماضية".

وكان ذلك صحيحًا. لقد أخفت الأمر جيدًا، أو على الأقل ظنت أنها فعلت، لكن في داخلها، كانت تعيش في نوع من الاضطراب. كان ذلك الحديث مع والدتها. لا، كان ذلك الحديث مع السيد سانت كلير. لا، كان كل شيء. كل شيء دفعة واحدة. وتُركت تشعر وكأنها لم تعد واثقة تمامًا من تكون، وهو ما كان شبه مستحيل تحمله.

قالت فيليستي وهي تنظر مرة أخرى نحو قاعة الرقص:

– "ربما تكون نزلة برد خفيفة. يبدو أن الجميع مصابون بها هذا الأسبوع".

لم تناقضها هياسنث. كان ليكون أمرًا لطيفًا لو كان مجرد نزلة برد.

تابعت فيليستي:

– "أعلم أنكِ على ود معه. سمعتُ أنكما جلستما معًا في حفل سميث-سميث الموسيقي وأمسية بلينسوورث الشعرية".

قالت هياسنث بذهول:

– "لقد كانت مسرحية. غيروها في اللحظة الأخيرة".

– "أسوأ وأسوأ. كنت أظن أنكِ ستتمكنين من التملص من حضور واحدة منها على الأقل".

– "لم تكونا بتلك الفظاعة".

قالت فيليستي بابتسامة ماكرة:

– "لأنكِ كنتِ تجلسين بجوار السيد سانت كلير".

قالت هياسنث وهي ترفض النظر إليها:

– "أنتِ فظيعة".

لو فعلت، لكانت فيليستي بالتأكيد سترى الحقيقة في عينيها. كانت هياسنث كاذبة جيدة، لكن ليس لتلك الدرجة، وليس مع فيليستي.

والأسوأ من ذلك — أنها كانت تستطيع سماع نفسها في كلمات فيليستي. كم مرة مازحت فيليستي بنفس الطريقة قبل أن تتزوج؟ دزينة؟ أكثر؟

قالت فيليستي:

– "يجب أن ترقصي معه".

أبقت هياسنث عينيها على قاعة الرقص:

– "لا أستطيع فعل شيء إن لم يطلب هو".

– "بالطبع سيطلب. عليكِ فقط الوقوف على الجانب الآخر من الغرفة، حيث يكون من المرجح أن يراكِ".

– "لن أطارده".

انتشرت ابتسامة فيليستي عبر وجهها:

– "أنتِ معجبة به! يا إلهي، هذا رائع! لم أرَ قط..."

قاطعتها هياسنث:

– "أنا لست معجبة به".

ثم، لأنها أدركت كم بدا ذلك صبيانيًا، وأن فيليستي لن تصدقها أبدًا، أضافت:

– "أنا فقط أظن أنه ربما ينبغي عليّ أن أرى إن كنتُ سأعجب به".

أشارت فيليستي:

– "حسنًا، هذا أكثر مما قلتِه عن أي رجل آخر قط. ولا حاجة لكِ لمطاردته. لن يجرؤ على تجاهلك. أنتِ أخت مضيفه، وفضلاً عن ذلك، ألن توبخه جدته إن لم يطلب منكِ الرقص؟"

– "شكرًا لجعلي أشعر وكأنني جائزة قيمة".

قهقهت فيليستي:

– "لم أركِ هكذا من قبل، ويجب أن أقول، إنني أستمتع بذلك للغاية".

تذمرت هياسنث:

– "أنا سعيدة لأن إحدانا تستمتع".

لكن كلماتها ضاعت تحت الصوت الحاد لشهقة فيليستي.

سألت هياسنث:

– "ما الأمر؟"

أمالت فيليستي رأسها قليلاً إلى اليسار، مشيرة عبر الغرفة. وقالت بصوت منخفض:

– "والده".

التفتت هياسنث بحدة، دون حتى محاولة لإخفاء اهتمامها. يا إلهي، اللورد سانت كلير هنا. كل لندن تعلم أن الأب والابن لا يتحدثان، لكن الدعوات للحفلات كانت لا تزال تُرسل لكليهما. بدا أن رجال سانت كلير يملكون موهبة مذهلة في عدم الظهور حيث قد يكون الآخر، ولذا كان المضيفون يُعفون عمومًا من حرج حضورهما نفس المناسبة.

لكن من الواضح أن شيئًا ما قد ساء هذا المساء.

هل علم غاريث بوجود والده؟ نظرت هياسنث بسرعة عائدة إلى ساحة الرقص. كان يضحك على شيء تقوله الآنسة هوتشكيس. لا، لم يكن يعلم. شهدت هياسنث لقاءه بوالده مرة واحدة. كان ذلك من الجانب الآخر للغرفة، لكن لم يكن هناك مجال للخطأ في التعبير المتوتر على وجهه.

أو الطريقة التي اندفع بها كلاهما إلى مخرجين منفصلين.

راقبت هياسنث بينما جال اللورد سانت كلير ببصره في أرجاء الغرفة. استقرت عيناه على ابنه، وتصلب وجهه بأكمله.

همست فيليستي:

– "ماذا ستفعلين؟"

تفعل؟

افترقت شفتي هياسنث وهي تنظر من غاريث إلى والده. استدار اللورد سانت كلير، الذي لم يكن مدركاً لنظراتها بعد، على عقبيه وخرج، ربما في اتجاه غرفة البطاقات.

لكن لم يكن هناك ضمان بأنه لن يعود.

أصرت فيليستي:

– "ستفعلين شيئًا، أليس كذلك؟ يجب عليكِ".

كانت هياسنث واثقة إلى حد ما من أن ذلك غير صحيح. لم يسبق لها فعل شيء من قبل. لكن الأمر مختلف الآن. كان غاريث... حسناً، افترضت أنه صديقها، بطريقة غريبة ومقلقة نوعًا ما. وكان عليها التحدث معه. لقد أمضت الصباح بأكمله ومعظم فترة ما بعد الظهيرة في غرفتها، تترجم مذكرات جدته. بالتأكيد سيرغب في معرفة ما تعلمته.

وإذا تمكنت من منع مشاجرة في هذه العملية... حسناً، كانت دائمًا سعيدة بأن تكون بطلة اليوم، حتى لو لم يدرك ذلك أحد سواها وفيليستي.

أعلنت هياسنث:

– "سأطلب منه الرقص".

سألت فيليستي وعيناها تجحظان:

– "ستفعلين؟"

كانت هياسنث معروفة بالتأكيد بأنها "فريدة من نوعها"، لكن حتى هي لم تجرؤ قط على طلب الرقص من رجل.

قالت هياسنث:

– "لن أفتعل مشهدًا كبيرًا حول الأمر. لن يعرف أحد سوى السيد سانت كلير. وأنتِ".

– "ومن يصادف وقوفه بجواره. ومن يخبرونهم، ومن..."

قاطعتها هياسنث:

– "أتعلمين ما الجميل في صداقات طويلة الأمد مثل صداقتنا؟"

هزت فيليستي رأسها.

– "أنكِ لن تأخذي إهانة دائمة حين أدير ظهري وأبتعد".

ثم فعلت هياسنث ذلك بالضبط.

لكن درامية خروجها تضاءلت بشكل كبير حين سمعت فيليستي تقهقه وتقول:

– "حظًا سعيدًا!"

بعد ثلاثين ثانية. لا يستغرق عبور قاعة رقص وقتًا طويلاً، بعد كل شيء.

لطالما استلطف غاريث جين هوتشكيس. كانت أختها متزوجة من ابن عمه، ونتيجة لذلك كانا يريان بعضهما البعض من حين لآخر في منزل الجدة دانبري. والأهم من ذلك، أنه كان يعلم أنه يستطيع طلب الرقص منها دون أن تتساءل عما إذا كان هناك نوع من الغرض الزواجي الخفي.

لكن من ناحية أخرى — كانت تعرفه جيدًا. أو على الأقل جيدًا بما يكفي لتعرف متى كان يتصرف بغير طبيعته.

سألته بينما كانت رقصتهما الرباعية تقترب من نهايتها:

– "عما تبحث؟"

أجاب:

– "لا شيء".

قالت وقد اقترب حاجباها الأشقران الشاحبان بتعبير ساخط قليلاً:

– "حسنًا جدًا. عمن تبحث إذن؟ ولا تقل لا أحد، لأنك كنت تمد عنقك طوال الرقصة".

أدار رأسه بحيث ثبتت نظراته بقوة على وجهها، وقال:

– "جين، خيالك لا يعرف حدودًا".

– "الآن أعلم أنك تكذب".

كانت محقة بالطبع. كان يبحث عن هياسنث بريدجرتون منذ أن دلف عبر الباب قبل عشرين دقيقة. ظن أنه لمحها قبل أن يصطدم بـ جين، لكن اتضح

أنها واحدة من شقيقاتها العديدات. كل آل بريدجرتون يتشابهون بشكل شيطاني. من مسافة بعيدة، يكاد يستحيل التمييز بينهم.

وبينما عزفت الفرقة النوتات الأخيرة لرقصتهما، أخذ غاريث ذراع جين وقادها إلى جانب الغرفة. قال وهو يمنحها نصف ابتسامة مرحة:

- "ما كنتُ لأكذب عليكِ أبدًا يا جين".

ردت:

- "بالطبع كنت ستفعل. وعلى أية حال، الأمر واضح كالشمس. عيناك تفضحانك. الوقت الوحيد الذي تبدوان فيه جادتين هو حين تكذب".

- "هذا لا يمكن أن..."

- "إنه صحيح. صدقني. أوه، مساء الخير يا آنسة بريدجرتون".

التفت غاريث بحدة ليرى هياسنث، تقف أمامهم كرؤيا من الحرير الأزرق. بدت جميلة بشكل خاص هذا المساء. لقد فعلت شيئًا مختلفًا بشعرها. لم يكن واثقًا مما هو؛ إذ قلما كان دقيق الملاحظة بما يكفي لملاحظة مثل هذه التفاصيل الدقيقة. لكنه تغير بطريقة ما. لا بد أنه أطر وجهها بشكل مختلف، لأن شيئًا ما فيها لم يبدُ كما هو تمامًا.

ربما كانت عيناها. بدتا مصممتين، حتى بالنسبة لـ هياسنث.

قالت هياسنث بإيماءة مهذبة:

- "آنسة هوتشكيس. كم هو جميل رؤيتكِ مرة أخرى".

ابتسمت جين بحرارة:

- "الليدي بريدجرتون تقيم دائمًا حفلات جميلة كهذه. أرجو أن تبلغيها تحياتي".

قالت هياسنث، مشيرة إلى أخت زوجها، الليدي بريدجرتون الحالية:

- "سأفعل. كيت هناك بجوار الشمبانيا، في حال رغبتِ في إخبارها بنفسك".

شعر غاريث بحاجبيه يرتفعان. مهما كان ما تخطط له هياسنث، فهي تريد التحدث معه على انفراد.

تمتمت جين:

– "أفهم. من الأفضل أن أذهب للتحدث معها إذن. أتمنى لكما أمسية سعيدة".

قالت هياسنث بمجرد أن أصبحا وحدهما:

– "فتاة ذكية".

قال غاريث:

– "لم تكوني لبقة تمامًا".

أجابت:

– "كلا، ولكن من ناحية أخرى، قلما أكون كذلك. إنها مهارة يجب أن يولد المرء بها، أخشى ذلك".

ابتسم:

– "الآن وقد حصلتِ عليّ لنفسكِ تمامًا، ماذا تريدين أن تفعلي بي؟"

– "ألا ترغب في السماع عن مذكرات جدتك؟"

– "بالطبع".

اقترحت:

– "هل نرقص؟"

– "أنتِ تطلبين مني؟"

راق له هذا الأمر نوعًا ما.

عبست في وجهه.

مازحها:

– "آه، ها هي ذي الآنسة بريدجرتون الحقيقية. تتألق مثل..."

قاطعته وهي تصر على كلماتها:

– "هل ترغب في الرقص معي؟"

وأدرك بدهشة أن هذا لم يكن سهلاً عليها. هياسنث بريدجرتون، التي لم تكن تعطي انطباعًا أبدًا بأنها في صراع مع أي شيء تفعله، كانت خائفة من طلب الرقص منه.

كم هذا ممتع.

قال على الفور:

- "يسعدني ذلك. هل لي أن أقودكِ إلى الساحة، أم أن هذا امتياز محفوظ لمن يطلب؟"

قالت بكل كبرياء الملكات:

- "يمكنك القيادة".

لكن حين وصلا إلى الساحة، بدت أقل ثقة بنفسها قليلاً. ورغم أنها أخفت ذلك جيدًا، كانت عيناها تجولان في الغرفة بسرعة.

سأل غاريث، وهو يطلق زفرة مستمتعة حين أدرك أنه يردد كلمات جين له بالضبط:

- "عمن تبحثين؟"

قالت هياسنث بسرعة:

- "لا أحد".

وأعادت نظراتها إليه بحدة كادت تصيبه بالدوار.

- "ما المضحك؟"

رد:

- "لا شيء، وأنتِ كنتِ تبحثين بالتأكيد عن شخص ما، رغم أنني سأجاملكِ على قدرتكِ في جعل الأمر يبدو وكأنكِ لم تكوني كذلك".

قالت وهي تنخفض في انحناءة رشيقة بينما بدأت الأوركسترا الأنغام الأولى لرقصة فالس:

- "ذلك لأنني لم أكن كذلك".

همس وهو يأخذها بين ذراعيه:

- "أنتِ كاذبة جيدة يا هياسنث بريدجرتون، لكن لستِ جيدة تمامًا كما تظنين".

بدأت الموسيقى تتهادى عبر الهواء، نغمة ناعمة ورقيقة بإيقاع ثلاثي. لطالما استمتع غاريث بالرقص، خاصة مع شريكة جذابة، لكن اتضح مع

الخطوة الأولى — لا، يجب أن يكون منصفاً، ربما ليس حتى السادسة — أن هذه لن تكون رقصة فالس عادية.

هياسنث بريدجرتون، كما لاحظ باستمتاع بالغ، كانت راقصة خرقاء.

لم يستطع غاريث إلا أن يبتسم.

لم يدرِ لِمَ وجد هذا مسليًا إلى هذا الحد. ربما لأنها كانت بارعة جدًا في كل شيء آخر تفعله؛ سمع أنها تحدت شابًا مؤخرًا في سباق خيول في هايد بارك وفازت. وكان واثقًا تمامًا من أنها لو وجدت شخصًا مستعدًا لتعليمها المبارزة، لكانت ستغرس سيفها في قلوب خصومها في وقت قصير.

لكن حين يتعلق الأمر بالرقص...

كان ينبغي أن يعلم أنها ستحاول القيادة.

قال، آملًا أن تشتتها نقطة من الحديث، إذ يبدو دائمًا أن المرء يرقص برشاقة أكبر حين لا يفكر بجدية في الأمر:

– "أخبريني يا آنسة بريدجرتون، إلى أين وصلتِ في المذكرات؟"

قالت:

– "لقد تمكنتُ من ترجمة عشر صفحات فقط منذ آخر مرة تحدثنا فيها. قد لا يبدو ذلك كثيرًا..."

قال وهو يمارس ضغطًا أكبر قليلاً على أسفل ظهرها:

– "يبدو ذلك كثيرًا جدًا".

قليلاً بعد، وربما يمكنه إجبارها... على الاستدارة...

يسارًا.

يا للراحة.

كانت أكثر رقصات الفالس إرهاقًا رقصها على الإطلاق.

قالت:

– "حسنًا، أنا لستُ طليقة اللسان، كما أخبرتك. لذا يستغرق الأمر وقتًا أطول بكثير مما لو كان بإمكاني الجلوس وقراءتها ككتاب".

قال وهو يجذبها بقوة إلى اليمين:

– "لا داعي لاختلاق الأعذار".

داست على إصبع قدمه، وهو ما كان ليعدّه عادةً انتقامًا، لكن في ظل الظروف الحالية، ظن أنه كان عرضيًا.

تمتمت ووجنتاها تكتسيان باللون الوردي:

– "آسفة. لستُ عادةً خرقاء هكذا".

عض شفته. لم يكن بوسعه الضحك عليها. ذلك سيكسر قلبها. هياسنث بريدجرتون، كما بدأ يدرك، لم تكن تحب فعل أي شيء إن لم تتقنه. وشك في أنها لم تكن تملك أدنى فكرة عن أنها راقصة كارثية، هذا إن اعتبرت دوس الأصابع شذوذًا عن القاعدة.

كما فسر ذلك لِمَ شعرت بالحاجة لتذكيره باستمرار بأنها ليست طليقة اللسان في الإيطالية. لم تكن لتتحمل أن يظنها بطيئة الفهم دون سبب وجيه. قالت:

– "اضطررتُ لعمل قائمة بالكلمات التي لا أعرفها. سأرسلها بالبريد لمربيتي السابقة. لا تزال تقيم في كنت، وأنا واثقة أنها ستكون سعيدة بترجمتها لي. لكن رغم ذلك..."

تأوهت قليلاً حين أرجحها إلى اليسار، رغماً عنها نوعًا ما.

تابعت بعناد:

– "رغم ذلك، أنا قادرة على استخلاص معظم المعنى. إنه لأمر مذهل ما يمكنك استنتاجه بثلاثة أرباع الإجمالي فقط".

علق، في الغالب لأن نوعًا من الموافقة بدا مطلوبًا:

– "أنا واثق من ذلك".

ثم سأل:

– "لماذا لا تشترين قاموسًا إيطاليًا؟ سأتحمل النفقة".

قالت:

– "لدي واحد، لكن لا أظنه جيدًا جدًا. نصف الكلمات مفقودة".

– "نصفها؟"

استدركت:

– "حسنًا، بعضها. لكن حقًا، ليست هذه هي المشكلة".

رمش، منتظرًا أن تكمل.

فعلت. بالطبع.

– "لا أظن أن الإيطالية هي لغة المؤلف الأم".

استفسر:

– "مؤلف القاموس؟"

– "نعم. إنه ليس اصطلاحيًا للغاية".

توقفت، غارقة فيما يبدو في أفكارها الغريبة التي تتسابق في ذهنها. ثم هزت كتفيها هزة صغيرة — مما تسبب في تفويتها خطوة في الفالس، ليس وكأنها لاحظت ذلك — وتابعت:

– "حقًا لا يهم. أنا أحرز تقدمًا معقولاً، حتى لو كان بطيئًا بعض الشيء. لقد وصلتُ بالفعل إلى وصولها إلى إنجلترا".

– "في عشر صفحات فقط؟"

صححت هياسنث:

– "اثنتان وعشرون في الإجمالي، لكنها لا تدون كل يوم. في الواقع، غالبًا ما تتخطى عدة أسابيع في المرة الواحدة. كرست فقرة واحدة فقط لعبور البحر — بالكاد ما يكفي للتعبير عن سعادتها بأن جدك أصيب بدوار البحر".

همس غاريث:

– "على المرء أن يقتنص سعادته حيثما استطاع".

أومأت هياسنث:

– "وأيضًا، هي، آه، امتنعت عن ذكر ليلة زفافها".

قال غاريث:

– "أعتقد أنه يمكننا اعتبار ذلك نعمة صغيرة".

ليلة الزفاف الوحيدة التي رغب في سماع عنها أقل من ليلة الجدة سانت كلير ستكون ليلة الجدة دانبري.

يا إلهي، ذلك كان ليرسله مباشرة إلى حافة الجنون.

سألت هياسنث:

– "ما الذي يجعلك تبدو متألمًا هكذا؟"

هز رأسه فقط:

– "هناك بعض الأشياء التي لا ينبغي للمرء معرفتها عن أجداده".

ابتسمت هياسنث لذلك.

احتبست أنفاس غاريث للحظة، ثم وجد نفسه يبتسم لها بالمقابل. كان هناك شيء معدٍ في ابتسامات هياسنث، شيء يجبر مرافقيها على التوقف عما يفعلونه، حتى عما يفكرون فيه، ويبتسمون لها بالمثل.

حين تبتسم هياسنث – حين تبتسم حقًا، وليست واحدة من تلك الابتسامات النصفية الزائفة التي تطلقها حين تحاول أن تكون ذكية – كان ذلك يغير وجهها. تضيء عيناها، وتبدو وجنتاها كأنهما تشعان، و...

وكانت جميلة.

من المضحك أنه لم يلاحظ ذلك من قبل. من المضحك أن أحدًا لم يلاحظ ذلك. كان غاريث يجول في لندن منذ ظهورها الأول قبل عدة سنوات، وبينما لم يسمع أحدًا يتحدث عن مظهرها بشكل غير لائق، لم يسمع أيضًا أحدًا يصفها بالجميلة.

تساءل عما إذا كان الجميع مشغولين جدًا بمحاولة مجاراة ما تقوله لدرجة تمنعهم من التوقف والنظر فعليًا إلى وجهها.

– "سيد سانت كلير؟ سيد سانت كلير؟"

نظر لأسفل. كانت تنظر إليه بتعبير نافد الصبر، وتساءل كم مرة نطقت اسمه.

قال:

– "في ظل الظروف الحالية، قد تستخدمين اسمي الأول أيضًا".

أومأت باستحسان:

– "فكرة جيدة. يمكنك بالطبع استخدام اسمي أيضًا".

قال:

– "هياسنث. إنه يليق بكِ".

شرحت:

– "كانت زهرة أبي المفضلة. هياسنث العنب. تزهر بجنون في الربيع قرب منزلنا في كنت. أول ما يظهر لونه كل عام".

قال غاريث:

– "وهي بالضبط لون عينيكِ".

أقرت:

– "صدفة سعيدة".

– "لا بد أنه كان مسرورًا".

قالت وهي تشيح بنظرها:

– "لم يعرف قط. لقد مات قبل مولدي".

قال غاريث بهدوء:

– "أنا آسف".

لم يكن يعرف آل بريدجرتون جيدًا، لكن بخلاف آل سانت كلير، بدا أنهم يحبون بعضهم البعض فعليًا.

– "كنت أعلم أنه توفي منذ بعض الوقت، لكن لم أكن أدرك أنكِ لم تعرفيه قط".

قالت بصوت خافت:

– "لا ينبغي أن يهم. لا ينبغي أن أفتقد ما لم أحصل عليه أبدًا، لكن في بعض الأحيان... يجب أن أعترف... أفتقده".

اختار كلماته بعناية:

– "إنه أمر صعب... أظن، ألا يعرف المرء والده".

أومأت، ناظرة لأسفل، ثم فوق كتفه. كان الأمر غريبًا، كما فكر، لكنه يظل محببًا نوعًا ما أنها لم ترغب في النظر إليه خلال لحظة كهذه. حتى الآن كانت محادثاتهما كلها نكات ماكرة ونميمة. كانت هذه المرة الأولى التي يقولان فيها

أي شيء ذي جوهر، أي شيء يكشف حقًا الشخص الكامن خلف الفطنة الحاضرة والابتسامة السهلة.

أبقت عينيها مثبتتين على شيء خلفه، حتى بعد أن أدارها ببراعة إلى اليسار. لم يستطع إلا أن يبتسم. كانت راقصة أفضل بكثير الآن وهي مشتتة الانتباه.

ثم التفتت عائدة، واستقرت نظراتها على وجهه بقوة وتصميم كبيرين. كانت مستعدة لتغيير الموضوع. كان ذلك واضحًا.

استفسرت:

- "هل ترغب في سماع ما تبقى مما ترجمته؟"

- "بالطبع".

قالت:

- "أعتقد أن الرقصة تنتهي. لكن يبدو أن هناك القليل من المساحة هناك".

أشارت هياسنث برأسها إلى الزاوية البعيدة من قاعة الرقص، حيث وُضعت عدة كراسي لمن أنهكتهم أقدامهم.

- "أنا واثقة أننا نستطيع تدبر بضع لحظات من الخصوصية دون أن يتطفل أحد".

اقتربت رقصة الفالس من نهايتها، وأخذ غاريث خطوة للوراء ومنحها انحناءة صغيرة.

همس وهو يمد ذراعه لتستقر يدها في ثنية مرفقه:

- "هل نمضي؟"

أومأت، وهذه المرة، تركها تقود.

الفصل السابع

انقضت عشر دقائق، فإذا بمسرح الأحداث قد انتقل إلى الرواق العريض.

لم يكن غاريث يجد في نفسه هوى لتلك المحافل الراقصة الصاخبة؛ فهي عنده محض أتون من الزحام والحرارة، ورغم ولعه برقص "الفالس"، إلا أنه ألفى نفسه يقضي جل وقته في مهاترات جوفاء مع أقوام لا يجد في صحبتهم أدنى مأربة. غير أنه، وهو يخطو وئيدا في الرواق الجانبي لـ دار بريدجيرتون، شعر بسكينة غير معهودة تغشى روحه في تلك الأمسية.

فبعد أن فرغ من رقصته مع هياسنث، انتحيا ركنا قصيا من قاعة الرقص، حيث أفضت إليه بما أنجزته في ترجمة المذكرات. ورغم تعللها بضيق الوقت، فقد قطعت شوطا محمودا، إذ بلغت في القراءة لحظة وصول إيزابيلا إلى ثرى إنجلترا. ولم يكن طالع ذلك الوصول ميمونا بحال؛ فقد زلت قدم جدته وهي تترجل من القارب الصغير الذي حملها إلى الشاطئ، فكان أول عهدها بالتراب البريطاني أن سقطت في حمأة الطين اللزج على ضفاف دوفر.

أما زوجها الجديد، فكما هو المتوقع، لم يحرك ساكنا ليمد لها يد العون.

هز غاريث رأسه عجبا، وكيف لا يعجب وقد تملكته الدهشة من بقائها في تلك البلاد وعدم فرارها عائدة إلى إيطاليا في توها ولحظتها. بيد أن هياسنث أنبأته أن رحلة العودة لم تكن لتعدها بخير؛ فقد استمطرت إيزابيلا شآبيب الرجاء من والديها ألا يكرهوها على الاقتران برجل إنجليزي، لكنهما أبيا إلا

إتمام تلك الزيجة، ولم يكن ثمة ما يشير إلى أنهما سيستقبلانها بالترحاب لو قررت الفرار من قدرها المحتوم.

ولما كان الوقوف مع آنسة غير متزوجة في ركن منزو من القاعة أمرا لا يسلم من ألسنة الوشاة، فقد ودع هياسنث فور فراغها من قصتها، وأسلمها إلى النبيل الذي يليه في قائمة رقصاتها.

وإذ أنجز مآربه من تلك الأمسية – من تحية ربة الدار، والرقص مع هياسنث، ومعرفة ما آل إليه أمر المذكرات – فقد عزم على الانصراف جملة وتفصيلا. فما زال في الليل بقية، ولا ضير من التوجه إلى ناديه الخاص أو إحدى حانات القمار.

أو ربما، كما حدثته نفسه بشيء من التوق، يمضي لرؤية خليلته التي لم يلقها منذ أمد. حسنا، لم تكن خليلة بالمعنى الحرفي؛ فـ غاريث لا يملك من المال ما يكفي لإعالة امرأة مثل ماريا على النحو الذي اعتادته، ولكن من حسن طالعه أن أحد عشاقها السابقين قد وهبها دارا أنيقة في بلومزبري، مما كفاه عناء الإنفاق عليها. ولما كان لا يسدد فواتيرها، لم تجد هي غضاضة في عدم الالتزام بالوفاء له، وهو أمر لم يكترث له قط، إذ لم يكن هو الآخر نموذجا للوفاء.

لقد مضى زمن طويل منذ لقائهما الأخير، وبات يخيل إليه أن المرأة الوحيدة التي يقضي معها وقته مؤخرا هي هياسنث، والله وحده يعلم أنه لا يجرؤ على العبث في حماها.

تمتم غاريث بكلمات الوداع لبعض معارفه عند باب القاعة، ثم انسل إلى الرواق. ويا للدهشة، فقد كان الرواق مقفرا رغم حشود المدعوين. هم بالتوجه نحو مقدمة الدار، لكنه توقف برهة؛ فالمشوار إلى بلومزبري بعيد، لا سيما في عربة أجرة، وهو ما سيضطر لاستخدامه بعد أن حضر في عربة جدته. تذكر أن آل بريدجيرتون قد خصصوا غرفة في المؤخرة ليقضي فيها الرجال مآربهم، فقرر القصد إليها.

قفل عائدا، وتجاوز باب القاعة متجها إلى عمق الرواق. خرج رجلان يتبادلان الضحك عند وصوله، فأومأ لهما بالتحية ودخل.

كان المكان عبارة عن حجرتين؛ ردهة صغيرة تتقدم المخدع الداخلي لتوفير شيء من الخصوصية. كان باب الحجرة الثانية موصدا، فأخذ غاريث يصفر بصوت خافت وهو ينتظر دوره.

لقد كان يعشق الصفير.

حبيبي يرقد وراء المحيط...

كان يترنم بالكلمات في سره وهو يرسل صفيره.

حبيبي يرقد وراء البحار...

إن جل الأغاني التي يصفر ألحانها كانت ذات كلمات لا يليق به أن يجهر بها على أية حال.

حبيبي يرقد وراء المحيط...

- "كان حريا بي أن أعلم أنه أنت."

تجمد غاريث في مكانه، ليجد نفسه وجها لوجه مع أبيه؛ ذلك الرجل الذي كان ينتظر خروجه بصبر وأناة.

أطلق غاريث عقيرته بالغناء بصوت جهوري، وهو يضفي على الخاتمة نبرة مسرحية ممعنة في التحدي:

- "فأعد إلي حبيبي..."

رأى فك والده ينقبض في خط منقبض يعبر عن الضيق؛ فقد كان البارون يمقت الغناء أكثر من مقته للصفير.

قال اللورد سانت كلير بصوت يقطر هدوءا مخادعا:

- "أعجب كيف سمحوا لك بالدخول إلى هنا."

هز غاريث كتفيه في صلف:

- "من العجيب كيف تظل دماء المرء مستترة في عروقه، حتى وإن لم تكن دماء زرقاء (أي: دماء نبيلة) خالصة." ثم رمق الرجل الأكبر بابتسامة ساخرة وأردف: "العالم كله يظن أنني سلالتك، أليس هذا الأمر هو الأكثر.."

فح هسيس البارون مقاطعا:

– "كف عن هذا! يا لله، إن مجرد النظر إليك يكفي لإثارة اشمئزازي، أما سماع صوتك فيصيبني بالغثيان."

– "من الغريب أنني لا أجد في نفسي أي تأثر بقولك هذا."

بيد أن غاريث أحس في قرارة نفسه بتبدل يطرأ عليه؛ فدقات قلبه بدأت تتسارع، واجتاحت صدره رعشة غريبة. شعر بشتات في الفكر وقلق يساور جناه، واحتاج إلى استجماع كل ذرة من ثباته ليبقي ذراعيه ساكنتين بجانبه.

كان يظن أنه قد استمرأ هذا الحال، لكن في كل مرة، يباغته هذا الشعور. كان يمني نفسه دوما بأن هذا اللقاء سيكون عابرا ولن يترك في نفسه أثرا، ولكن... هيهات!

لقد كان له أثر دائم.

والحق أن اللورد سانت كلير لم يكن أباه الحقيقي، وهذا هو مكمن الوجع؛ فهذا الرجل يملك القدرة على تحويله إلى أحمق غر، رغم أنه لا يمت إليه بصلة دم. كان غاريث يحدث نفسه مرارا وتكرارا أن الأمر لا يهمه، وأن البارون لا ينبغي أن يعنيه أكثر من أي غريب يمر به في الطريق.

لكنه كان يعني له الكثير. لم يكن غاريث يصبو إلى نيل رضاه؛ فقد نفض يده من ذلك منذ أمد بعيد، وعلاوة على ذلك، لم يرغب في ثناء رجل لا يكن له أدنى احترام.

كان ثمة شيء آخر، شيء يستعصي على البيان. ما إن يرى البارون حتى تشتعل في نفسه رغبة عارمة في إثبات ذاته، وفي فرض وجوده فرضا.

كان عليه أن يزعجه، لأن الرب يعلم كم يزعجه هذا الرجل.

هذا هو شعوره كلما التقاه، أو على الأقل حينما يكرهان على الحديث. وأدرك غاريث أن عليه قطع هذا اللقاء الآن، قبل أن يقترف أمرا قد يندم عليه.

فهذا هو ديدنه دوما؛ في كل مرة يقطع على نفسه العهود بأن يتعلم الدرس، وبأن يكون أكثر رزانة، ثم تذهب تلك الوعود أدراج الرياح. يرى والده،

فيرتد صبيا في الخامسة عشرة، لا يملك إلا الابتسامات الساخرة والسلوك الأرعن.

لكنه في هذه المرة سيبذل وسعه؛ فالمكان هو دار بريدجيرتون، وأقل ما يمكنه فعله هو تحاشي افتعال معضلة.

قال وهو يحاول تجاوزه:

– "عذرا، هلا سمحت لي بالمرور."

بيد أن اللورد سانت كلير اعترض طريقه، فاصطدم منكباهما بقوة، وقال وهو يضحك بصوت متهدج:

– "لن تقبل بك، أتعلم ذلك؟"

تصلب غاريث في مكانه وسأل:

– "عن أي شيء تتحدث؟"

– "تلك الفتاة من آل بريدجيرتون. لقد رأيتك تلهث وراءها كأنك في أثر طريدة."

للحظة، سكنت حركات غاريث. لم يكن يعلم أن والده في القاعة، وهو أمر أقضه؛ ليس لأنه يهمه، بل كان حريا به أن ينتشي فرحا لأنه استمتع بوقته دون أن تنغصه رزايا البارون.

لكنه شعر بشيء من الخديعة، وكأن البارون كان يتوارى عنه ليراقب حركاته، أو يتجسس عليه.

قال البارون متهكما:

– "أفقدت القدرة على النطق؟"

رفع غاريث حاجبه وهو يرمق باب المخدع الداخلي المفتوح، وقال ببرود:

– "ليس لدي ما أقوله، إلا إذا كنت ترغب في أن أصوب نحو الهدف من مكاني هذا."

التفت البارون، وأدرك ما يرمي إليه، فقال باحتقار:

– "إنك لفاعلها، لا ريب."

فأجابه غاريث:

- "أتعلم، أعتقد أنني سأفعل." لم يدر بخلده هذا الأمر إلا في تلك اللحظة - فقد كان قوله محض تهديد - ولكنه استشعر رغبة في الإتيان بفعل فاحش إذا كان في ذلك ما يجعل عروق والده تنفجر من الغيظ.

- "إنك كائن مقزز."

- "أنت من تولى تربيتي."

كانت تلك طعنة نجلاء أصابت مقتلا. استشاط البارون غيظا قبل أن يرد عليه:

- "ليس رغبة مني في ذلك، ولم يدر بخلدي يوما أنني سأضطر لتوريث لقبي لمثلك."

آثر غاريث الصمت؛ فقد يرمي والده بكل صنوف الكلام ليغضبه، لكنه لن يجرؤ أبدا على الاستخفاف بموت شقيقه.

قال اللورد سانت كلير بصوت خفيض:

- "لا بد أن جورج يتقلب في قبره الآن."

وعندئذ، انفرط عقد صبر غاريث. في لحظة كان واقفا في منتصف الغرفة الصغيرة وذراعاه مصلبتان بجانبه، وفي اللحظة التالية كان قد طرح والده أرضا وألصقه بالحائط، يدا تقبض على منكبه والأخرى تطوق عنقه.

فح غاريث قائلا:

- "لقد كان شقيقي."

بصق البارون في وجهه وقال:

- "لقد كان ابني."

بدأت رئة غاريث ترتجف، وشعر بضيق في الأنفاس:

- "لقد كان شقيقي." كررها وهو يحاول جاهدا أن يظل صوته ثابتا. "ربما ليس من صلبك، ولكنه من صلب أمي، ولقد أحببته."

وشعر بفداحة الفقد تنهش روحه؛ فقد ظل يندب جورج منذ يوم رحيله، ولكن الآن شعر بفجوة عميقة تتسع في داخله، ولم يدر كيف يواري سوأتها.

لم يبق له الآن إلا شخص واحد؛ جدته. هي الوحيدة التي يمكنه القول بصدق إنه يحبها، وتجادله هي الأخرى حبا بحب.

لم يدرك هذا الحقيقة من قبل، أو لعله لم يرد إدراكها. ولكن الآن، وهو يقف أمام الرجل الذي طالما دعاه "أبي" حتى بعد معرفة الحقيقة، أدرك مدى الوحدة التي تطبق على أنفاسه.

وشعر بالخزي من نفسه، ومن سلوكه، ومن الحال التي يرتد إليها في حضرة البارون.

أفلت والده فجأة، وتراجع إلى الوراء وهو يرقب البارون يستجمع أنفاسه المضطربة.

ولم تكن أنفاس غاريث بأهدأ حالا.

كان عليه الرحيل، بعيدا عن هذا المكان، بعيدا عن كل شيء.

جاءه صوت والده متهكما:

– "لن تنالها أبدا، أتعلم ذلك؟"

كان غاريث قد خطا خطوة نحو الباب، ولم يدرك أنه تحرك إلا حينما جمدته كلمات البارون في مكانه.

أردف والده موضحا:

– "الآنسة بريدجيرتون."

قال غاريث بحذر:

– "أنا لا أرغب في الآنسة بريدجيرتون."

أضحك هذا القول البارون، فقال:

– "بل ترغب، وبشدة. فهي تمثل كل ما تفتقر إليه، وكل ما لا تأمل في بلوغه يوما."

أجبر غاريث نفسه على الاسترخاء، أو هكذا تظاهر، وقال بابتسامة متغطرسة يعلم كم يمقتها والده:

– "حسنا، ثمة أمر واحد يميزها..."

إنها أنثى.

سخر والده من محاولته الهزيلة للدعابة وقال:

– "لن تقبل بك زوجا لها أبدا."

– "لا أذكر أنني سألتها ذلك."

– "هراء! لقد ظللت تلاحقها طوال الأسبوع، والكل يتحدث عن ذلك."

كان غاريث يعلم أن اهتمامه غير المعهود بآنسة رصينة قد أثار بعض الدهشة، لكنه يعلم أيضا أن الأقاويل لم تبلغ المدى الذي يزعمه والده.

ومع ذلك، شعر بنشوة سقيمة حين علم أن والده مهووس به وبتحركاته بقدر ما هو مهووس بالبارون.

قال غاريث بخفة:

– "الآنسة بريدجيرتون صديقة وفية لجدتي." واستمتع بتقلص شفتي والده عند ذكر الليدي دانبري؛ فقد كانا يتبادلان المقت، وحينما كانا يتحدثان، لم تكن الليدي دانبري لتمنحه فرصة التفوق عليها قط؛ فهي زوجة إيرل، وهو ليس سوى بارون وضيع، ولم تكن لتسمح له بنسيان تلك الحقيقة.

قال البارون مستعيدا رباطة جأشه:

– "بالطبع هي صديقة للكونتيسة، ولا ريب أن هذا هو السبب الوحيد الذي يجعلها تطيق اهتمامك."

قال غاريث وهو يحاول صرف الحديث عن هذا الموضوع:

– "عليك أن تسأل الآنسة بريدجيرتون عن ذلك." ولم يكن لينبش سر ترجمتها لمذكرات إيزابيلا؛ فـ اللورد سانت كلير قد يطالب بانتزاعها منه، وهو أمر لن يسمح به غاريث أبدا.

ولم يكن ذلك لمجرد امتلاك شيء يشتهيه والده، بل لأن غاريث كان يرغب حقا في معرفة الأسرار المكنونة في تلك الصفحات الرقيقة. أو ربما لم تكن هناك أسرار، بل محض رتابة يومية لامرأة من النبلاء اقترنت برجل لم تكن تكن له ودا.

وأيا كان الأمر، فقد أراد سماع ما سطرته بيديها.

لذا، آثر الكتمان.

قال اللورد سانت كلير بصوت خفيض:

– "بإمكانك المحاولة، ولكنهم لن يقبلوا بك أبدا. فالدماء لا تكذب، ولن تحيد عن مجراها قط."

سأله غاريث بنبرة ثابتة:

– "ماذا تعني بقولك هذا؟" فمن الصعب دائما تمييز ما إذا كان والده يهدده أم أنه محض استطراد في موضوعه المفضل: الأنساب والنبلاء.

عقد البارون ذراعيه وقال:

– "آل بريدجيرتون. لن يسمحوا لها أبدا بالاقتران بك، حتى وإن بلغت بها الحماقة حد توهم الحب."

– "هي لا..."

– "أنت جلف! أنت غبي..." صرخ البارون بكلماته.

فانطلقت الكلمات من فم غاريث قبل أن يملك كبحها:

– "لست غبيا..."

قاطعه البارون:

– "بل تسلك سلوك الحمقى، وأنت حتما لست كفؤا لفتاة من آل بريدجيرتون. وسرعان ما سينفذون إلى حقيقتك الجوفاء."

جاهد غاريث للسيطرة على أنفاسه؛ فالبارون يعشق استفزازه، ويعشق دفعه للاحتجاج كالأطفال.

وتابع اللورد سانت كلير بابتسامة تفيض رضاء عن النفس:

– "من بعض الوجوه، يبدو الأمر سؤالا يثير الفضول."

اكتفى غاريث بالنظر إليه بحدة، وقد بلغت به الغيرة مبلغا منعه من سؤاله عما يعني.

تساءل البارون متظاهرا بالتفكير:

– "أخبرني بربك، من يكون أبوك؟"

حبس غاريث أنفاسه؛ فهذه هي المرة الأولى التي يجهر فيها البارون بهذا السؤال صراحة. لقد نعته من قبل بالهجين، والوضيع، والجرو الأجرب. ونعت

والدة غاريث بأوصاف يندى لها الجبين. لكنه لم يسبق له أن طرح سؤال الأبوة بهذا الوضوح.

فجال في خاطره: هل تراه علم الحقيقة؟

قال غاريث بصوت خفيض:

– "أنت أدرى بذلك مني."

ساد صمت مطبق خيم على الأرجاء. كف غاريث عن التنفس، ولو استطاع لأوقف دقات قلبه، ولكن في نهاية المطاف لم يقل اللورد سانت كلير سوى:

– "أمك أبت أن تنطق."

رمقه غاريث بنظرة حذرة. كان صوت والده لا يزال مفعما بالمرارة، ولكن شابته نبرة من الاختبار والتحري. وأدرك غاريث أن البارون يحاول استدراجه ليعرف إن كان قد علم شيئا عن أبيه الحقيقي.

قال غاريث وهو لا يملك كبح ابتسامته:

– "إن هذا الأمر ينهش كيانك نهشا. لقد آثرت رجلا آخر عليك، وهذا يقتلك كمدا، حتى بعد مرور كل تلك السنين."

للحظة خيل إليه أن البارون سيهوي عليه بضربه، لكنه تراجع في اللحظة الأخيرة، ويداه متصلبتان بجانبه، وقال:

– "لم أكن أحب أمك."

– "لم أظن يوما أنك فعلت." رد غاريث ببرود. لم يكن الأمر يتعلق بالحب قط، بل بالكبرياء. ومع البارون، يظل الكبرياء هو المحرك الوحيد.

قال اللورد سانت كلير بصوت متهدج:

– "أريد أن أعلم. أريد أن أعرف من كان ذلك الرجل، وسأمنحك لذة الاعتراف بهذه الرغبة. لم أغفر لها خطاياها قط. أما أنت... فأنت..." ثم انطلق في ضحكة قاسية هزت أركان روح غاريث.

– "أنت هو تجسيد لخطاياها." ضحك ثانية، وبدا صوته أكثر ترويعا مع كل ثانية تمر. "لن تعلم أبدا. لن تعرف أبدا هوية الدماء التي تجري في عروقك. ولن تعلم أبدا من ذلك الرجل الذي لم يحبك بالقدر الكافي ليطالب بك."

توقف قلب غاريث عن الخفقان.

ابتسم البارون وأردف:

– "تذكر هذا جيدا في المرة القادمة التي تطلب فيها من الآنسة بريدجيرتون الرقص. فلعل دمك ليس سوى دماء ابن لمنظف مداخن." ثم هز كتفيه في صلف متعمد: "أو ربما دماء خادم. فقد كان لدينا دوما خدام أشداء في دار كلير."

كاد غاريث أن يلطمه على وجهه. لقد تاقت نفسه لذلك، وأقسم بالله أن يده كانت تحكه، واستلزم الأمر منه قدرا من ضبط النفس لم يعهد امتلاكه من قبل لكي يظل ساكنا.

قال اللورد سانت كلير وهو يتجه نحو الباب:

– "لست سوى هجين وضيع، وهذا كل ما ستكونه يوما."

فرد عليه غاريث بابتسامة تفيض قسوة:

– "أجل، ولكني هجينك أنت. ولدت في حماك، حتى وإن لم أكن من صلبك." ثم خطا نحوه حتى كاد أنفاهما يتلامسان. "أنا ملكك."

لعن البارون وابتعد، وقبض على مقبض الباب بيدين ترتجفان.

– "ألا يقتلك هذا الشعور؟"

فح البارون قائلا:

– "لا تحاول أن تتظاهر بأنك أفضل مما أنت عليه؛ فمن المؤلم حقا مراقبتك وأنت تحاول."

وقبل أن يرتد إليه طرف غاريث، انطلق البارون خارجا من الغرفة كالعاصفة.

لثوان معدودات، لم يتحرك غاريث. كان جسده يدرك حاجته للسكون المطلق، وكأن حركة واحدة قد تجعله يتفتت شظايا.

ثم—

بدأت ذراعاه تتحركان في الهواء بجنون، وأصابعه تتقلص كمخالب الغيظ. أطبق على أسنانه لئلا يصرخ، لكن الأصوات خرجت منه رغم ذلك؛ خفيضة، غائرة في الحلق.

أصوات جريحة.

لقد مقت هذا الحال. يا إلهي، لماذا؟

لماذا، لماذا، لماذا؟

لماذا لا يزال للبارون هذا السلطان عليه؟ إنه ليس أباه. لم يكن أباه يوما، وتبا لكل شيء، كان حريا بـ غاريث أن يغتبط لذلك.

وهو كذلك بالفعل؛ حينما يثوب إليه رشده، وحينما يستطيع التفكير بوضوح، يكون مغتبطا.

ولكن حينما يتواجهان، ويهمس البارون بكل مخاوف غاريث المستترة، يذهب كل ذلك سدى.

فلا يبقى إلا الألم. ولا يبقى إلا ذلك الصبي الصغير الكامن في أعماقه، الذي يحاول مرارا وتكرارا، متسائلا دوما لم لم يكن كفؤا قط في نظر الآخرين.

تمتم غاريث وهو يقتحم الباب نحو الرواق:

– "علي الرحيل." كان يحتاج للفرار، للابتعاد، لئلا يكون بين الناس.

فهو لم يكن في حالة تسمح له بمخالطة أحد. ليس للأسباب التي ساقها والده، ولكن لأنه قد...

– "سيد سانت كلير!"

رفع بصره.

فإذا هي هياسنث.

كانت واقفة في الرواق وحيدة. وبدا ضوء الشموع كأنه يثب على خصلات شعرها، مبرزا بريقا أحمر فاتنا. بدت فاتنة، وبدت بشكل ما... مكتملة.

أدرك أن حياتها مفعمة بالكمال؛ فرغم أنها لم تتزوج بعد، إلا أنها تملك عائلة تحفها، وتعرف حق المعرفة من تكون، وإلى أين تنتمي.

ولم يشعر يوما بالحسد تجاه كائن بشري كما شعر في تلك اللحظة.

سألته:

– "أأنت بخير؟"

لم ينبس ببنت شفة، ولكن ذلك لم يثن هياسنث عن المضي قدما، فقالت بصوت رقيق:

– "لقد رأيت والدك في نهاية الرواق. بدا مغتبطا، وحينما رآني، انطلق يضحك."

انغرزت أظافر غاريث في راحتي يديه.

تساءلت هياسنث:

– "لم تراه يضحك؟ أنا لا أكاد أعرفه، و..."

كان يشخص ببصره نحو نقطة خلف منكبها، لكن صمتها المفاجئ جعل عينيه ترتدان إلى وجهها.

هتفت بنعومة:

– "سيد سانت كلير؟ أأنت متأكد أن ليس ثمة خطب؟" قطبت جبينها قلقا، وهو قلق صادق لا يعرف التصنع، ثم أردفت بصوت أكثر رقة: "أقال شيئا كدر صفوك؟"

لقد أصاب والده في أمر واحد؛ هياسنث بريدجيرتون امرأة صالحة. قد تكون مزعجة، ومتحكمة، ومثيرة للضيق في كثير من الأحيان، ولكن في قرارة نفسها، حيث يكمن الجوهر، كانت صالحة.

وتناهى إلى سمعه صوت والده:

لن تنالها أبدا.

أنت لست كفؤا لها.

لن تستطيع...

هجين. هجين. هجين.

نظر إليها، تفرس في وجهها مليا، وجالت عيناه من وجهها إلى كتفيها، اللذين برزا بفتنة النحر المكشوف لثوبها. لم يكن صدرها عارما، ولكنه كان

مرفوعا، ولا ريب بفضل حيلة ثوب تبتغي الإغراء، فاستطاع لمح طرف نحرها الذي يطل من وراء الحرير الأزرق بلون الليل.

همست:

- "غاريث؟"

لم يسبق لها أن نادته باسمه المجرد من قبل. أخبرها أنها تستطيع، لكنها لم تفعل حتى تلك اللحظة. وهو موقن من ذلك.

أراد أن يلمسها.

بل أراد أن يلتهمها.

أراد أن يستأثر بها، ليثبت لنفسه أنه يضاهيها رفعة واستحقاقا، وربما ليري والده أنه ينتمي لهذا العالم، وأنه لن يفسد كل روح يمسها.

ولكن، أكثر من ذلك كله، كان ببساطة يشتهيها.

اتسعت عيناها وهو يخطو نحوها، ليمحو المسافة الفاصلة بينهما.

لم تتراجع. وافترت شفتاها، وسمع حفيف أنفاسها المتسارعة، لكنها بقيت في مكانها.

لم تقل نعم، لكنها لم تقل لا.

مد يده، وطوق خصرها بذراعه، وفي طرفة عين كانت ملتصقة بصدره. لقد أرادها. يا لله كم أرادها! كان يحتاجها، لشيء يتجاوز نداء الجسد.

وكان يحتاجها الآن.

عثرت شفتاه على شفتيها، ولم يكن في تلك القبلة شيء من تلك السجايا التي ينبغي أن تكون في اللقاء الأول. لم يكن رقيقا، ولم يكن عذبا. لم يتدرج في رقصة الإغراء ليجذبها حتى لا تستطيع الرفض.

بل لثمها فحسب. بكل ما أوتي من قوة، وأحس بيديها تلتفان حول عنقه، تتشبثان به تشبث الغريق بمرفأ النجاة، وشعر بنبضات قلبها تضطرب بين جوانحها كأنها طبول حرب تدق في صدره.

لقد كانت تريده، وربما لم تدرك كنه هذا الشعور، أو لم تعلم ما تصنع بهذا الاتقاد، لكنها كانت تريده، فخيل إليه أنه استعاد عرشا مفقودا، واسترد تيجان ملكه المسلوب.

خفقت دقات قلبه بعنفوان، وتوترت أعضاء جسده توتر أوتار القيثارة، وإذ هما ملتصقان بجدال ركن قصي، كاد نفسه ينقطع وهو يرسل أنامله لترتحل فوق جنبات خصرها، حتى بلغت منها موضعا لينا رقيقا؛ فضم قبضته عليه في رفق كي لا يروعها، وبقوة تكفي ليحفر في ذاكرته تفاصيل ذلك القوام ووزنه في كفه.

كان المشهد آية في الكمال، واستشعر استجابة جوارحها من وراء ديباج ثوبها، فتاقت نفسه لأن ينهل من معين ثغرها، وأن يجردها من حلل الدلال ليغرق معها في بحار من المآثم المستعذبة التي لا يحدها حد.

أحس بمقاومتها تذوب كذوب الجليد تحت وهج الشمس، وسمع زفرتها تتردد في جنبات فمه؛ فلقد كانت تلك القبلة أول عهدها بعالم الصبابة، وهو في ذلك من الموقنين، بيد أنها كانت تائقة متقدة الوجد، وبان له ذلك في شدة التصاق جسدها بجسده، وفي أصابعها التي تشبثت بمنكبيه تشبث المستسلم لسطوة القدر.

قال لها بصوت متهدج وهو يرتشف رحيق شفتيها:

– "بادليني اللثام بمثله."

فأجابته بصوت مكتوم:

– "سأفعل."

تراجع عنها قيد أنملة، وقال بابتسامة تفيض ثقة:

– "إنك في حاجة إلى درس أو درسين، ولكن لا تبتئسي، فسرعان ما ستبلغين في هذا الفن مبلغا عظيما."

ثم انحنى ليعيد الكرة ويغرق في لثامها مرة أخرى –ويا لله، كم كان منتشيا بذلك الوصال– ولكنها أفلتت منه ببراعة.

قبض غاريث على يدها وقال بصوت أبح:

– "هياسنث."

ثم جذبها نحوه ليعيدها إلى حضنه، لكنها انتزعت يدها منه بقوة لم يعهدها فيها.

رفع غاريث حاجبيه دهشة، يترقب منها قولا يفصح عن مكنونها، فهي هياسنث التي لا يعجزها اللسان، ولا ريب أنها ستقول شيئا.

لكنها وقفت واجمة، يرتسم على وجهها هول الصدمة وخزي النفس، ثم أتت بما لم يكن يقع في خلده أبدا؛ إذ ولت الأدبار، وفرت منه فرار القطاة من كف القناص.

الفصل الثامن

وفي صبيحة اليوم التالي، وبينما الشمسُ ترسل خيوطها الذهبية، تربعّت بطلتنا فوق عرش وسائدها تربع الملك في إيوانه. كانت المذكرات الإيطالية بجوارها، جاثمةً جمادًا لم تمسسه يدها، فقد كان فؤادها مشغولاً بما هو أدهى وأمرّ.

لقد استعادت ذكرى تلك القبلة في مخيلتها نيفًا وأربعين مرة، تجترها اجترار الواله، وتتذوقها تذوق الظامئ للماء الزلال.

والحقُّ يُقال، إنها تستعيدها الآن في هذه اللحظة عينها:

ودت هياسنث لو كانت من طينة النساء اللواتي يتلقين القبل برباطة جأش لا تتزعزع، ثم يمضين في أمسيتهن وكأن شيئًا لم يكن. تمنّت لو أنها، حين حانت اللحظة لمعاملة رجل بازدراء يستحقه، كانت الزبدة لا تذوب في فمها، وعيناها كقطع الجليد الصماء، فتصده صدًا يجمع بين الأناقة والخيلاء.

وفي خيالها الجامح، فعلت كل ذلك وأكثر.

بيد أن الواقع – وا حسرتاه – لم يكن بتلك العذوبة، ولم يجرِ على ذلك المنوال.

فحين نطق غاريث باسمها، وحاول جذبها إليه ليلثمها ثانيةً، لم يسعفها عقلها إلا بفكرة يتيمة: الفرار بجلدها.

وهو ما أكدت لنفسها – للمرة الثالثة والأربعين منذ لامست شفتاه شفتيها – أنه تصرف لا يمت لطبيعتها بصلة.

لا يمكن أن يكون كذلك. لن أسمح بأن يكون كذلك. أنا هياسنث بريدجرتون.

هياسنث.

بريدجرتون.

حريٌّ بهذا الاسم أن يكون له رنين وصدى. وقبلة يتيمة لا يمكن أن تمسخها إلى بلهاء فاقدة للحس. وفضلاً عن ذلك، لم تكن القبلة هي المشكلة. القبلة لم تضايقها. بل إن القبلة – ولنكن منصفين – كانت بديعة، وللأمانة، جاءت متأخرة عن أوانها دهرًا.

قد يحسب المرء، في عالمها وفي مجتمعها، أنها ستتيه فخرًا بعفتها، وبكونها زهرة لم يمسسها بشر، ولم يدنس ثغرها لثم. ففي النهاية، مجرد التلميح بما يخدش الحياء كفيل بأن يطوح بسمعة المرأة في مهاوي الردى.

ولكن المرء لا يبلغ الثانية والعشرين، أو موسمه الرابع في لندن، دون أن يخالجه شعور ضئيل بالنبذ لأن أحدًا لم يجرؤ حتى الآن على محاولة تقبيلها.

ولم يفعل أحد. لم تكن هياسنث تطلب أن تُغتصب، معاذ الله، لكن أحدًا لم يمل نحوها، أو يسقط نظرة ثقيلة على شفتيها، وكأنه يراود نفسه عن ذلك.

لم يحدث ذلك حتى ليلة البارحة. لم يحدث حتى جاء غاريث سانت كلير.

كانت غريزتها الأولى أن تنتفض ذعرًا. فرغم ما عُرف عن غاريث من مجون، لم يُبدِ أي رغبة في توسيع نطاق سمعته كفاسق ليشملها. فالرجل لديه مغنية أوبرا يخبئها في بلومزبري، فما حاجته إليها هي بحق السماء؟

ولكن بعد ذلك...

حسنًا، يا للهول، ما زالت لا تدرك كيف آلت الأمور إلى ما آلت إليه. في لحظة كانت تسأله إن كان به وعكة – فقد بدا عليه الاضطراب الشديد، وكان جليًا أنه خاض مشادة كلامية مع والده، رغم محاولاتها للفصل بينهما – وفي اللحظة التالية كان يحدق فيها بحدة جعلت أوصالها ترتعد. بدا ممسوسًا، بل بدا وكأن نيران الوجد تأكله.

بدا وكأنه يريد أن يلتهمها التهامًا.

ومع ذلك، لم تستطع هياسنث أن تنفض عن كاهلها شعورًا بأنه لم يقصد تقبيلها حقًا. وأن أي امرأة كانت لتصادفه في الردهة كانت لتفي بالغرض.

خاصة بعد أن أخبرها ضاحكًا أنها بحاجة إلى تحسين أدائها.

لم تظن أنه قصد القسوة، ولكن كلماته كانت كوقع السوط، أدمت كبرياءها.

قالت لنفسها، مقلدة صوته بنبرة باكية:

– "بادليني القبلة... بادليني القبلة".

ألقت بنفسها مرة أخرى على الوسائد.

– "لقد بادلته!"

يا إلهي، ماذا يقول ذلك عنها إن كان الرجل لا يستطيع حتى التمييز حينما تحاول مبادلته القبلة؟

وحتى لو لم تكن تبلي بلاءً حسنًا – وهياسنث لم تكن مستعدة تمامًا للاعتراف بذلك – فقد بدا الأمر وكأنه شيء ينبغي أن يأتي بالفطرة، وبالتأكيد شيء ينبغي أن يأتي بفطرتها هي. حسنًا، وماذا كان يُنتظر منها أن تفعل؟ أن تشهر لسانها كسيف مسلول؟ لقد وضعت يديها على كتفيه. لم تقاوم بين ذراعيه. ما الذي كان عليها فعله أيضًا لتشير إلى أنها كانت مستمتعة؟

بدا لها الأمر لغزًا مجحفًا بؤسًا. الرجال يريدون نساءهم عفيفات لم يمسسهن بشر، ثم يسخرون منهن لقلة خبرتهن.

إنه مجرد... إنه مجرد...

عضت هياسنث شفتها، مرتاعة من مدى قربها من ذرف الدموع.

الأمر مجرد أنها ظنت أن قبلتها الأولى ستكون سحرًا خالصًا. وظنت أن السيد المعني سيخرج من اللقاء، إن لم يكن منبهرًا، فعلى الأقل مسرورًا قليلًا بأدائها.

لكن غاريث سانت كلير كان على سجيته المعتادة في السخرية، وكرهت هياسنث أنها سمحت له بجعلها تشعر بالضآلة.

همست، وكلماتها تسبح في فضاء الغرفة الخالية:

– "إنها مجرد قبلة... مجرد قبلة. لا تعني شيئًا".

لكنها كانت تعلم، حتى وهي تحاول جاهدة أن تكذب على نفسها، أنها كانت أكثر من مجرد قبلة.

أكثر بكثير، وكثير.

على الأقل هذا ما كانت عليه بالنسبة لها. أغمضت عينيها في عذاب. يا إلهي، بينما كانت هي ممددة على فراشها تفكر وتفكر، ثم تعيد التفكير والتدبير، كان هو على الأرجح يغط في نوم عميق كالطفل الغرير. الرجل قبّل...

حسنًا، لم ترغب في التكهن بعدد النساء اللواتي قبّلهن، لكن العدد بالتأكيد كان كافيًا لجعلها تبدو كأكثر الفتيات سذاجة في لندن.

كيف ستواجهه؟ وكان لزامًا عليها مواجهته. إنها تترجم مذكرات جدته، بحق السماء. ولو حاولت تجنبه، سيبدو الأمر مفضوحًا للغاية.

وآخر ما كانت تريده هو السماح له برؤية مدى الاضطراب الذي سببه لها. هناك أشياء كثيرة في الحياة تحتاجها المرأة أكثر من الكبرياء، لكن هياسنث رأت أنه طالما كانت الكرامة خيارًا متاحًا، فمن الأجدر بها التمسك بها.

وفي غضون ذلك...

التقطت مذكرات جدته. لم تنجز فيها أي عمل ليوم كامل. كانت قد قطعت اثنتين وعشرين صفحة فقط؛ وكان هناك ما لا يقل عن مائة أخرى في الانتظار.

نظرت إلى الكتاب القابع مغلقًا في حجرها. افترضت أنها تستطيع إعادته. في الواقع، ربما يجدر بها إعادته. سيكون جزاءً عسيرا عليه أن يُضطر للبحث عن مترجم آخر بعد سلوكه في الليلة السابقة.

لكنها كانت تستمتع بالمذكرات. الحياة لا تلقي بالكثير من التحديات في طريق الشابات ذوات التربية الرفيعة. وبصراحة، سيكون من اللطيف أن تتمكن من القول إنها ترجمت كتابًا كاملاً من الإيطالية. وسيكون من اللطيف أيضًا أن تفعله حقًا.

تلمست هياسنث العلامة الصغيرة التي استخدمتها لحفظ مكانها وفتحت الكتاب. كانت إيزابيلا قد وصلت لتوها إلى إنجلترا في منتصف الموسم، وبعد أسبوع واحد فقط في الريف، جرها زوجها الجديد إلى لندن، حيث كان متوقعًا منها – دون التمتع بطلاقة الإنجليزية – أن تخالط المجتمع وتقيم الولائم كما يليق بمقامها.

وما زاد الطين بلة، أن والدة اللورد سانت كلير كانت تقيم في كلير هاوس، وكان جليًا سخطها من اضطرارها للتخلي عن منصبها كسيدة للمنزل.

قطبت هياسنث جبينها وهي تواصل القراءة، تتوقف بين الفينة والأخرى للبحث عن كلمة غير مألوفة. كانت البارونة الأرملة تتدخل في شؤون الخدم، وتنقض أوامر إيزابيلا، وتجعل الوضع غير مريح لمن قبلوا البارونة الجديدة سيدةً للمنزل.

بالتأكيد لم يجعل هذا الزواج يبدو مغريًا للغاية. ودونت هياسنث ملاحظة ذهنية بأن تحاول الزواج من رجل بلا أم.

تمتمت وهي تتألم لقراءة أحدث مشادة – شيء يتعلق بإضافة بلح البحر إلى قائمة الطعام، رغم حقيقة أن المحار يسبب لـ إيزابيلا طفحًا جلديًا:

– "ارفعي رأسك يا إيزابيلا".

وتابعت مخاطبة الكتاب:

– "عليكِ أن توضحي من هو صاحب الأمر والنهي. أنتِ..."

عبست، وهي تنظر إلى أحدث تدوينة. هذا لا يستقيم. لِمَ تتحدث إيزابيلا عن طفلها bambino؟

قرأت هياسنث الكلمات ثلاث مرات قبل أن تفكر في النظر إلى التاريخ في الأعلى. Ottobre, 1766 24.

1766؟ مهلاً دقيقة...

قلبت صفحة واحدة للخلف.

1764.

لقد تخطت إيزابيلا عامين. لِمَ قد تفعل ذلك؟

نظرت هياسنث بسرعة عبر الصفحات العشرين التالية أو نحو ذلك.

1766... 1769... 1769... 1770... 1774...

تمتمت هياسنث:

– "لستِ كاتبة مذكرات متفانية جدًا".

لا عجب أن إيزابيلا تمكنت من حشر عقود في مجلد نحيل واحد؛ إذ كانت كثيرًا ما تترك سنوات تمر بين التدوينة والأخرى.

عادت هياسنث إلى المقطع المتعلق بالطفل، تواصل ترجمتها الشاقة. كانت إيزابيلا قد عادت إلى لندن، هذه المرة دون زوجها، وهو أمر لم يبدُ أنه يضايقها قيد أنملة. وبدا أنها اكتسبت قدرًا من الثقة بالنفس، وإن كان ذلك ربما نتيجة لوفاة الأرملة، الذي خمنت هياسنث أنه حدث قبل عام.

ترجمت هياسنث، ودونت الكلمات على الورق: لقد وجدتُ المكان المثالي. هو لن أبدًا... عبست. لم تعرف بقية الجملة، لذا وضعت بعض الشرطات على ورقتها للإشارة إلى عبارة غير مترجمة وانتقلت لما بعدها. قرأت: هو لا يظن أنني ذكية بما يكفي. ولذا فهو لن يشك...

قالت هياسنث وهي تعتدل في جلستها:

– "يا إلهي".

قلبت صفحة المذكرات، تقرأها بأسرع ما يمكن، ومحاولاتها للترجمة المكتوبة قد نُسيت تمامًا. قالت بإعجاب:

– "يا إيزابيلا... يا لكِ من ثعلبة ماكرة!"

بعد ساعة أو نحو ذلك، وقبيل لحظة من طرق غاريث لباب هياسنث.

استنشق غاريث نفسًا عميقًا، يستجمع شتات شجاعته ليلف أصابعه حول المطرقة النحاسية الثقيلة التي تستقر على الباب الأمامي للمنزل رقم خمسة، شارع بروتون، ذلك المنزل الصغير الأنيق الذي اشترته والدة هياسنث بعد أن تزوج ابنها الأكبر وتولى أمر بريدجرتون هاوس.

ثم حاول ألا يشعر بالاشمئزاز التام من نفسه لشعوره بالحاجة إلى الشجاعة في المقام الأول. ولم تكن شجاعة تلك التي يحتاجها حقًا. فبحق الله، هو لم يكن خائفًا. كان الأمر... حسنًا، لم يكن رعبًا تمامًا. كان...

أطلق أنينًا. في كل حياة، ثمة لحظات يفعل المرء أي شيء لتأجيلها. وإن كان ذلك يعني أنه أقل رجولة لأنه لم يكن يشعر برغبة في التعامل مع هياسنث بريدجرتون... حسنًا، كان على استعداد تام لنعت نفسه بالأحمق الصبياني.

بصراحة، لم يكن يعرف أحدًا يرغب في التعامل مع هياسنث بريدجرتون في لحظة كهذه.

أدار عينيه، وقد نفد صبره مع نفسه تمامًا. لا ينبغي أن يكون هذا صعبًا. لا ينبغي أن يشعر بالتوتر. تباً، الأمر ليس وكأنه لم يقبّل أنثى من قبل واضطر لمواجهتها في اليوم التالي.

إلا أن...

إلا أنه لم يقبّل قط أنثى مثل هياسنث، واحدة: أ) لم تُقبَّل من قبل، وب) لديها كل سبب لتوقع أن القبلة قد تعني شيئًا أكثر.

ناهيك عن ج) أنها كانت هياسنث.

لأن المرء لا يمكنه حقًا التقليل من حجم هذا الأمر. إن كان هناك شيء واحد تعلمه في الأسبوع الماضي، فهو أن هياسنث تختلف تمامًا عن أي امرأة عرفها قط.

على أية حال، لقد جلس في المنزل طوال الصباح، ينتظر الطرد الذي سيصل بالتأكيد، بصحبة خادم يرتدي زي الخدم الرسمي، ليعيد مذكرات جدته. لا يمكن لـ هياسنث أن ترغب في ترجمتها الآن، ليس بعد أن أهانها بتلك الطريقة الفادحة الليلة الماضية.

ليس – كما فكر بشيء من الدفاعية – أنه قصد إهانتها. في الحقيقة، لم يقصد شيئًا سواء سلبًا أو إيجابًا. هو بالتأكيد لم يقصد تقبيلها. الفكرة لم تخطر بباله حتى، وفي الواقع كان يظن أنها ما كانت لتخطر بباله لولا أنه كان

فاقد التوازن تمامًا، ثم وجدها هناك بطريقة ما، في الردهة مباشرة، وكأنها استُحضرت بالسحر.

مباشرة بعد أن عيّره والده بشأنها.

ما الذي كان يُتوقع منه أن يفعله بحق الجحيم؟

ولم يكن الأمر يعني شيئًا. كان ممتعًا – بالتأكيد أكثر متعة مما كان ليتخيل – لكنه لم يعنِ شيئًا.

لكن النساء يملن للنظر إلى هذه الأمور نظرة سيئة، وتعبير وجهها حين أنهت الأمر لم يكن مشجعًا للغاية.

إن كان هناك أي شيء، فقد بدت مرتاعة.

مما جعله يشعر وكأنه أحمق. لم يسبق له أن أثار اشمئزاز امرأة بقبلته من قبل.

وقد تضخم الأمر كله لاحقًا في تلك الليلة، حين سمع أحدهم يسألها عنه، فتجاهلت الأمر بضحكة، قائلة إنها ما كانت لتستطيع رفض الرقص معه؛ فهي صديقة مقربة جدًا لجدته.

وهو ما كان صحيحًا، وكان يتفهم بالتأكيد أنها كانت تحاول حفظ ماء وجهها، حتى لو لم تكن تعلم أنه يستطيع سماعها، لكن رغم ذلك، كان صدى كلماتها قريبًا جدًا من كلمات أبيه لدرجة أنه لم يستطع منع نفسه من التأثر.

أطلق زفرة. لم يعد هناك مجال للتأجيل. رفع يده، ناويًا الإمساك بالمطرقة...

وكاد يفقد توازنه تمامًا حين انفتح الباب على مصراعيه.

قالت هياسنث، وهي تنظر إليه بعينين نافدتي الصبر:

– "بحق السماء، أما كنت تنوي طرق الباب أبدًا؟"

– "هل كنتِ تراقبينني؟"

– "بالطبع كنتُ أفعل. غرفتي بالأعلى مباشرة. أستطيع رؤية الجميع".

وتساءل: لِمَ لم يفاجئه ذلك؟

أضافت:

– "وقد أرسلتُ لك رسالة".

ووقفت جانبًا، مشيرة له بالدخول.

– "بصرف النظر عن السلوك الأخير، يبدو أنك تتمتع بلياقة كافية لعدم رفض طلب مكتوب مباشر من سيدة".

قال:

– "آه... نعم".

كان هذا كل ما استطاع التفكير فيه، وهو يواجه إعصار الطاقة والنشاط الذي يقف أمامه.

لِمَ لم تكن غاضبة منه؟ ألم يكن من المفترض أن تكون غاضبة؟

قالت هياسنث:

– "علينا أن نتحدث".

غمغم:

– "بالطبع. يجب أن أعتذر..."

قالت بأسلوب قاطع:

– "ليس بشأن ذلك".

ثم نظرت لأعلى، وتعبير وجهها يتأرجح بين التفكير والاستياء:

– "رغم أنك... بالتأكيد يجب أن تعتذر".

– "نعم، بالطبع، أنا..."

قاطعت:

– "لكن ليس هذا سبب استدعائي لك".

لو كان الأمر يخضع لقواعد اللياقة، لكان قد كتف ذراعيه.

– "هل ترغبين في أن أعتذر أم لا؟"

نظرت هياسنث يمينًا ويسارًا في الردهة، ووضعت إصبعًا على شفتيها مع همسة ناعمة:

– "صه".

تساءل غاريث بصوت مسموع:

- "هل نُقلتُ فجأة إلى مجلد من رواية الآنسة باتروورث والبارون المجنون؟"

عبست هياسنث في وجهه، وهي نظرة بدأ يدرك أنها تمثل جوهر شخصيتها. كان عبوسًا، نعم، ولكن مع لمحة - لا، اجعلها ثلاث لمحات - من نفاد الصبر. كانت نظرة امرأة قضت حياتها تنتظر الناس ليلحقوا بها.

قالت وهي تشير نحو باب مفتوح:

- "في الداخل".

غمغم:

- "كما تشائين يا سيدتي".

وليس له أن يشتكي من عدم الاضطرار للاعتذار.

تبعها إلى ما اتضح أنها غرفة جلوس، مزينة بذوق رفيع بظلال من اللون الوردي والكريمي. كانت رقيقة جدًا وأنثوية جدًا، وتساءل غاريث في قرارة نفسه عما إذا كانت قد صُممت لغرض وحيد هو جعل الرجال يشعرون بضخامة جثثهم وضيق صدرهم.

أشارت له هياسنث بالتوجه إلى منطقة جلوس، فذهب، يراقبها بفضول وهي تناور الباب بحذر حتى أغلقته في معظمه. رمق غاريث الفتحة ذات الأربع بوصات باستمتاع. مضحك كيف أن مساحة صغيرة كهذه يمكن أن تعني الفرق بين اللياقة والكارثة.

قالت هياسنث:

- "لا أريد أن يُسمع حديثنا".

رفع غاريث حاجبيه في تساؤل، منتظرًا أن تجلس على الأريكة. وحين اطمأن إلى أنها لن تقفز وتتفحص خلف الستائر بحثًا عن متنصت، جلس في كرسي هيبلووايت ذي مسندين يقع في الزاوية المقابلة للأريكة.

قالت وعيناها تلمعان بالإثارة:

- "أحتاج أن أخبرك عن المذكرات".

رمش بدهشة:

– "لن تعيديها إذن؟"

– "بالطبع لا. أنت لا تظن أنني..."

توقفت، ولاحظ أن أصابعها كانت تعبث بنسيج تنورتها الأخضر الناعم في حركات لولبية. لسبب ما، سرّه ذلك. لقد شعر بالارتياح لأنها لم تكن غاضبة منه لتقبيلها – ومثل أي رجل، كان سيبذل قصارى جهده لتجنب أي نوع من المشاهد النسائية الهستيرية. لكن في الوقت ذاته، لم يكن يرغب في أن تكون غير متأثرة تمامًا.

يا إلهي، إنه يُقبّل أفضل من ذلك.

قالت، وبدت تشبه نفسها مرة أخرى:

– "كان يجدر بي إعادة المذكرات. حقًا، كان يجدر بي إجبارك على العثور على شخص آخر لترجمتها. أنت لا تستحق أقل من ذلك".

وافقها بتواضع:

– "بالتأكيد".

رمقته بنظرة تقول إنها لا تقدر مثل هذه الموافقة الشكلية. قالت، كما لا يمكن لأحد سواها أن يقول:

– "ومع ذلك..."

مال غاريث للأمام. بدا ذلك متوقعًا.

كررت:

– "ومع ذلك، يروق لي تمامًا قراءة مذكرات جدتك، ولا أرى سببًا لحرمان نفسي من تحدٍ ممتع لمجرد أنك تصرفت بتهور".

لزم غاريث الصمت، بما أن محاولته الأخيرة للموافقة قوبلت بفتور. لكن سرعان ما اتضح أنه كان متوقعًا منه التعليق هذه المرة، لذا سارع بالقول:

– "بالطبع لا".

أومأت هياسنث باستحسان، ثم أضافت:

– "وفضلاً عن ذلك..." – وهنا مالت للأمام، وعيناها الزرقاوان اللامعتان تتألقان بالإثارة – "لقد أصبح الأمر مثيرًا للاهتمام للتو".

انقلب شيء ما في معدة غاريث. هل اكتشفت هياسنث سر مولده؟ لم يخطر بباله حتى أن إيزابيلا ربما عرفت الحقيقة؛ إذ كان اتصالها بابنها قليلاً جدًا، ونادرًا ما زارتهم.

لكن إن كانت تعلم، فربما تكون قد دونت ذلك.

سأل بحذر:

– "ماذا تعنين؟"

التقطت هياسنث المذكرات، التي كانت موضوعة على طاولة جانبية قريبة. قالت، وهي تشع إثارة بكامل هيئتها:

– "جدتك كان لديها سر".

فتحت الكتاب – كانت قد وضعت علامة عند صفحة بعلامة مرجعية أنيقة – ومدته، مشيرة بسبابتها إلى جملة في منتصف الصفحة وهي تقول:

– "Diamanti... Diamanti".

نظرت لأعلى، عاجزة عن كبح ابتسامة مبتهجة:

– "أتدرك ما يعنيه ذلك؟"

هز رأسه:

– "للأسف لا".

– "الماس يا غاريث. إنها تعني الماس".

وجد نفسه ينظر إلى الصفحة، رغم أنه لا يمكن أن يفهم الكلمات.

– "عذرًا؟"

– "جدتك كانت تملك مجوهرات يا غاريث. ولم تخبر جدك عنها قط".

انفرجت شفتاه:

– "ما الذي تقولينه؟"

– "جدتها جاءت للزيارة بعد وقت قصير من ولادة والدك. وأحضرت معها طاقمًا من المجوهرات. خواتم، على ما أظن. وسوارًا. ولم تخبر إيزابيلا أحدًا قط".

– "ماذا فعلت بها؟"

– "خبأتها".

كانت هياسنث تكاد تقفز من الأريكة الآن.

– "خبأتها في كلير هاوس، هنا في لندن تمامًا. كتبت أن جدك لم يكن يحب لندن كثيرًا، لذا ستكون الفرصة أقل في أن يكتشفها هنا".

أخيرًا، بدأ بعض من حماس هياسنث يتسرب إليه. ليس كثيرًا – لم يكن ليسمح لنفسه بالتحمس الزائد لما قد ينتهي به المطاف كمطاردة سراب. لكن حماسها كان معديًا، وقبل أن يدرك ذلك، كان يميل للأمام، وبدأ قلبه يخفق أسرع قليلاً. سأل:

– "ما الذي تقولينه؟"

قالت، وكأنها تكرر شيئًا نطقته خمس مرات بالفعل، بكل الصيغ الممكنة:

– "أقول إن تلك المجوهرات لا تزال هناك على الأرجح. آه!"

توقفت فجأة، والتقت عيناها بعينيه بحدة مفاجئة ومربكة.

– "إلا إذا كنت تعلم بشأنها بالفعل. هل هي في حوزة والدك؟"

قال غاريث مفكرًا:

– "كلا. لا أظن ذلك. على الأقل، لم يتم إخباري بذلك قط".

– "أرأيت؟ يمكننا..."

قاطعها:

– "لكن نادرًا ما يتم إخباري بأي شيء. والدي لم يعتبرني يومًا موضع ثقته".

للحظة اكتست عيناها نظرة تعاطف، لكن سرعان ما داس عليها حماسها الذي يشبه حماس القراصنة. قالت بحماس:

– "إذن هي لا تزال هناك. أو على الأقل هناك فرصة جيدة جدًا أنها كذلك. علينا الذهاب لإحضارها".

– "ماذا... نحن؟"

يا للكارثة.

لكن هياسنث كانت غارقة في حماسها لدرجة أنها لم تلاحظ تشديده على الكلمة. قالت، وقد أصبح واضحًا ارتياحها التام لاستخدام اسمه الأول:

– "فكر فقط يا غاريث، قد يكون هذا الحل لكل مشاكلك المالية".

تراجع للخلف:

– "ما الذي يجعلك تظنين أن لدي مشاكل مالية؟"

سخرت:

– "آه، أرجوك. الجميع يعلم أن لديك مشاكل مالية. أو إن لم تكن لديك، فستكون. والدك راكم ديونًا تمتد من هنا إلى نوتنغهامشير ذهابًا وإيابًا".

توقفت، ربما لالتقاط أنفاسها، ثم قالت:

– "كلير هول تقع في نوتنغهامشير، أليس كذلك؟"

– "نعم، بالطبع، ولكن..."

– "صحيح. حسنًا. أنت سترث تلك الديون، كما تعلم".

– "أنا أدرك ذلك".

– "إذن ما هي الطريقة الأفضل لضمان استقرارك المالي من تأمين مجوهرات جدتك قبل أن يجدها اللورد سانت كلير؟ لأننا نعلم كلينا أنه سيبيعها وينفق عوائدها".

قال غاريث بصوت هادئ:

– "يبدو أنك تعرفين الكثير عن والدي".

قالت بسرعة:

– "هراء. لا أعرف شيئًا عنه سوى أنه يمقتك".

ابتسم غاريث ابتسامة خفيفة، مما فاجأه. لم يكن هذا موضوعًا يمتلك فيه عادةً الكثير من حس الدعابة. لكن مرة أخرى، لم يجرؤ أحد قط على طرحه بمثل هذه الصراحة من قبل.

تابعت هياسنث وهي تهز كتفيها:

– "لا أستطيع التحدث نيابة عنك، لكن لو كنت أمقت شخصًا، يمكنك أن تكون واثقًا من أنني سأبذل قصارى جهدي للتأكد من أنه لن يحصل على كنز من المجوهرات".

غمغم غاريث:

– "كم هذا سلوك مسيحي قويم منكِ".

رفعت حاجبًا:

– "لم أدعِ قط أنني نموذج للخير والنور".

قال غاريث وهو يشعر بشفتيه ترتجفان بابتسامة:

– "كلا. كلا، أنتِ بالتأكيد لم تفعلي".

صفقت هياسنث بيديها، ثم وضعتهما على حجرها. نظرت إليه بترقب. وقالت، بمجرد أن اتضح أنه ليس لديه تعليق آخر:

– "حسنًا إذن، متى سنذهب؟"

ردد:

– "نذهب؟"

قالت بنفاد صبر:

– "للبحث عن الماس. ألم تكن تستمع لأي شيء قلته؟"

فجأة راودت غاريث رؤية مرعبة لما يجب أن يكون عليه الحال داخل عقلها. كانت ترتدي الأسود، بوضوح، و– يا إلهي – بالتأكيد بملابس الرجال أيضًا. وستصر على الأرجح على إنزال نفسها من نافذة غرفتها باستخدام ملاءات معقودة.

قال بحزم:

– "نحن لن نذهب إلى أي مكان".

قالت:

– "بالطبع سنفعل. يجب أن تحصل على تلك المجوهرات. لا يمكنك أن تدع والدك يأخذها".

– "أنا سأذهب".

– "لن تتركني خلفك".

كان ذلك تقريرًا، لا سؤالاً. ولم يكن غاريث ليتوقع غير ذلك منها.

قال غاريث:

– "إذا حاولتُ اقتحام كلير هاوس – وذلك احتمال كبير – سيتعين عليّ فعل ذلك في جنح الليل".

– "حسنًا، بالطبع".

يا إلهي، ألا تكف هذه المرأة عن الحديث أبدًا؟ توقف، منتظرًا للتأكد من أنها انتهت. وأخيرًا، بتظاهر كبير بالصبر المبالغ فيه، أنهى حديثه:

– "أنا لن أجرّكِ في أرجاء المدينة عند منتصف الليل. انسي، للحظة، أمر الخطر، الذي أؤكد لكِ أنه وفير. لو قُبض علينا، سأكون ملزمًا بالزواج منكِ، ولا يسعني إلا افتراض أن رغبتكِ في تلك النتيجة تعادل رغبتي تمامًا".

كان خطابًا مبالغًا فيه، وكانت نبرته متعجرفة ومتحذلقة إلى حد ما، لكنه أتى بالنتيجة المرجوة، مجبرًا إياها على إغلاق فمها لفترة كافية لفرز البنية المعقدة لجمله.

لكنها فتحته مرة أخرى، وقالت:

– "حسنًا، لن تضطر لجرّي".

ظن غاريث أن رأسه قد ينفجر.

– "يا إلهي أيتها المرأة، هل كنتِ تستمعين لأي شيء قلته؟"

قالت:

– "بالطبع كنتُ أستمع. لي أربعة إخوة يكبرونني سنًا، ولديّ من المراس ما يكفي لتمييز الرجل المتعجرف المتفيهق حين تقع عليه عيناي".

– "آه، رحماك يا إلهي..."

أمالت جذعها للأمام، ورفعت أحد حاجبيها بثقة تكاد تكون مربكة، وقالت:

– "أنتَ، يا سيد سانت كلير، لا تفكر بصفاء ذهن. أنت بحاجة إليّ".

تمتم بصوت خافت:

- "حاجتي إليكِ كحاجتي إلى دُمّلٍ متقيح".

قالت هياسنث، وهي تضغط الكلمات ضغطًا بين أسنانها:

- "سأتظاهر بأن وقري قد أصاب أذني فلم أسمع ذلك. لأنني لو فعلت غير ذلك، لما مالت نفسي لمساعدتك في مسعاك. وإن لم أساعدك..."

- "هل لديكِ مغزى تريدين الوصول إليه؟"

رمقته بنظرة باردة:

- "أنتَ لستَ شخصًا عاقلاً بالقدر الذي كنتُ أحسبه".

- "وللمفارقة العجيبة، أنتِ عاقلة بالضبط بالقدر الذي حسبته".

قالت وهي تشير بسبابتها نحوه بطريقة منافية تمامًا للياقة السيدات:

- "سأتظاهر بأنني لم أسمع ذلك أيضًا. يبدو أنك تناسيتَ أنه من بيننا نحن الاثنين، أنا الوحيدة التي تقرأ الإيطالية. ولا أرى كيف سيتسنى لك العثور على المجوهرات دون عوني".

انفرجت شفتاه، وحين نطق، كان صوته منخفضًا، هادئًا بدرجة مرعبة تقريبًا:

- "هل تحجبين المعلومات عني؟"

قالت هياسنث، إذ لم تطاوعها نفسها على الكذب عليه، حتى وإن كان يستحق ذلك:

- "بالطبع لا. لا يزال لديّ بعض الشرف. كنتُ أحاول فحسب أن أوضح أنك ستحتاجني هناك، في الدار. معرفتي باللغة ليست كاملة. ثمة كلمات قد تكون خاضعة للتأويل، وربما أحتاج لرؤية الغرفة فعليًا قبل أن أتمكن من الجزم بما كانت تتحدث عنه بالضبط".

ضيّق عينيه.

هتفت وهي تلتقط الكتاب بسرعة، وتقلب صفحة، ثم أخرى، قبل أن تعود للأصل:

- "الأمر حق، أقسم لك! إنه هنا، انظر؟ Armadio. قد تعني خزانة، وقد تعني دولاب ملابس، أو..."

توقفت وابتلعت ريقها. كانت تكره الاعتراف بأنها ليست واثقة تمامًا مما تتحدث عنه، حتى لو كان هذا القصور هو السبيل الوحيد لضمان مكان لها بجانبه حين يذهب للبحث عن المجوهرات.

قالت، عاجزة عن إخفاء الضيق في نبرتها:

– "إن كنتَ مصرًا على المعرفة، فلستُ متيقنة تمامًا مما تعنيه. ليس بدقة، هذا ما أعنيه".

أضافت ذلك لأن الحقيقة هي أنها كانت تملك فكرة جيدة نوعًا ما. ولم يكن من شيمتها الاعتراف بعيوب لا تملكها.

يا إلهي، إنها تعاني ما يكفي مع العيوب التي تملكها بالفعل.

سألها:

– "لِمَ لا تبحثين عنها في قاموسك الإيطالي؟"

كذبت قائلة:

– "إنها غير مدرجة".

لم تكن كذبة فادحة تمامًا. القاموس قد أدرج عدة ترجمات محتملة، وهو بالتأكيد ما يكفي لـ هياسنث لتدعي بصدق فهمًا غير دقيق.

انتظرت أن يتكلم — ربما لم تنتظر طويلاً كما كان ينبغي، لكن الصمت بدا وكأنه دهر. ولم تستطع التزام الصمت.

– "يمكنني، إن شئت، أن أكتب لمربيتي السابقة وأطلب تعريفاً أكثر دقة، لكنها ليست أكثر المراسلين جدارة بالاعتماد عليها..."

– "ماذا تعنين؟"

أقرت هياسنث:

– "أعني أنني لم أكتب لها منذ ثلاث سنوات. رغم أنني واثقة تمامًا من أنها ستهب لنجدتي الآن. الأمر فقط أنني لا أعلم مدى انشغالها أو متى قد تجد الوقت للرد — آخر ما سمعته أنها أنجبت توأمًا..."

– "لِمَ لا يفاجئني هذا؟"

– "إنه الحق، والله وحده يعلم كم سيستغرقها الأمر للرد. التوائم يتطلبون قدرًا غير عادي من العمل، أو هكذا قيل لي، و..."

خفت صوتها وتلاشى حجمه حين اتضح أنه لا يستمع إليها. اختلست نظرة إلى وجهه وأكملت على أية حال، غالبًا لأنها كانت قد فكرت في الكلمات بالفعل، ولم يكن هناك طائل كبير من عدم قولها:

– "حسنًا، لا أظن أنها تملك الوسائل لاستئجار مربية أطفال".

لاذ غاريث بالصمت لما بدا وكأنه وقت طويل لا ينتهي قبل أن يقول أخيرًا:

– "إن صدق قولكِ، وكانت المجوهرات لا تزال مخبأة — وهذا ليس يقينًا، نظرًا لأنها خبأتها..."

ارتفعت عيناه قليلاً للأعلى وهو يجري العملية الحسابية:

– "... منذ أكثر من ستين عامًا، فإنها ستبقى في مكانها حتمًا حتى نحصل على ترجمة دقيقة من مربيتك".

سألت هياسنث، وهي تشعر برأسها كله يتحرك للأمام وللأسفل من فرط عدم التصديق:

– "أيمكنك الانتظار؟ أيمكنك حقًا الانتظار؟"

– "ولِمَ لا؟"

– "لأنها هناك. لأن..."

قطعت حديثها، عاجزة عن فعل شيء سوى التحديق فيه وكأنه مجنون. كانت تعلم أن عقول الناس لا تعمل بالطريقة ذاتها. ولقد تعلمت منذ زمن بعيد أن عقل أي شخص بالكاد يعمل بالطريقة التي يعمل بها عقلها. لكنها لم تتخيل أن أحدًا يمكنه الانتظار وهو يواجه أمرًا كهذا.

يا إلهي، لو كان الأمر بيدها، لكانوا يتسلقون جدار كلير هاوس هذه الليلة.

قالت هياسنث وهي تميل للأمام:

– "فكر في الأمر. إذا عثر هو على تلك المجوهرات بين الآن وأي وقت تجد فيه الفرصة للذهاب للبحث عنها، فإنك لن تغفر لنفسك أبدًا ما حييت".

لم يقل شيئًا، لكنها أدركت أنها أخيرًا نفذت إليه.

وتابعت:

– "ناهيك عن أنني لن أسامحك أبدًا لو حدث ذلك".

اختلست نظرة إليه. بدا غير متأثر بتلك الحجة تحديدًا.

انتظرت هياسنث في هدوء بينما كان يفكر فيما يجب فعله. كان الصمت فظيعًا. بينما كانت تسترسل في الحديث عن المذكرات، تمكنت من نسيان أنه قبلها، وأنها استمتعت بذلك، وأنه – فيما يبدو – لم يستمتع. كانت تظن أن لقاءهما التالي سيكون محرجًا وغير مريح، لكن مع وجود هدف ومهمة، شعرت بأنها استعادت ذاتها المعهودة، وحتى لو لم يصطحبها معه للعثور على الماس، افترضت أنها لا تزال مدينة لـ إيزابيلا بالشكر على ذلك.

لكن رغم كل شيء، ظنت أنها ستموت حتمًا لو تركها خلفه. أو أنها ستقتله.

شبكت يديها معًا، تخفيهما في ثنايا تنورتها. كانت إيماءة عصبية، ومجرد حقيقة أنها تفعل ذلك جعلتها أكثر توترًا. كرهت أنها متوترة، وكرهت أنه يجعلها متوترة، وكرهت اضطرارها للجلوس هناك وعدم النطق بكلمة بينما يقلب هو خياراتها. لكن خلافًا للاعتقاد السائد، كانت تعرف أحيانًا متى تغلق فمها، وكان واضحًا أنه لا يوجد شيء آخر يمكنها قوله لترجيح كفته بطريقة أو بأخرى. إلا ربما...

لا، حتى هي لم تكن مجنونة بما يكفي لتهدد بالذهاب بمفردها.

سأل غاريث:

– "ماذا كنتِ تنوين قوله؟"

– "عذرًا؟"

مال للأمام، وعيناه الزرقاوان حادتان وثابتتان:

– "ماذا كنتِ تنوين قوله؟"

– "ما الذي يجعلك تظن أنني كنت سأقول شيئًا؟"

– "استطعتُ رؤية ذلك في وجهك".

أمالت رأسها إلى الجانب:

– "أتعرفني جيدًا إلى هذا الحد؟"

– "رغم ما قد يبدو عليه الأمر من رعب، يبدو أنني أفعل".

راقبته وهو يعود بظهره إلى مقعده. ذكرها بإخوتها وهو يتململ في الكرسي الصغير جدًا؛ كانوا دائمًا يشتكون من أن غرفة جلوس والدتها مفروشة لتلائم الإناث ضئيلات الحجم. لكن هنا انتهى التشابه. لم يمتلك أي من إخوتها الجرأة لربط شعره للخلف في ذيل بتلك الطريقة العابثة، ولم ينظر إليها أحدهم قط بتلك الحدة زرقاء العينين التي جعلتها تنسى اسمها.

بدا وكأنه يبحث في وجهها عن شيء ما. أو ربما كان يحاول فقط إخضاعها بنظراته، منتظرًا أن تنهار تحت الضغط.

عضت هياسنث شفتها السفلى؛ لم تكن قوية بما يكفي للحفاظ على صورة مثالية لرباطة الجأش. لكنها تمكنت من إبقاء ظهرها مستقيمًا، وذقنها مرفوعًا، وربما الأهم من ذلك، إبقاء فمها مغلقًا بينما يتدبر خياراته.

مرت دقيقة كاملة. حسنًا، ربما لم تكن أكثر من عشر ثوانٍ، لكنها بدت كدقيقة. وأخيرًا، لأنها لم تعد تطيق صبرًا، قالت (ولكن بصوت خافت للغاية):

– "أنت بحاجة إليّ".

هبطت نظراته إلى السجاد للحظة قبل أن تعود إلى وجهها.

– "إذا اصطحبتكِ..."

هتفت وهي تقاوم بالكاد الرغبة في القفز واقفة:

– "آه، شكرًا لك!"

قال وصوته صارم بشكل غير معهود:

– "قلتُ إذا اصطحبتكِ".

صمتت هياسنث على الفور، ناظرة إليه بتعبير مطيع على النحو المناسب.

كرر وعيناه تثقبان عينيها:

– "إذا اصطحبتكِ، أتوقع منكِ اتباع أوامري".

– "بالطبع".

– "سنمضي في الأمر كما أرى أنا مناسبًا".

ترددت. فكرر :

– "هياسنث".

قالت بسرعة، إذ ساورها شعور بأنه إن لم تفعل، سيلغي الأمر برمته في التو واللحظة:

– "بالطبع. ولكن إن كانت لدي فكرة جيدة..."

– "هياسنث".

أضافت بسرعة:

– "فيما يتعلق بحقيقة أنني أفهم الإيطالية وأنت لا".

كانت النظرة التي رماها بها منهكة بقدر ما كانت صارمة.

قالت أخيرًا:

– "ليس عليك أن تفعل ما أطلبه، فقط استمع".

قال مع تنهيدة:

– "حسنًا جدًا. سنمضي في الأمر ليلة الاثنين".

اتسعت عينا هياسنث دهشة. بعد كل الضجة التي أثارها، لم تتوقع منه أن يختار الذهاب بهذه السرعة. لكنها لم تكن لتعترض.

وافقت قائلة:

– "ليلة الاثنين".

وكاد صبرها ينفد من فرط الترقب.

الفصل التاسع

في ليلة الاثنين، بطلنا، الذي قضى شطرًا كبيرًا من حياته في غيابات الطيش والتهور، يكتشف الشعور الغريب نوعًا ما لكونه العضو الأكثر تعقلاً في ثنائي.

قرر غاريث، وهو يتسلل إلى الجهة الخلفية لمنزل هياسنث، أن هناك أسبابًا جمة تدعوه للشك في سلامة قواه العقلية.

أولاً: الوقت قد تجاوز منتصف الليل.

ثانيًا: سيكونان بمفردهما تمامًا.

ثالثًا: هما ذاهبان إلى منزل البارون لـ...

رابعًا: لارتكاب جريمة سرقة.

وإذا ما تحدثنا عن الأفكار الطائشة، فهذه الفكرة تتربع على عرشها بلا منازع.

ولكن لا، بطريقة ما تمكنت من إقناعه بالأمر، وها هو ذا، ضاربًا عرض الحائط بكل أسباب الحكمة، مستعدًا لقيادة آنسة ذات تربية رفيعة خارج منزلها، في جنح الليل، وعلى الأرجح نحو الخطر.

ناهيك عن أنه لو تناهى الخبر إلى مسامع أحد، فإن آل بريدجرتون سيجعلونه يمثل أمام قس قبل أن يتمكن من التقاط أنفاسه، وسيُكبّلان ببعضهما البعض مدى الحياة.

ارتعدت أوصاله. فكرة أن تكون هياسنث بريدجرتون رفيقة دربه مدى الحياة... توقف للحظة، يرمش مندهشاً. حسناً، لم تكن الفكرة مروعة في الواقع، ولكن في الوقت ذاته، كانت تترك الرجل يشعر بقلق بالغ وعميق.

كان يعلم أنها تظن أنها هي من أقنعته بفعل ذلك، وربما ساهمت إلى حد ما في قراره، لكن الحقيقة هي أن رجلاً في وضع غاريث المالي لم يكن بوسعه أن يترفع عن فرصة كهذه. لقد ذهل قليلاً من تقييم هياسنث الصريح لوضعه المالي. دعك للحظة من أن مثل هذه الأمور لا تُعتبر من أحاديث اللياقة (لم يكن ليتوقع منها الالتزام بمفاهيم اللياقة المعتادة على أية حال). لكنه لم تكن لديه أدنى فكرة أن حالة شؤونه كانت معلومة للعامة بهذا الشكل.

كان ذلك مقلقًا، حقًا.

ولكن ما كان أكثر إلحاحًا، وما كان يدفعه حقًا للبحث عن المجوهرات الآن، بدلاً من الانتظار حتى تحصل هياسنث على ترجمة أفضل للمذكرات، هو الفكرة اللذيذة بأنه قد ينتزع الماس فعليًا من تحت أنف والده.

كان من الصعب تفويت فرصة كهذه.

تسلل غاريث بمحاذاة الجزء الخلفي لمنزل هياسنث نحو مدخل الخدم، الواقع في الخلف، قبالة الإسطبلات. كانا قد اتفقا على اللقاء هناك في تمام الواحدة والنصف، ولم يساوره شك في أنها ستكون جاهزة وفي انتظاره، مرتدية كما أمرها، ملابس سوداء بالكامل.

وبالفعل، ها هي ذي، تمسك بالباب الخلفي مواربًا بوصة واحدة، وتختلس النظر من خلال الشق.

قالت وهي تنزلق للخارج:

– "أنت في الموعد تمامًا".

حدق فيها بعدم تصديق. لقد أخذت أمره على محمل الجد وارتدت السواد من قمة رأسها إلى أخمص قدميها. إلا أنه لم تكن هناك تنورة تلتف حول قدميها. بدلاً من ذلك، كانت ترتدي سروالاً وصديرية.

كان يعلم أنها ستفعل ذلك. كان يعلم، ومع ذلك، لم يستطع كبح جماح دهشته.

قالت هياسنث، مفسرة صمته تفسيرًا صحيحًا:

– "بدا ذلك أكثر عقلانية من الفستان. وفضلاً عن ذلك، أنا لا أملك أي شيء أسود خالصًا. لم يسبق لي الحداد قط، والحمد لله".

اكتفى غاريث بالتحديق. بدأ يدرك أن هناك سببًا لعدم ارتداء النساء للسراويل. لم يدرِ من أين حصلت على زيها – ربما كان يخص أحد إخوتها في شبابه. كان يعانق جسدها بطريقة فاضحة للغاية، محددًا منحنياتها بأسلوب كان غاريث يفضل حقًا ألا يراه.

لم يكن يريد أن يعرف أن هياسنث بريدجرتون تملك قوامًا شهيًا. لم يكن يريد أن يعرف أن ساقيها طويلتان جدًا بالنسبة لقامتها الضئيلة نوعًا ما، أو أن وركيها مستديران برفق وأنهما يتمايلان بطريقة ساحرة حين لا يكونان مخفيين تحت طيات تنورة حريرية.

كان يكفي سوءًا أنه قبّلها. لم يكن بحاجة لأن يرغب في فعل ذلك مرة أخرى.

تمتم وهو يهز رأسه:

– "لا أصدق أنني أفعل هذا".

يا إلهي، لقد بدا صوته مثل "عصا يابسة"، مثل كل أولئك الأصدقاء العقلاء الذين جرّهم إلى المتاعب في شبابه.

بدأ يظن أنهم كانوا يعلمون حقًا ما يتحدثون عنه.

نظرت إليه هياسنث بعينين متهمتين:

– "لا يمكنك التراجع الآن".

قال بتنهيدة:

– "ما كنتُ لأحلم بذلك".

على الأرجح ستطارده المرأة بهراوة إن فعل.

– "هيا، لننطلق قبل أن يضبطنا أحد هنا".

أومأت، ثم تبعته عبر بارلو بليس. كان كلير هاوس يقع على بعد أقل من ربع ميل، ولذا رسم غاريث مسارًا لهما سيرًا على الأقدام، ملتزمين، كلما أمكن، بالشوارع الجانبية الهادئة حيث تقل احتمالية أن يلمحهما أحد أفراد الطبقة الراقية عائدًا بعربة من حفلة ما.

همست هياسنث وهما يقتربان من الزاوية:

– "كيف علمتَ أن والدك لن يكون في المنزل هذا المساء؟"

– "عذرًا؟"

نظر حول الزاوية، متأكدًا من خلو الطريق.

كررت:

– "كيف علمتَ أن والدك لن يكون في المنزل؟ لقد فوجئتُ بمعرفتك لأمر كهذا. لا أستطيع تخيل أنه يطلعك على جدوله".

صرّ غاريث على أسنانه، متفاجئًا بفقاعة الغيظ التي أثارها سؤالها بداخله. تمتم:

– "لا أعلم. أنا فقط أعلم".

كان أمرًا مزعجًا للغاية، في الواقع، أنه كان دائمًا مدركًا لتحركات والده، لكن على الأقل كان يمكنه أن يجد بعض الرضا في معرفة أن البارون كان مصابًا بالداء نفسه.

قالت هياسنث:

– "آه".

وكان هذا كل ما قالته. وهو أمر لطيف. خارج عن المألوف، لكنه لطيف.

أشار لها غاريث بالتبعية بينما قطعا المسافة القصيرة صعودًا في هاي هيل، وأخيرًا وصلا إلى شارع دوفر، الذي يؤدي إلى الزقاق خلف كلير هاوس.

همست هياسنث وهما يتسللان نحو الجدار الخلفي:

– "متى كانت آخر مرة جئت فيها إلى هنا؟"

سأل بفظاظة:

– "من الداخل؟ عشر سنوات. لكن إن حالفنا الحظ، فإن تلك النافذة..."

أشار إلى فتحة في الطابق الأرضي، بعيدة قليلاً عن متناول أيديهم.

– "... سيظل مزلاجها مكسورًا".

أومأت بتقدير:

– "كنت أتساءل كيف سندخل".

لزم كلاهما الصمت للحظة، ناظرين إلى النافذة.

سألت هياسنث:

– "أعلى مما تذكرت؟"

لكن بالطبع، لم تنتظر إجابة قبل أن تضيف:

– "من الجيد أنك أحضرتني معك. يمكنك رفعي للأعلى".

نقل غاريث بصره منها إلى النافذة ثم عاد إليها. بدا الأمر خاطئًا بطريقة ما أن يرسلها إلى المنزل أولاً. لم يفكر في هذا الأمر حين خطط لدخوله.

قالت هياسنث بنفاد صبر:

– "أنا لن أرفعك للأعلى. لذا ما لم يكن لديك صندوق مخبأ في مكان ما، أو ربما سلم صغير..."

زمجر غاريث تقريبًا وهو يصنع لها درجة بيديه:

– "فقط اذهبي".

لقد فعل هذا من قبل، مرات عديدة. لكن الأمر كان مختلفاً تمامًا مع هياسنث بريدجرتون التي تحتك بجسده مقارنة بأحد رفاق مدرسته.

سأل وهو يرفعها:

– "أيمكنك الوصول؟"

جاء الرد:

– "ممم-همم".

نظر غاريث للأعلى. مباشرة إلى مؤخرتها. قرر الاستمتاع بالمنظر طالما لم تكن لديها فكرة أنها توفره له.

همست:

– "أحتاج فقط لإدخال أصابعي تحت الحافة".

قال، مبتسمًا للمرة الأولى طوال الليلة:

– "تفضلي".

استدارت فورًا:

– "لِمَ يبدو صوتك فجأة هادئًا وموافقًا هكذا؟"

سألته بريبة.

– "فقط أقدّر فائدتك".

– "أنا..."

زمت شفتيها معًا.

– "أتعلم، لا أظن أنني أثق بك".

وافقها:

– "بالتأكيد لا ينبغي عليكِ ذلك".

راقبها وهي تهز النافذة، ثم ترفعها للأعلى وتفتحها.

قالت، وبدا صوتها منتصرًا حتى من خلال همسها:

– "فعلتها!"

منحها إيماءة تقدير. كانت لا تطاق إلى حد ما، لكن بدا من العدل إعطاء الفضل لأهله. قال:

– "سأدفعك للأعلى. يجب أن تكوني قادرة على..."

لكنها كانت قد دخلت بالفعل. لم يستطع غاريث إلا أن يتراجع خطوة للخلف إعجابًا. هياسنث بريدجرتون كانت رياضيّة بالفطرة بوضوح.

أو لصة محترفة.

ظهر وجهها في النافذة المفتوحة. همست:

– "لا أظن أن أحدًا سمع شيئًا. هل يمكنك الصعود بمفردك؟"

أومأ:

– "طالما النافذة مفتوحة بالفعل، فلا مشكلة".

لقد فعل هذا من قبل، عدة مرات، حين كان تلميذًا يعود للمنزل في العطلات. كان الجدار الخارجي مصنوعًا من الحجر، وكانت هناك بضع نقاط

خشنة، مع نتوءات طويلة بما يكفي لحشر قدمه. أضف إلى ذلك تلك العقدة البارزة التي يمكنه الإمساك بها بيده...

كان في الداخل في أقل من عشرين ثانية.

قالت هياسنث وهي تنظر مرة أخرى من النافذة:

– "أنا معجبة".

قال وهو ينفض الغبار عن نفسه:

– "أنتِ تعجبين بأشياء غريبة".

هزت كتفيها:

– "أي شخص يمكنه إحضار الزهور".

– "هل تقولين إن كل ما يحتاجه الرجل للفوز بقلبك هو تسلق مبنى؟"

نظرت مرة أخرى من النافذة:

– "حسنًا، سيتعين عليه فعل أكثر قليلاً من هذا. طابقان، على أقل تقدير".

هز رأسه، لكنه لم يستطع إلا أن يبتسم.

– "قلتِ إن المذكرات ذكرت غرفة مزينة بظلال من اللون الأخضر؟"

أومأت:

– "لم أكن واثقة تمامًا من المعنى. ربما كانت غرفة جلوس. أو ربما غرفة مكتب. لكنها ذكرت نافذة صغيرة مستديرة".

قرر غاريث:

– "مكتب البارونة. إنه في الطابق الثاني، متفرع من غرفة النوم مباشرة".

كانت تهمس، لكن حماسها لا يزال يرن في صوتها:

– "بالطبع! هذا يبدو منطقيًا تمامًا. خاصة إذا أرادت إخفاء الأمر عن زوجها. كتبت أنه لم يكن يزور غرفها قط".

قال غاريث بهدوء:

– "سنصعد الدرج الرئيسي. احتمالية سماعنا أقل. الدرج الخلفي قريب جدًا من مساكن الخدم".

أومأت موافقة، وتسللا معًا عبر المنزل. كان هادئًا، تمامًا كما توقع غاريث. كان البارون يعيش بمفرده، وحين يكون خارجًا، يخلد الخدم للنوم مبكرًا.

باستثناء واحد. توقف غاريث فجأة، محتاجًا للحظة لإعادة التقييم. كبير الخدم سيكون مستيقظًا؛ فهو لا ينام أبدًا طالما كان اللورد سانت كلير لا يزال متوقعًا عودته وقد يحتاج للمساعدة.

حرك شفتيه لـ هياسنث:

– "من هذا الطريق".

وعاد أدراجه ليسلك مسارًا مختلفًا. لا يزالان سيأخذان الدرج الرئيسي، لكنهما سيذهبان عبر الطريق الطويل للوصول إليه.

تبعت هياسنث قيادته، وبعد دقيقة كانا يتسللان صعودًا على الدرج. سحبها غاريث إلى الجانب؛ فالدرجات كانت دائمًا تصدر صريرًا في المنتصف، وشك كثيرًا في أن والده يملك الأموال لإصلاحها.

بمجرد وصولهما لردهة الطابق العلوي، قاد هياسنث إلى مكتب البارونة. كانت غرفة صغيرة غريبة، مستطيلة بنافذة واحدة وثلاثة أبواب، واحد للردهة، وواحد لغرفة نوم البارونة، والأخير لغرفة ملابس صغيرة كانت تُستخدم غالبًا للتخزين نظرًا لوجود منطقة ملابس أكثر راحة متصلة مباشرة بغرفة النوم.

أشار غاريث لـ هياسنث بالدخول، ثم دلف خلفها، مغلقًا الباب بعناية، ويده تقبض بإحكام على المقبض وهو يديره.

أُغلق دون صوت نقرة. أطلق زفرة.

همس وهو يسحب الستائر للسماح بدخول قليل من ضوء القمر:

– "أخبريني بالضبط ما الذي كتبته".

همست:

– "قالت إنه في الـ أرماديو. وهو ما يعني خزانة على الأرجح. أو ربما مجموعة أدراج. أو..."

وقعت عيناها على خزانة تحف طويلة ولكن ضيقة. كانت مثلثة الشكل، محشورة في إحدى الزوايا الخلفية. كان الخشب داكنًا وغني اللون، وكانت تقف على ثلاثة أرجل رفيعة، تاركة حوالي قدمين من الفراغ تحت قاعدتها.

همست هياسنث بحماس:

– "هذه هي. لا بد أن تكون هي".

كانت قد عبرت الغرفة قبل أن تتاح لـ غاريث فرصة التحرك، وبحلول الوقت الذي انضم إليها، كانت قد فتحت أحد الأدراج وتبحث فيه.

قالت عابسة:

– "فارغ".

ركعت وسحبت الدرج السفلي. فارغ أيضًا. نظرت إلى غاريث وقالت:

– "أتظن أن أحدهم أزال مقتنياتها بعد وفاتها؟"

قال:

– "لا فكرة لدي".

جذب باب الخزانة جذبة خفيفة وفتحه. فارغ أيضًا.

وقفت هياسنث، واضعة يديها على وركيها وهي تتفحص الخزانة.

– "لا أستطيع تخيل ما يمكن أن يكون أيضًا..."

تلاشت كلماتها وهي تمرر أصابعها على النقوش الزخرفية بالقرب من الحافة العلوية.

اقترح غاريث، وهو يقطع المسافة إلى المكتب في خطوتين واسعتين:

– "ربما المكتب".

لكن هياسنث كانت تهز رأسها:

– "لا أظن ذلك. ما كانت لتسمي المكتب أرماديو. لكانت سمته سكريفانيا".

تمتم غاريث وهو يسحب الأدراج لفحص محتوياتها:

– "لا يزال به أدراج".

همست هياسنث:

– "هناك شيء بشأن هذه القطعة. تبدو متوسطية الطراز نوعًا ما، ألا تظن ذلك؟"

نظر غاريث لأعلى، وقال ببطء وهو ينهض واقفًا:

– "إنها كذلك".

قالت هياسنث، ورأسها يميل قليلاً إلى الجانب وهي تقيّم الخزانة:

– "إذا أحضرت هذا من إيطاليا، أو إذا أحضرته جدتها في زيارتها..."

أكمل غاريث لها:

– "فمن المنطقي أن تعلم بوجود حجرة سرية".

قالت هياسنث وعيناها تلمعان بالإثارة:

– "و... زوجها لن يعلم".

أعاد غاريث ترتيب المكتب بسرعة وعاد إلى خزانة التحف. أمرها:

– "تراجعي".

ولف أصابعه حول الحافة السفلية ليتمكن من سحبها بعيدًا عن الجدار. كانت ثقيلة، أثقل بكثير مما تبدو، ولم يتمكن من تحريكها سوى بضع بوصات، مسافة كافية فقط ليمرر يده على الظهر.

همست هياسنث:

– "هل تشعر بشيء؟"

هز رأسه. لم يستطع الوصول بعيدًا جدًا، لذا هبط على ركبتيه وحاول تحسس اللوح الخلفي من الأسفل.

سألت هياسنث:

– "أي شيء هناك؟"

هز رأسه مرة أخرى:

– "لا شيء. أحتاج فقط لـ..."

تجمدت حركته حين مرت أصابعه عبر نتوء خشبي صغير مستطيل الشكل.

سألت وهي تحاول النظر حول الخلف:

– "ما هو؟"

قال وهو يمد ذراعه نصف بوصة أبعد:

– "لستُ واثقًا. إنه مقبض من نوع ما، ربما رافعة".

– "أيمكنك تحريكه؟"

قال لاهثًا تقريبًا:

– "أحاول".

كان المقبض بعيدًا عن متناوله تقريبًا، واضطر للالتواء والتقلب لمجرد الإمساك به بين أصابعه. كانت الحافة الأمامية السفلية للخزانة تنغرس بشكل مؤلم في عضلات ذراعه العليا، ورأسه ملتوٍ بشكل غير مريح إلى الجانب، وخده يضغط على باب الخزانة.

إجمالاً، لم تكن الوضعية الأكثر رشاقة.

– "ماذا لو فعلتُ أنا هذا؟"

حشرت هياسنث نفسها بجوار الخزانة وزلقت ذراعها حول الخلف. عثرت أصابعها على المقبض بسهولة.

أفلت غاريث يده على الفور وسحب ذراعه من تحت الخزانة.

قالت بشيء من التعاطف:

– "لا تقلق، لم يكن بإمكانك إقحام ذراعك هنا. لا توجد مساحة كبيرة".

قال:

– "لا يهمني أيٌّ منا يمكنه الوصول للمقبض".

– "لا يهمك؟ آه".

هزت كتفيها.

– "حسنًا، أنا أهتم".

قال:

– "أعلم".

– "ليس أن الأمر مهم حقًا بالطبع، ولكن..."

قاطعها:

– "هل تشعرين بشيء؟"

هزت رأسها:

– "لا يبدو أنه يتحرك. جربته للأعلى والأسفل، ومن الجانب للجانب".

– "ادفعيه للداخل".

– "هذا لا يجدي نفعًا أيضًا. إلا إذا..."

احتبست أنفاسها.

سأل غاريث بإلحاح:

– "ماذا؟"

نظرت إليه، وعيناها تلمعان حتى في ضوء القمر الخافت:

– "لقد التوى. وشعرت بشيء ينقر".

– "هل هناك درج؟ هل يمكنك سحبه للخارج؟"

هزت هياسنث رأسها، وتجعد فمها في تعبير عن التركيز وهي تحرك يدها على اللوح الخلفي للخزانة. لم تستطع العثور على أي شقوق أو فتحات. ببطء، انزلقت للأسفل، مثنية ركبتيها حتى وصلت يدها للحافة السفلية. ثم نظرت للأسفل. قطعة صغيرة من الورق كانت ملقاة على الأرض.

سألت:

– "هل كانت هذه هنا من قبل؟"

لكن الكلمات كانت مجرد رد فعل؛ كانت تعلم أنها لم تكن موجودة.

هبط غاريث على ركبتيه بجانبها:

– "ما هي؟"

قالت وهي تبسط قطعة الورق الصغيرة بأيدٍ مرتجفة:

– "هذه. أظن أنها سقطت من مكان ما حين أدرتُ المقبض".

وهي لا تزال على يديها وركبتيها، تحركت حوالي قدمين لتلتقط الورقة شعاع القمر الضيق المتدفق عبر النافذة. جثم غاريث بجانبها، جسده دافئ وصلب وقريب بشكل يطغى على الحواس وهي تلمس الورقة الهشة لفتحها.

سأل، وأنفاسه تداعب عنقها وهو يميل نحوها:

- "ماذا تقول؟"

- "لـ-لستُ واثقة".

رمشت، مجبرة عينيها على التركيز على الكلمات. كان الخط بوضوح خط إيزابيلا، لكن الورقة كانت قد طُويت وأعيد طيها عدة مرات، مما جعل قراءتها صعبة.

- "إنها بالإيطالية. أظن أنها قد تكون دليلاً آخر".

هز غاريث رأسه:

- "توقع من إيزابيلا أن تحول هذا إلى مطاردة فاخرة".

- "هل كانت ماكرة جدًا إذن؟"

- "كلا، لكنها مغرمة بالألعاب بشكل مفرط".

عاد إلى الخزانة.

- "لستُ متفاجئًا أن تملك قطعة كهذه، بحجرة سرية".

راقبت هياسنث وهو يمرر يده على الجانب السفلي للخزانة.

قال بتقدير:

- "ها هي ذي".

سألت وهي تتحرك لجانبه:

- "أين؟"

أخذ يدها وأرشدها إلى بقعة نحو الخلف. بدت قطعة من الخشب وقد دارت قليلاً، بما يكفي فقط للسماح لقصاصة من الورق بالانزلاق والسقوط على الأرض.

همس:

- "هل تشعرين بها؟"

أومأت، ولم تكن واثقة مما إذا كانت تشير إلى الخشب، أم حرارة يده فوق يدها. كانت بشرته دافئة، وخشنة قليلاً، وكأنه كان بالخارج دون قفازاته. لكن في الغالب كانت يده كبيرة، تغطي يدها بالكامل. شعرت هياسنث بأنها محاطة، مبتلعة بالكامل.

ويا إلهي، كانت مجرد يده.

قالت بسرعة، توّاقة لأي شيء يجبر عقلها على التركيز على شيء آخر:

– "يجب أن نعيد هذا إلى مكانه".

ساحبة يدها من يده، مدت يدها وأدارت الخشب عائدًا لمكانه. بدا من غير المحتمل أن يلاحظ أحد التغيير في الجانب السفلي للخزانة، خاصة بالنظر إلى أن الحجرة السرية بقيت غير مكتشفة لأكثر من ستين عامًا، لكن رغم ذلك، بدا من الحكمة ترك المشهد كما وجداه.

أومأ غاريث موافقًا، ثم أشار لها بالابتعاد وهو يدفع الخزانة عائدة نحو الجدار. سأل:

– "هل وجدتِ أي شيء مفيد في الملاحظة؟"

– "الملاحظة؟ آه، الملاحظة. ليس بعد. بالكاد أستطيع قراءة شيء بضوء القمر فقط. هل تظن أنه سيكون من الآمن إشعال..."

توقفت. كان لزامًا عليها ذلك. كان غاريث قد أطبق يده بإحكام لا يلين على فمها. بعينين واسعتين، نظرت إلى وجهه. كان يضع إصبعًا على شفتيه ويشير برأسه نحو الباب.

ثم سمعت هياسنث ذلك. حركة في الردهة. حركت شفتيها:

– "والدك؟"

بمجرد أن أزال يده. لكنه لم يكن ينظر إليها.

نهض غاريث، وعلى أقدام حذرة وصامتة تحرك إلى الباب. وضع أذنه على الخشب، وبعد ذلك، بلمح البصر، تراجع بسرعة للخلف، ونفض رأسه إلى اليسار.

كانت هياسنث بجانبه في لحظة، وقبل أن تدرك ما يحدث، كان قد سحبها عبر باب إلى ما بدا أنها خزانة كبيرة مليئة بالملابس. كان الهواء حالك السواد، ولم يكن هناك متسع للحركة. تراجعت هياسنث حتى اصطدمت بما بدا أنه ثوب مطرز، وتراجع غاريث حتى اصطدم بها.

لم تكن واثقة من أنها تعرف كيف تتنفس.

وجدت شفتاه أذنها، وشعرت أكثر مما سمعت:

– "لا تنبسي بكلمة".

انفتح الباب الذي يربط المكتب بالردهة بنقرة، وصدحت خطوات ثقيلة عبر الأرضية.

حبست هياسنث أنفاسها. هل كان والد غاريث؟

سمعت صوتًا ذكوريًا يقول:

– "هذا غريب".

بدا الصوت قادمًا من اتجاه النافذة، و...

يا إلهي. لقد تركا الستائر مسحوبة.

أمسكت هياسنث بيد غاريث وعصرتها بقوة، وكأن ذلك قد ينقل له هذه المعلومة بطريقة ما.

أياً كان من في الغرفة، فقد خطى بضع خطوات ثم توقف. مرعوبة من احتمال الإمساك بها، مدت هياسنث يدها بحذر خلفها، محاولة قياس عمق الخزانة. لم تلمس يدها جدارًا آخر، فتلوت بين ثوبين وتموضعت خلفهما، ثم شدّت يد غاريث شدّة خفيفة قبل أن تتركها، ليتمكّن من أن يفعل مثلها.

كانت قدماها، بلا شك، ما تزالان ظاهرتين، تطلّان من تحت ذيول الفساتين، لكن على الأقل—إن فُتح باب الخزانة—لن يكون وجهها مباشرة في مستوى النظر.

سمعت هياسنث صوت باب يُفتح ويُغلق، ولكن بعد ذلك تحركت الخطوات عبر السجاد مرة أخرى. كان من الواضح أن الرجل في الغرفة قد ألقى نظرة للتو داخل غرفة نوم البارونة، التي أخبرها غاريث أنها متصلة بالمكتب الصغير.

ابتلعت هياسنث ريقها بصعوبة. إذا كان قد أخذ الوقت لتفقد غرفة النوم، فإن الخزانة ستكون التالية لا محالة. توغلت أكثر إلى الخلف، زاحفة بنفسها حتى اصطدم كتفها بالجدار. كان غاريث هناك بجوارها تمامًا، ثم جذبها نحوه، محركًا إياها إلى الزاوية قبل أن يغطي جسدها بجسده.

كان يحميها. يدرأ عنها الأنظار بحيث إذا فُتح باب الخزانة، سيكون جسده هو الوحيد المرئي.

سمعت هياسنث الخطوات تقترب. كان مقبض الباب مرتخيًا ومخشخشاً، وقد أصدر قعقعة حين حطت عليه يد.

تشبثت بـ غاريث، قابضة على طيات معطفه الجانبية. كان قريبًا، قريبًا بشكل فاضح، وظهره يضغط عليها بقوة لدرجة أنها استطاعت الشعور بطول قامته بالكامل، من ركبتيها إلى كتفيها.

وكل ما بينهما.

أكرهت نفسها على التنفس بانتظام وهدوء. كان هناك شيء ما في وضعها، ممزوجًا بشيء ما في ظرفها — كان مزيجًا من الخوف والوعي، وذلك القرب الحار لجسده. شعرت بشعور غريب، مبهم، يكاد يكون وكأنها معلقة خارج حدود الزمان، مستعدة للارتفاع عن أصابع قدميها والتحليق بعيدًا.

راودتها رغبة غريبة في الالتصاق أكثر، في إمالة وركيها للأمام واحتوائه. كانت في خزانة — خزانة شخص غريب في دجى الليل — ومع ذلك، وحتى وهي تتجمد رعبًا، لم تستطع منع نفسها من الشعور بشيء آخر... شيء أقوى من الخوف. كانت إثارة، نشوة، شيئًا مسكرًا وجديدًا جعل قلبها يتسابق ودماءها تضخ بقوة، و...

وشيء آخر أيضًا. شيء لم تكن مستعدة تمامًا لتحليله أو تسميته.

عضت هياسنث شفتها بين أسنانها.

دار مقبض الباب.

انفرجت شفتاها.

انفتح الباب.

ثم، ويا للعجب، أُغلق ثانية. شعرت هياسنث بنفسها تتهاوى ضد الجدار الخلفي، وشعرت بـ غاريث يرتخي عليها. لم تكن واثقة كيف لم يتم اكتشافهما؛ ربما كان غاريث محجوبًا بالملابس بشكل أفضل مما ظنت. أو ربما كان

الضوء خافتًا جدًا، أو أن الرجل لم يفكر في النظر لأسفل لرؤية الأقدام التي تطل من خلف العباءات. أو ربما كان بصره ضعيفًا، أو ربما...

أو ربما كانا محظوظين لدرجة اللعنة.

انتظرا في صمت حتى أصبح من الواضح أن الرجل قد غادر مكتب البارونة، ثم انتظرا لخمس دقائق أخرى كاملة، لمجرد التأكد. وأخيرًا، ابتعد غاريث عنها، دافعًا الملابس ليصل إلى باب الخزانة. انتظرت هياسنث في الخلف حتى سمعت همسه:

– "فلنذهب".

تبعته في صمت، يتسللان عبر المنزل حتى وصلا إلى النافذة ذات المزلاج المكسور. قفز غاريث للأسفل قبلها، ثم مد يديه لتتمكن من التوازن ضد الجدار وسحب النافذة للإغلاق قبل أن تقفز إلى الأرض.

قال غاريث وهو يمسك بيدها ويسحبها خلفه بينما يركض عبر شوارع مايفير:

– "اتبعيني".

هرولت هياسنث خلفه تتعثر، ومع كل خطوة، كانت شذرات الخوف التي تملكتها في الخزانة تُستبدل بالإثارة. بالنشوة العارمة.

بحلول الوقت الذي وصلا فيه إلى هاي هيل، شعرت هياسنث وكأنها تكاد تنفجر من الضحك، وأخيرًا، اضطرت لغرس كعبيها في الأرض وقالت:

– "توقف! لم أعد أقوى على التنفس".

توقف غاريث، لكنه التفت بعينين صارمتين. قال:

– "يجب أن أوصلكِ إلى المنزل".

– "أعلم، أعلم، أنا..."

اتسعت عيناه:

– "أتضحكين؟"

– "كلا! نعم. أعني..."

ابتسمت بعجز.

– "قد أكون كذلك".

قال:

– "أنتِ امرأة مسها الجنون".

أومأت، ولا تزال تبتسم كالحمقاء.

– "أظن ذلك".

استدار نحوها، واضعًا يديه على وركيه:

– "أليس لديكِ ذرة من عقل؟ كان يمكن أن يُقبض علينا هناك. كان ذلك كبير خدم والدي، وثقي بي، لم يكن يومًا يمتلك حس الدعابة. لو اكتشفنا، لكان أبي قد ألقى بنا في السجن، ولكان أخوكِ قد جرنا مباشرة إلى الكنيسة".

قالت هياسنث، محاولة أن تبدو جادة بما يليق:

– "أعلم".

لكنها فشلت.

فشلاً ذريعًا.

أخيرًا، استسلمت وقالت:

– "ولكن ألم يكن الأمر ممتعًا؟"

للحظة لم تظن أنه سيرد. للحظة بدا أن كل ما كان قادرًا عليه هو نظرة بلهاء مذهولة. لكن بعد ذلك، سمعت صوته، منخفضًا وغير مصدق:

– "ممتعًا؟"

أومأت:

– "قليلاً، على الأقل".

ضغطت على شفتيها، جاهدة لشدهما للأسفل عند الزوايا. أي شيء لمنع نفسها من الانفجار ضحكًا.

قال، وهو يبدو صارمًا ومصدومًا و — كان الله في عونها — لطيفًا، كل ذلك في آن واحد:

– "أنتِ مجنونة. أنتِ مجنونة جنونًا مطبقًا. لقد أخبرني الجميع، لكنني لم أصدق تمامًا..."

قاطعته هياسنث:

– "أحدهم أخبرك أنني مجنونة؟"

– "غريبة الأطوار".

– "آه".

زمّت شفتيها.

– "حسنًا، هذا صحيح، أفترض ذلك".

– "عبء أكبر بكثير مما يمكن لأي رجل عاقل تحمله".

سألت، وقد بدأت تشعر بشيء أقل من الإطراء:

– "أهذا ما يقولونه؟"

أكد قائلاً:

– "كل هذا وأكثر".

فكرت هياسنث في ذلك للحظة، ثم هزت كتفيها فحسب.

– "حسنًا، إنهم لا يملكون ذرة من عقل، أيٌّ منهم".

تمتم غاريث:

– "يا إلهي. أنتِ تتحدثين تمامًا مثل جدتي".

قالت هياسنث:

– "لقد ذكرتَ ذلك من قبل".

ثم لم تستطع المقاومة. كان لزامًا عليها أن تسأل. مالت نحوه قليلاً وقالت:

– "ولكن أخبرني. بصدق. ألم تكن متحمسًا ولو قليلاً؟ بمجرد أن زال الخوف من الاكتشاف وعلمت أننا سنمضي غير مرصودين؟ ألم يكن الأمر..."

سألت، وكلماتها تخرج مع تنهيدة:

– "... رائعًا ولو قليلاً؟"

نظر إليها، وربما كان ضوء القمر، أو ربما مجرد خيالها الجامح، لكنها ظنت أنها رأت شيئًا يومض في عينيه. شيئًا لينًا، شيئًا متسامحًا قليلاً.

قال:

– "قليلاً. ولكن قليلاً فقط".

ابتسمت هياسنث:

– "كنت أعلم أنك لست عصا يابسة".

نظر إليها، بما بدا أنه غيظ ملموس. لم يسبق لأحد أن اتهمه بالجمود من قبل.

قال باشمئزاز:

– "عصا؟"

– "يابسة.. جامدة".

– "أدركتُ ما تعنين".

– "لِمَ سألت إذن؟"

– "لأنكِ، يا آنسة بريدجرتون..."

وهكذا مضى الحال، طوال الطريق إلى المنزل.

الفصل العاشر

أشرق صباح اليوم التالي، ولا تزال هياسنث ترفل في حلل من الحبور السني، وتستحم في فيض من الانشراح المقيم. ولكن، ويا للأسف، لم تفتأ والدتها تطرق سمعها بالتعليق على هذا الابتهاج المفرط خلال مأدبة الإفطار، حتى ألجأت هياسنث إلى الفرار بجلدها، والاعتصام بمخدعها، والتحصن وراء أبواب غرفتها الموصدة.

فإن فيوليت بريدجيرتون امرأة جبلت على فطنة نفاذة، وبصيرة وقادة، فإذا كان ثمة من يستطيع أن يستشف وقوع هياسنث في حبائل العشق، فهي بلا ريب تلك الأم الرؤوم.

لعلها تدرك ذلك الخلج قبل أن أدركه أنا نفسي.

أخذت هياسنث تترنم بألحان خفية وهي تجلس خلف مكتبها الصغير في غرفتها، وتنقر بأناملها فوق منشفة الحبر في إيقاع متصل. لقد عكفت على ترجمة تلك الرقعة التي عثروا عليها ليلة أمس في ذلك المكتب الأخضر الصغير، وأعادت صياغتها مرارا وتكرار، ولا تزال تجد في نفسها غصة لعدم بلوغها غاية الرضا عن النتيجة، بيد أن ذلك كله لم يفل من عزيمتها، ولم يثنها عن غمرة سرورها.

لقد داخلها شيء من خيبة الأمل – ولا جرم – لعدم عثورهم على تلك الفصوص الماسية في ليلتهم الخالية، بيد أن تلك الرقعة المودعة في خزانة التحف قد أنبأت أن الجواهر لا تزال في متناول أيديهم، وأن الحظ قد يبتسم

لهم في خاتمة المطاف. وعلى أقل تقدير، فإن أحدا لم يظفر ببلوغ مأربه من وراء ذلك الأثر الذي خلفته إيزابيلا وراءها.

ما كانت هياسنث لتجد لذتها القصوى إلا في تطلب الغايات، واقتحام غمار المهام، والنزوع نحو المغامرات. لقد كانت تستهويها معضلات الألغاز، وتعشق تحليل الإشارات الخفية. ولقد صيرت إيزابيلا مارينزولي سانت كلير هذا الموسم الذي كان خليقا به أن يمر باهتا عاديا، ربيعا هو الأكثر إثارة واحتداما في حياة هياسنث.

رمقت الرقعة ببصرها، وهي تزم شفتيها في تفكير عميق، محاولة حصر ذهنيتها في المهمة القائمة بين يديها. إن ترجمتها لم تزل في حدود السبعين بالمائة – بحسب تقديرها المتفائل – بيد أنها خالت نفسها قد بلغت من الفهم مبلغا يسوغ لها الإقدام على محاولة ثانية. فالأثر التالي – أو ربما الألماس نفسه إن أسعدها الجد – يربض يقينا في أروقة المكتبة.

همست قائلة وهي ترسل بصرها وراء النافذة في شرود ساه:

– "أحسبها مستقرة بين طيات كتاب من الكتب."

ثم جال خاطرها في مكتبة آل بريدجيرتون، القابعة في منزل شقيقها بساحة غروسفينور. لم تكن الردهة فسيحة الأرجاء، بيد أن الرفوف كانت تشيد جدرانها من الأرض إلى السقف.

وكانت الكتب تملأ تلك الأرفف، فلا تدع فيها موضع إصبع إلا وشغلته.

قالت في سرها وهي تعود بوجهها نحو رقعة إيزابيلا:

– "لعل آل سانت كلير ليسوا من أرباب القراءة والمطالعة."

فلا ريب أن في تلك الكلمات المرموزة ما يشير إلى الكتاب الذي اصطفته لتجعله مستودعا لسرها. كانت توقن أنه كتاب ذو طابع علمي؛ فقد وضعت إيزابيلا خطا تحت جزء من مذكرتها، مما حمل هياسنث على الظن بأنها تومئ إلى عنوان كتاب، إذ لم يستقم المعنى في سياق الجملة أن يكون الخط لمحض التأكيد. وكان ذلك الجزء المخطوط يتحدث عن الماء و "الأشياء التي تتحرك"، وهو ما يشبه علم الطبيعة "Physics"، وإن لم يسبق لـ هياسنث أن خاضت في

غماره. بيد أن لها أربعة أشقاء ولجوا أبواب الجامعة، وقد تناهى إلى سمعها من أخبار دراستهم ما منحها معرفة عامة، إن لم تكن بمادة العلم، فبماهيته وغايته.

ومع ذلك، لم تكن على ثقة تامة من دقة ترجمتها أو ما ترمي إليه. لعلها إذا ما عرضت على غاريث ما بلغته من ترجمة، استطاع بفكره أن ينفذ إلى ما استغلق عليها؛ فهو أعلم منها بدار آبائه وما تحويه من ذخائر، وقد يكون على دراية بكتاب نادر أو غريب يخرج عن حد المألوف.

غاريث.

انفلتت من شفتيها ابتسامة، بل غمرتها ضحكة بلهاء وادعة، كانت لتؤثر الموت على أن يلمحها أحد وهو يرى حالها تلك.

لقد حدث في الليلة المنصرمة أمر جلل. أمر له خصوصية ووقع في النفس. أمر عظيم القدر.

إنه يميل إليها. إنه يحبها حقا. لقد قضيا طريق العودة في ضحك متصل وحديث لا ينقطع. وعندما أنزلها عند مدخل الخدم في الدار الرقم خمسة، رمقها بتلك النظرة الذابلة الأجفان، التي تشي بتركيز حاد وعاطفة متقدة. ولقد افتر ثغره عن ابتسامة، وارتفع جانب من شفته كمن يكتم سرا عزيزا.

لقد تملكتها الرعدة آنذاك، حتى ذهب عنها الكلام جملة. وتملكها التساؤل: هل تراه يلثم ثغرها مرة أخرى؟ وهو ما لم يفعله بالطبع، ولكن...

لعل ذلك كائن عما قريب.

لم يساورها أدنى شك في أنها لا تزال تثير حنقه وتدفعه نحو حافة الجنون في بعض الأحيان، ولكن يبدو أنها تثير ذلك الأثر في نفوس الجميع، فلم تعر الأمر بالا كبيرا.

بيد أنه يميل إليها، ويجله عقلها وذكاءها أيضا. وإذا كان يتردد أحيانا في إظهار هذا الإجلال بالقدر الذي تبتغيه... حسنا، إن لها أربعة أشقاء، وقد تعلمت منذ أمد بعيد أن اعتراف الرجال بتفوق عقل المرأة على عقولهم في أي

شأن يتجاوز شؤون الأقمشة والصابون المعطر والشاي، يعد من قبيل المعجزات التي لا تجود بها الأيام إلا نادرا.

أدارت رأسها لترقب الساعة المستقرة فوق رفا الموقد الصغير؛ فقد تجاوز الوقت منتصف النهار. ولقد قطع غاريث على نفسه وعدا بأن يزورها في هذا المساء ليقف على ما أنجزته من أمر الرقعة. ولعله لا يحل بالدار قبل الثانية، بيد أن الوقت الآن قد غدا مساء من الناحية الفنية، و...

تناهى إلى سمعها صوت حركة عند الباب. ولما كانت غرفتها تطل على واجهة الدار، فقد كان بوسعها سماع وقع الأقدام عند الدخول أو الخروج. هبت هياسنث واقفة، وهرعت نحو النافذة، تسترق النظر من وراء الستائر لعلها تبصر أحدا عند العتبة.

فلم تجد شيئا.

قصدت الباب وفتحته فتحة يسيرة لترهف السمع.

فلم تجد شيئا.

خطت نحو الرواق، وقلبها يخفق بقوة من شدة الترقب. والحق أنه لا موجب لهذا الوجل، بيد أنها لم تستطع أن تصرف فكرها عن غاريث، والألماس، و...

– "هياسنث، ماذا تفعلين هنا؟"

كادت تقفز من جلدها رعبا من هول المفاجأة.

قال شقيقها غريغوري:

– "أعتذر منك."

ولم يكن في صوته نبرة اعتذار بحال. كان يقف خلفها، أو بالأحرى كان كذلك قبل أن تلتفت نحوه في ذعر. بدا أشعث الغبرة قليلًا، وشعره البني الضارب إلى الحمرة مبعثرا بفعل الرياح، وقد طال شعره عما ينبغي.

قالت وهي تضع يدها على قلبها محاولة تهدئته:

– "لا تكرر هذا الفعل ثانية."

عقد ذراعيه واتكأ بكتفه على الجدار قائلا وهو يبتسم:

– "هذا هو الفن الذي أبرع فيه."

فردت عليه:

– "ليس هذا بالأمر الذي يفاخر به المرء."

تغاضى عن إهانتها، وأخذ ينفض غبارا متخيلا عن كم معطف ركوبه وقال:

– "ما بالك تتلصصين هكذا في الخفاء؟"

– "أنا لا أتلصص."

– "بلى، إنك تفعلين. وهذا هو الفن الذي تبرعين فيه."

رمقته بنظرة حانقة، وإن كان ينبغي لها أن تترفع عن ذلك؛ فإن غريغوري يكبرها بعامين ونصف، وقد نذر حياته لمشاكستها وتنغيص عيشها، منذ عهد صباهما الباكر. ولقد كانا – بحكم السن – معزولين نوعا ما عن بقية أفراد العائلة؛ فـ غريغوري يصغر فرانشيسكا بأربعة أعوام تقريبا، ويبعد عن كولن – الابن الذي يليه في الترتيب – بعشرة أعوام كاملة. وبناء على ذلك، فقد وجد نفسه و هياسنث في خندق واحد، يمثلان ثنائيا فريدا.

إنه ثنائي الشجار، والوخز، ووضع الضفادع في الفراش، بيد أنه يظل ثنائيا على كل حال. ورغم أنهما قد شبّا عن تلك الألاعيب الصبيانية، إلا أن أحدا منهما لم يستطع مقاومة الرغبة في وخز الآخر بلسانه.

قالت هياسنث:

– "حسبت أنني سمعت وقع أقدام قادم."

فأجاب بابتسامة فاترة:

– "لقد كنت أنا."

– "لقد أدركت ذلك الآن." ثم وضعت يدها على مقبض الباب وجذبته وهي تقول: "عن إذنك."

– "أراك في حالة من الضيق هذا اليوم."

– "لست في حالة ضيق."

– "بلى، إنك كذلك. وهذا هو..."

قاطعته هياسنث بحدة:

- "ليس هو الفن الذي أبرع فيه."

فضحك قائلا:

- "إنك يقينا في حالة ضيق."

- "أنا..." ثم أطبقت على أسنانها؛ فهي لن تنحدر بنفسها إلى مستوى أفعال الصغار في الثالثة من عمرهم. "سأعود إلى غرفتي الآن، فلدي كتاب أروم قراءته."

ولكن قبل أن تتمكن من الفرار، تناهى إليها قوله:

- "لقد أبصرتك مع غاريث سانت كلير في تلك الليلة."

تجمدت هياسنث في مكانها. هل تراه علم بالأمر؟ مستحيل، لم يرهما أحد، لقد كانت موقنة من ذلك.

تابع غريغوري قائلا:

- "في دار بريدجيرتون، في ذلك الركن القصي من القاعة."

أطلقت هياسنث زفيرا طويلا صامتا قبل أن تلتفت إليه ثانية.

كان غريغوري يرمقها بابتسامة عابرة، بيد أن هياسنث استطاعت أن تلمح في عينيه نظرة ثاقبة توحي بالكثير.

فشقيقها – رغم كل تصرفاته الرعناء – لم يكن بالرجل الغبي. ويبدو أنه يرى أن دوره في هذه الحياة هو حراسة شقيقته الصغرى؛ ولعل السبب في ذلك أنه ثاني أصغر الأبناء، وهي الوحيدة التي يستطيع أن يمارس معها دور السيادة، فالبقية لن يقبلوا منه ذلك بحال.

قالت هياسنث محاولة أن يبدو كلامها محايدا وباهتا:

- "أنا وصديقة لجدته، وأنت تعلم ذلك."

فهز كتفيه، وهي حركة يشتركان فيها، حتى لتخال هياسنث أحيانا أنها تنظر في المرآة، وهو أمر مضحك لأن قامته تفوق قامتها بطول فارع.

قال:

- "لقد بدوتما كأنكما في حديث عميق الشأن."

– "لم يكن أمرا يثير اهتمامك."

رفع حاجبه في حركة مستفزة وقال:

– "قد أفاجئك."

– "نادرا ما تفعل."

– "هل تسعين للإيقاع به في حبائلك؟"

قالت بحدة:

– "هذا أمر لا يعنيك."

فبدا على وجه غريغوري سيماء النصر:

– "إذن، فأنت تفعلين."

رفعت هياسنث ذقنها، ونظرت في عيني شقيقها مباشرة:

– "لست أدري." قالت ذلك لأنه – رغم شجارهما المتصل – ربما كان أعلم الناس بخبايا نفسها، وسيدرك يقينا إن كانت تكذب.

وإلا، فإنه سيظل يذيقها ألوان العذاب حتى تخرج الحقيقة من بين ثناياها رغما عنها.

اختفت حواجب غريغوري تحت خصلات شعره الطويلة التي تنسدل دوما على عينيه، وسألها:

– "حقا؟ حسنا، هذا لخبر عظيم."

حذرته هياسنث قائلة:

– "ليكن هذا بيننا فحسب، وهو ليس خبرا بالمعنى الدقيق، فإني لم أحسم أمري بعد."

– "ومع ذلك."

قالت هياسنث:

– "أعني ما أقول يا غريغوري؛ لا تجعلني أندم على إفضائي إليك بهذا السر."

– "يا لك من قليلة الإيمان!"

بدا صوته مستهترا لدرجة لم ترحها. فوضعت يديها على خصريها وقالت:

– "لم أخبرك بهذا إلا لأنك في حالات نادرة جدا لا تكون أحمقا بالكامل، ورغم كل منطق، فإني أحبك."

سكنت ملامح وجهه، وتذكرت أنه رغم محاولاته الرخيصة – في نظرها – ليظهر في مظهر المستهتر العابث، إلا أنه يتمتع بذكاء وقاد وقلب من ذهب.

قلب من ذهب يتسم بالمراوغة.

رأت هياسنث ضرورة الإضافة:

– "ولا تنس أنني قلت (ربما)."

عقد حاجبيه وسأل:

– "أقلت ذلك؟"

– "إن لم أكن قد قلته، فقد كان هو مرادي."

أشار بيده في كرم ظاهر وقال:

– "إذا كان ثمة ما يمكنني فعله لمساعدتك."

قالت بحزم، وقد تراءت أمام مخيلتها صور مرعبة لتدخلات غريغوري:

– "لا شيء، لا تفعل شيئا على الإطلاق. أرجوك."

– "إنه بلا ريب إهدار لمواهبي."

– "غريغوري!"

قال وهو يتنفس الصعداء في تصنع ظاهر:

– "حسنا، لقد نلت موافقتي على الأقل."

سألته هياسنث بريبة:

– "ولماذا؟"

تابع قائلا:

– "سيكون هذا زواجا ميمونا؛ وإذا لم يكن ثمة سبب آخر، فكري في الأبناء."

علمت أنها ستندم، لكنها سألت رغم ذلك:

– "أي أبناء تعني؟"

ابتسم وقال:

– "أولئك الأبناء الرائعون الذين سيلثغون في كلامهم. غاريثثث وهاياسينثث. هاياسينثث وغاريثثث. وأطفال ثينكلير المذهلون."

رمقته هياسنث بنظرة كأنها تنظر إلى رجل فقد رشده.

وهو كذلك يقينا، كما كانت توقن.

هزت رأسها وقالت:

– "كيف تسنى لأمي أن تنجب سبعة أبناء طبيعيين، وتنجب مسخا مثلك؟ هذا أمر يفوق إدراكي."

انطلق غريغوري يضحك وهي تعود إلى غرفتها:

– "هيا بنا نحو الحضانة، مع ثارة وثامويل ثينكلير الصغيرين. أوه، ولا تنسي ثوثانا الصغيرة!"

أوصدت هياسنث الباب في وجهه، بيد أن الخشب لم يكن من السمك بحيث يحجب كلمته الأخيرة:

– "إنك صيد سهل يا هاي. ولا تنسي النزول لتناول الشاي."

مضت ساعة من الزمان، وأوشك غاريث أن يدرك معنى الانتماء إلى عائلة كبيرة العدد.

على السراء والضراء.

قال كبير الخدم بعد أن سمح لـ غاريث بولوج الرواق الأمامي للدار الرقم خمسة:

– "الآنسة بريدجيرتون تتناول الشاي الآن."

تبع غاريث كبير الخدم عبر الرواق إلى تلك الردهة ذات اللونين الوردي والقشدي، حيث التقى بـ هياسنث في الأسبوع المنصرم.

يا إلهي، هل مر أسبوع واحد فحسب؟ إنه يبدو كأنه دهر كامل.

حسنا، إن التلصص، وخرق القوانين، والمجازفة بسحق سمعة آنسة كريمة، كفيل بأن يلبس الرجل ثوب الشيخوخة قبل أوانه.

دخل كبير الخدم الغرفة، ونطق باسم غاريث بجلال، ثم تنحى جانبا ليفسح له المجال للدخول.

– "سيد سانت كلير!"

التفت غاريث في دهشة ليواجه والدة هياسنث، التي كانت تجلس فوق أريكة مخططة وهي تضع كوب الشاي في صحنه. لم يدر لم اعتراه العجب برؤية فيوليت بريدجيرتون؛ فمن الطبيعي أن تكون في منزلها في مثل هذا الوقت من المساء. ولكن، لسبب ما، لم يتصور في طريقه إلا وجه هياسنث.

قال وهو ينحني لها في أدب:

– "ليدي بريدجيرتون، كم يسرني لقاؤك."

سألته:

– "هل التقيت بابني؟"

ابن؟ لم يدرك غاريث وجود أي شخص آخر في الغرفة.

تناهى إليه صوت هياسنث:

– "إنه شقيقي غريغوري." كانت تجلس قبالة والدتها فوق أريكة مماثلة، وأشارت برأسها نحو النافذة حيث كان غريغوري بريدجيرتون واقفا، يرمقه بنصف ابتسامة تبعث على الرهبة.

إنها ابتسامة الأخ الأكبر الساخرة، هكذا أدرك غاريث. لعل هذا هو المنظر الذي كان سيبدو عليه لو كان له شقيقة صغرى يمارس عليها فنون العذاب والحماية في آن واحد.

قال غريغوري:

– "لقد التقينا من قبل."

أومأ غاريث برأسه. لقد تقاطعت سبلهما مرارا في أرجاء المدينة، وكانا طالبين في مدرسة "إيتون" في الوقت ذاته، بيد أن غاريث يكبره بعدة أعوام، فلم تكن بينهما معرفة وثيقة. تمتم غاريث وهو يحيي الشاب: "بريدجيرتون."

تحرك غريغوري عبر الغرفة وجلس إلى جوار شقيقته، وقال موجها حديثه لـ غاريث:

– "يسرني رؤيتك. تقول هياسنث إنك صديقها (الخاص)."

هتفت هياسنث:

– "غريغوري!" ثم التفتت سريعا نحو غاريث: "لم أقل شيئا من هذا القبيل."

فقال غاريث:

– "لقد تحطم فؤادي."

رمقته هياسنث بنظرة تفيض حنقا، ثم التفتت نحو شقيقها وهمست بحدة: "كف عن هذا."

قالت الليدي بريدجيرتون وهي تتجاهل شجار أبنائها وكأنه لم يقع:

– "ألا تتناول الشاي يا سيد سانت كلير؟ إنه مزيج خاص أعشق مذاقه."

– "سأكون في غاية السعادة." جلس غاريث في المقعد ذاته الذي اختاره في المرة السابقة، رغبة منه في الابتعاد عن غريغوري قدر الإمكان، وإن كان في الحقيقة لا يدري أي فرد من آل بريدجيرتون قد يسكب الشاي المغلي في حجره عن طريق الخطأ.

بيد أنه وجد نفسه في وضع غريب؛ فهو يجلس عند الطرف القصير للطاولة المنخفضة، ومع جلوس آل بريدجيرتون فوق الأرائك، خيل إليه كأنه يترأس المجلس.

سألت الليدي بريدجيرتون:

– "أتريده بالحليب؟"

فأجاب:

– "شكرا لك. وبدون سكر، لو تكرمت."

قال غريغوري وهو يتناول قطعة من البسكويت:

– "أما هياسنث فتتناوله مع ثلاث قطع."

قالت هياسنث بحدة:

– "ولماذا يعنيه هذا الأمر؟"

فأجاب غريغوري وهو يمضغ:

– "لأنه صديقك (الخاص)."

– "إنه ليس..." التفتت نحو غاريث وقالت: "تجاهله."

ثمة شيء من الضيق يعتري المرء حينما يتلقى تعاليا من رجل أصغر منه سنا، ولكن في الوقت ذاته، كان غريغوري يبرع في إثارة حنق هياسنث، وهو مسعى لا يملك غاريث إلا مباركته.

لذا، قرر أن يبتعد عن المعمعة، والتفت نحو الليدي بريدجيرتون التي كانت أقرب الناس إليه:

– "وكيف حالك في هذا المساء؟"

ابتسمت له ابتسامة رقيقة وهي تمد له كوب الشاي، وهمست:

– "رجل ذكي."

فرد بلهجة محايدة:

– "إنها محض محاولة للحفاظ على الحياة."

– "لا تقل هذا، فهم لن يؤذوك."

– "كلا، ولكني أخشى أن أصاب في تبادل النيران."

سمع غاريث شهقة صغيرة، وعندما نظر نحو هياسنث، وجدها ترمقه بنظرات كأنها خناجر مسلولة، بينما كان شقيقها يضحك ملء فيه.

قال غاريث:

– "أعتذر منك." قالها لأنه شعر بضرورة قولها، ولم يكن يعنيها بحال.

سألت الليدي بريدجيرتون:

– "لست من عائلة كبيرة العدد، أليس كذلك يا سيد سانت كلير؟"

فأجاب بهدوء وهو يرتشف من شايه الفاخر:

– "كلا، أنا وشقيقي فحسب." ثم توقف برهة وهو يغالب موجة من الحزن تكتسحه كلما ذكر جورج، وأردف: "لقد وافته المنية في أواخر العام المنصرم."

وضعت الليدي بريدجيرتون يدها على فمها وقالت:

- "أوه، إني في غاية الأسف. لقد غاب عن بالي الأمر تماما. أرجو أن تغفر لي، وتقبل خالص عزائي."

كان اعتذارها نابعا من قلب طاهر، وتعازيها صادقة لدرجة أن غاريث شعر برغبة في مواساتها. نظر في عينيها مباشرة، وأدرك أنها تفهم جيدا طعم الفقد.

فجل الناس لم يفهموا؛ كان أصدقاؤه يربتون على كتفه في ارتباك ويقولون إنهم آسفون، لكنهم لم يدركوا حقيقة الجرح. ولعل جدته دانبري كانت الوحيدة التي تفهم؛ فقد فجعت بـ جورج أيضا. ولكن الأمر معها كان مختلفا بحكم القرابة. أما الليدي بريدجيرتون فكانت كالغريبة، ومع ذلك، فقد أظهرت من الاهتمام ما أثلج صدره.

لقد كان موقفا مؤثرا، بل ومربكا لـ غاريث؛ فهو لا يذكر متى كانت آخر مرة قال له أحدهم شيئا وعناه بصدق.

باستثناء هياسنث بالطبع؛ فهي تعني دائما ما تقول، لكنها في الوقت ذاته لا تظهر مكنونها أبدا، ولا تجعل نفسها عرضة للانكسار.

رمقها بنظرة، فكانت تجلس مستقيمة القوام، يداها مطويتان في حجرها، تراقبه بنظرة تملؤها الريبة.

ولم يكن ليلومها، فهو ينهج النهج ذاته.

قال وهو يلتفت نحو الليدي بريدجيرتون:

- "شكرا لك. لقد كان جورج شقيقا استثنائيا، وقد فقد العالم الكثير برحيله."

سكتت الليدي بريدجيرتون لبرهة، ثم - وكأنها تقرأ ما يدور في خلده - ابتسمت وقالت:

- "ولكنك لا ترغب في الخوض في هذا الشأن الآن. سنتحدث في أمر آخر."

نظر غاريث إلى هياسنث؛ كانت ساكنة، بيد أنه رأى صدرها يرتفع وينخفض في زفير طويل ينم عن نفاد الصبر. فلا شك أنها قد عكفت على الترجمة، وتتوق لإخباره بما تعلمته.

كتم غاريث ابتسامته بصعوبة؛ فهو موقن أن هياسنث كانت لتتظاهر بالموت لو كان في ذلك سبيل لانفرادهما بالحديث.

قالت الليدي بريدجيرتون:

– "إن الليدي دانبري تثني عليك خيرا."

التفت إليها غاريث قائلا:

– "إني لمحظوظ لكوني حفيدها."

– "لطالما أحببت جدتك." قالتها الليدي بريدجيرتون وهي ترتشف من شايها. "أعلم أنها تثير الرعب في قلوب نصف سكان لندن..."

– "بل أكثر من ذلك بكثير." قالها غاريث بلطافة.

ضحكت الليدي بريدجيرتون:

– "هذا ما تأمله هي."

– "بالفعل."

– "ومع ذلك، فقد وجدتها دائما في غاية اللطف." قالت الليدي بريدجيرتون. "إنها بمثابة نسمة هواء عليل، وهي بلا شك خبيرة في تمييز الرجال ومعادنهم."

– "سأبلغها تحياتك."

– "إنها تثني عليك كثيرا."

كررت قولها، ولم يدر غاريث إن كان ذلك سهوا أم عمدا، ولكن في كلتا الحالتين، لم يكن الأمر ليكون أكثر وضوحا مما لو نحته جانبا وعرضت عليه مالا ليخطب ابنتها.

وبالطبع، لم تكن تعلم أن والده ليس اللورد سانت كلير الحقيقي، وأنه لا يدري من يكون أبوه. ورغم نبل الليدي بريدجيرتون وكرمها، إلا أن غاريث

يشك كثيرا في أنها كانت لتبذل كل هذا الجهد لتقريبه لو علمت أنه ربما يحمل دماء خادم وضيع.

قال غاريث:

– "وجدتي تثني عليك خيرا أيضا، وهذا مديح عظيم، فهي نادرا ما تثني على أحد."

تدخل غريغوري بريدجيرتون قائلا:

– "باستثناء هياسنث."

التفت غاريث، وكان قد نسي وجود الشاب. وقال بهدوء:

– "بالطبع، فجدتي تعشق شقيقتك."

التفت غريغوري نحو هياسنث:

– "ألا تزالين تقرئين لها في كل يوم أربعاء؟"

فصححت له قائلة:

– "يوم الثلاثاء."

– "أوه، ثوري (Thorry)."

رمش غاريث بعينيه. هل كان شقيق هياسنث ألثغ؟

قالت هياسنث بعد أن – كما تيقن غاريث – وخزت شقيقها بمرفقها في جنبه:

– "سيد سانت كلير."

همس بلطف:

– "نعم؟" لقد شعر أنها نطقت باسمه قبل أن تهيئ سؤالا في ذهنها.

– "بلغني أنك مبارز بارع بالسيف." قالت أخيرا.

نظر إليها بفضول. إلى أين تريد الوصول؟ فأجاب:

– "أحب المبارزة، نعم."

– "لطالما رغبت في تعلمها."

تذمر غريغوري:

– "يا إلهي العظيم."

فاحتجت قائلة:

– "سأكون بارعة فيها."

فرد شقيقها:

– "أنا موقن من ذلك، ولهذا السبب ينبغي ألا يسمح لك بالاقتراب من سيف لمسافة ثلاثين قدما." ثم التفت نحو غاريث: "إنها داهية."

تمتم غاريث:

– "أجل، لقد لاحظت ذلك." وبدأ يشعر أن لشقيق هياسنث وجها آخر غير الذي يبديه.

هز غريغوري كتفيه وهو يتناول قطعة بسكويت:

– "لعل هذا هو السبب في أننا لم نفلح في تزويجها بعد."

هتفت هياسنث:

– "غريغوري!" ولكن ذلك كان بعد أن استأذنت الليدي بريدجيرتون وخرجت وراء أحد الخدم إلى الرواق.

احتج غريغوري:

– "إنه مديح! ألم تنتظري طوال حياتك أن أعترف بأنك أذكى من كل الحمقى الذين حاولوا التودد إليك؟"

فردت هياسنث:

– "قد تجد صعوبة في تصديق ذلك، ولكني لم أكن أذهب إلى فراشي كل ليلة وأنا أقول لنفسي: (أوه، أتمنى لو أن شقيقي يمنحني شيئا يشبه المديح في عقله الملتوي)."

شرق غاريث بالشاي من فرط الضحك.

التفت غريغوري نحو غاريث:

– "أرأيت لماذا أنعتها بالداهية؟"

قال غاريث:

– "أرفض التعليق."

قالت الليدي بريدجيرتون من عند الباب:

– "انظروا من حضر!" وجاء قولها في الوقت المناسب؛ فلولا ذلك لكانت هياسنث قد أجهزت على شقيقها في توها.

التفت غاريث نحو الباب وهب واقفا. كانت تقف خلف الليدي بريدجيرتون إحدى شقيقات هياسنث الكبريات، تلك التي تزوجت من دوق. أو هكذا ظن؛ فهن يتشابهن لدرجة تثير الحنق.

قالت هياسنث:

– "دافني! تعالي واجلسي إلى جواري."

رمشت دافني في ارتباك وقالت:

– "لا يوجد متسع بجوارك."

فقالت هياسنث بحدة ممتزجة بالحبور:

– "سيكون هناك متسع، بمجرد أن ينهض غريغوري."

نهض غريغوري في تكلف ظاهر ليفسح المجال لشقيقته الكبرى.

قالت الليدي بريدجيرتون وهي تعود لمقعدها بتنهيدة:

– "يا لهم من أبناء! لست أدري أحيانا أأنا سعيدة بإنجابهم أم لا."

بيد أن نبرة الحب في صوتها كانت واضحة لا تخطئها الأذن. وشعر غاريث بشيء من الإعجاب؛ فشقيق هياسنث يبدو مشاكسًا، لا سيما في حضرة شقيقته، وآل بريدجيرتون إذا ما اجتمعوا في حديث واحد، تداخلت أصواتهم ولم تخلُ كلماتهم من وخزات خفية.

بيد أنهم متحابون، وهذا ما يظهر جليا من وراء ذلك الصخب.

قال غاريث للدوقة الشابة بعد أن جلست بجوار هياسنث:

– "يسرني رؤيتك يا صاحبة السمو."

فردت بابتسامة مشرقة:

– "أرجوك، نادني (دافني). لا داعي للكلفة طالما أنك صديق لهياسنث. وعلاوة على ذلك، لا يمكنني أن أشعر بوقار الدوقة في ردهة والدتي."

– "وبماذا تشعرين إذن؟"

ارتشفت من شايها وقالت:

- "بأني محض (دافني بريدجيرتون). من الصعب التخلي عن هذا اللقب في هذه القبيلة، أعني من حيث الروح."

قالت الليدي بريدجيرتون:

- "أرجو أن يكون هذا مديحا."

ابتسمت دافني لوالدتها وقالت:

- "أخشى أنني لن أنجو منك أبدا." ثم التفتت نحو غاريث: "لا شيء كالعائلة يجعلك تشعر أنك لم تكبر قط."

فكر غاريث في لقائه الأخير بالبارون وقال بنبرة تفيض بالمشاعر:

- "أعلم تماما ما تعنين."

فقالت الدوقة:

- "أجل، أظن أنك تعلم."

لم يقل غاريث شيئا؛ فجفاؤه مع البارون كان أمرا معلوما للجميع، وإن كانت أسبابه طي الكتمان.

سألت الليدي بريدجيرتون:

- "وكيف حال الأطفال يا دافني؟"

- "مشاكسون كعادتهم. ديفيد يريد جروا، ويفضل أن يكبر ليصبح في حجم خيل صغير، وكارولين تتوق للعودة إلى منزل بينيديكت." ارتشفت من شايها والتفتت نحو غاريث: "لقد قضت ابنتي ثلاثة أسابيع مع شقيقي وعائلته في الشهر المنصرم، وقد كان يمنحها دروسا في الرسم."

- "إنه فنان بارع، أليس كذلك؟"

قالت الليدي بريدجيرتون والفخر يلمع في عينيها:

- "له لوحتان في المعرض الوطني."

قالت هياسنث:

- "بيد أنه نادرا ما يحل بالمدينة."

فقالت والدتها بنبرة حازمة توحي بعدم الرغبة في الخوض في التفاصيل:

- "إنه وزوجته يؤثران هدوء الريف."

لقد كان واضحا أنها لا تريد مناقشة الأمر أمام غاريث.

حاول غاريث أن يتذكر إن كان قد سمع عن فضيحة ما تتعلق بـ بينيديكت بريدجيرتون، فلم يذكر شيئا، بيد أنه يصغره بعشرة أعوام على الأقل، وإذا كان ثمة شيء قد وقع في ماضيه، فلا بد أنه حدث قبل استقرار غاريث في المدينة.

رمق هياسنث ليرى رد فعلها على كلمات والدتها. لم تكن زجرة، ولكنها كانت إشارة واضحة للكف عن الحديث.

بيد أن هياسنث لم تظهر أي ضيق، بل وجهت بصرها نحو النافذة وهي تقطب جبينها.

سألت شقيقتها:

– "هل الجو دافئ في الخارج؟ يبدو مشرقا."

– "إلى حد كبير." قالت دافني. "لقد جئت سيرا على الأقدام من دار هاستينغز."

أعلنت هياسنث:

– "إني أتوق للخروج في نزهة."

أدرك غاريث الإشارة على الفور وقال:

– "سأكون في غاية السعادة بمرافقتك يا آنسة بريدجيرتون."

ابتسمت هياسنث ابتسامة ساحرة وقالت:

– "أحقا تفعل؟"

قالت الليدي بريدجيرتون:

– "لقد خرجت هذا الصباح، وأزهار الزعفران قد تفتحت في المنتزه، خلف دار الحرس بقليل."

كاد غاريث يبتسم؛ فدار الحرس تقع في أقصى متنزه هايد بارك، والوصول إليها والعودة منها سيستغرق نصف المساء.

هب واقفا وقدم لها ذراعه قائلا:

– "هل نذهب لرؤية أزهار الزعفران إذن؟"

– "سيكون ذلك رائعا." وقفت هياسنث وأردفت: "علي فقط أن أنادي خادمتي لترافقنا."

نهض غريغوري عن حافة النافذة وقال:

– "لعلي أرافقكما أنا أيضا."

رمقته هياسنث بنظرة غاضبة.

فتمتم قائلا:

– "أو لعلي لا أفعل."

قالت الليدي بريدجيرتون:

– "إني أحتاج إليك هنا على أية حال."

ابتسم غريغوري ببراءة وسأل:

– "حقا؟ ولماذا؟"

قالت بحدة:

– "لأني أريد ذلك فحسب."

التفت غاريث نحو غريغوري وقال:

– "ستكون شقيقتك في أمان معي، هذا عهدي إليك."

فرد غريغوري بابتسامة فاترة:

– "أوه، لست قلقا بشأنها أبدا. السؤال الحقيقي هو: هل ستكون أنت في أمان معها؟"

ولقد كان من حسن الحظ – كما فكر غاريث لاحقا – أن هياسنث كانت قد غادرت الغرفة لتجلب معطفها وخادمتها؛ فلولا ذلك لكانت قد قتلت شقيقها في توه ولحظته.

الفصل الحادي عشر

بعد خمس عشرة دقيقة. كانت هياسنث غافلة تمامًا عن أن حياتها توشك أن تتغير.

سأل غاريث بمجرد أن وقف هو وهياسنث على الرصيف خارج المنزل رقم خمسة:

– "هل خادمتكِ كتومة؟"

أجابت هياسنث وهي تعدل قفازاتها:

– "آه، لا تقلق بشأن فرانسيس. نحن متفاهمتان".

رفع حاجبيه بتعبير من الدعابة الكسولة:

– "لِمَ تثير هذه الكلمات، الصادرة من شفتيكِ، الرعب في نفسي؟"

قالت هياسنث بمرح:

– "لستُ أدري حقًا، لكن يمكنني طمأنتك بأنها لن تقترب منا لمسافة عشرين قدمًا ونحن نتنزه. كل ما علينا فعله هو التوقف وشراء علبة من النعناع لها".

– "النعناع؟"

شرحت هياسنث وهي تنظر للخلف نحو فرانسيس، التي كانت قد اتخذت بالفعل المسافة المطلوبة خلف الثنائي وبدت الآن ضجرة للغاية:

– "إنها تُرتشى بسهولة. أفضل الخادمات كذلك".

تمتم غاريث:

– "ليس لدي علم بذلك".

قالت هياسنث:

– "أجد صعوبة في تصديق ذلك".

كان على الأرجح قد رشا خادمات في جميع أنحاء لندن. لم تستطع هياسنث تخيل أنه وصل إلى هذا السن، بتلك السمعة، دون أن تكون له علاقة بامرأة ترغب في إبقاء الأمر سرًا.

ابتسم بغموض:

– "الرجل النبيل لا يفشي الأسرار أبدًا".

قررت هياسنث عدم الخوض في الموضوع أكثر. ليس بالطبع لأنها لم تكن فضولية، بل لأنها ظنت أنه يعني ما قاله، وأنه لن يفشي أي أسرار، مهما كانت لذيذة.

وبحق، لِمَ تهدر طاقتها في طريق مسدود؟

قالت بمجرد وصولهما إلى نهاية شارعها:

– "ظننتُ أننا لن نهرب أبدًا. لدي الكثير لأخبرك به".

التفت إليها باهتمام واضح:

– "هل تمكنتِ من ترجمة الملاحظة؟"

ألقت هياسنث نظرة خلفها. كانت تعلم أنها قالت إن فرانسيس ستبقى بعيدًا في الخلف، لكن من الجيد دائمًا التحقق، خاصة أن غريغوري لم يكن غريبًا عن مفهوم الرشوة أيضًا.

قالت بمجرد اطمئنانها إلى أنه لن يُسمع حديثهما:

– "نعم. حسنًا، معظمها على الأقل. ما يكفي لنعرف أننا بحاجة لتركيز بحثنا في المكتبة".

قهقه غاريث.

– "ما المضحك؟"

– "إيزابيلا كانت أذكى بكثير مما أظهرت. لو أرادت اختيار غرفة من غير المرجح أن يدخلها زوجها، ما كانت لتجد أفضل من المكتبة. باستثناء غرفة النوم، أفترض ذلك، ولكن..."

التفت ونظر إليها بنظرة أبوية مزعجة:

– "... هذا ليس موضوعًا لأذنيكِ".

تمتمت:

– "رجل متزمت".

قال بابتسامة مستمتعة قليلاً:

– "اتهام لا يُوجّه إليّ كثيرًا، لكن من الواضح أنكِ تخرجين أفضل ما فيّ".

كان ساخرًا بوضوح لدرجة أن هياسنث لم تستطع إلا أن تعبس.

تأمل غاريث، بعد أن أخذ لحظة للاستمتاع بضيق هياسنث:

– "المكتبة، تقولين. هذا يبدو منطقيًا تمامًا. والد أبي لم يكن مثقفاً".

قالت هياسنث بعبوس:

– "آمل أن يعني ذلك أنه لم يمتلك الكثير من الكتب. أظن أنها تركت دليلاً آخر مدسوسًا في أحدها".

قال غاريث بتجهم:

– "ليس لدينا هذا الحظ. ربما لم يكن جدي مولعًا بالكتب، لكنه كان يهتم كثيرًا بالمظاهر، وما من بارون يحترم نفسه يملك منزلاً بلا مكتبة، أو مكتبة بلا كتب".

أطلقت هياسنث أنينًا:

– "سيستغرق الأمر طوال الليل لتفتيش مكتبة كاملة من الكتب".

منحها ابتسامة متعاطفة، ورفرف شيء ما في معدتها. فتحت فمها لتتحدث، لكن كل ما فعلته هو استنشاق الهواء، ولم تستطع التخلص من أغرب شعور بأنها فوجئت.

لكن بماذا، لم تكن لديها أدنى فكرة.

قال غاريث:

– "ربما، بمجرد أن تري ما هناك، سيتضح شيء ما فجأة".

هز كتفه هزة صغيرة وهو يوجههما حول الزاوية وإلى بارك لين.

– "هذا النوع من الأشياء يحدث لي طوال الوقت. عادة حين لا أتوقعه على الإطلاق".

أومأت هياسنث موافقة، ولا تزال غير مستقرة قليلاً بسبب ذلك الشعور الغريب بالخفة الذي اجتاحها للتو. قالت وهي تجبر نفسها على إعادة تركيزها على الأمر المطروح:

– "هذا بالضبط ما كنت آمل حدوثه. لكن إيزابيلا كانت غامضة نوعًا ما، أخشى ذلك. أو... لا أدري... ربما لم تكن غامضة عمدًا، والأمر فقط أنني لا أستطيع ترجمة كل الكلمات. لكنني أظن حقًا أننا قد نفترض أننا لن نجد الماس، بل دليلاً آخر".

– "لِمَ ذلك؟"

أومأت بتفكير وهي تتحدث:

– "أنا شبه متأكدة من أننا يجب أن نبحث في المكتبة، وتحديدًا في كتاب. ولا أرى كيف كان بإمكانها حشر الماس بين الصفحات".

– "ربما جوفت الكتاب. صنعت مخبأ".

احتبست أنفاسها. قالت وعيناها تتسعان بالإثارة:

– "لم أفكر في ذلك قط. سنحتاج لمضاعفة جهودنا. أظن – رغم أنني لست واثقة – أن الكتاب سيكون حول موضوع علمي".

أومأ:

– "هذا سيحصر الأمور. مر وقت طويل منذ كنتُ في مكتبة كلير هاوس، لكن لا أذكر وجود الكثير من الأطروحات العلمية".

زمّت هياسنث فمها قليلاً وهي تحاول تذكر الكلمات الدقيقة في الدليل:

– "كان شيئًا يتعلق بالماء. لكن لا أظن أنه كان بيولوجيًا".

قال:

– "عمل ممتاز، وإن لم أكن قد قلت ذلك، فشكرًا لكِ".

كادت هياسنث تتعثر، لشدة ما كانت مجاملته غير متوقعة. ردت بمجرد تجاوزها لمفاجأتها الأولية:

– "على الرحب والسعة. أنا سعيدة بالقيام بذلك. لأكون صادقة، لا أدري ماذا سأفعل بنفسي حين ينتهي كل هذا. المذكرات حقًا إلهاء جميل".

سأل:

– "وما الذي تحتاجين للإلهاء عنه؟"

فكرت هياسنث في ذلك للحظة. قالت أخيرًا:

– "لا أدري".

نظرت إليه، وشعرت بحاجبيها يقتربان حين التقت عيناها بعينيه.

– "أليس ذلك محزنًا؟"

هز رأسه، وهذه المرة حين ابتسم، لم يكن متعاليًا، ولا حتى جافًا. كانت مجرد ابتسامة. قال:

– "أظن أنه أمر طبيعي نوعًا ما".

لكنها لم تكن مقتنعة تمامًا. حتى دخلت إثارة المذكرات والبحث عن المجوهرات حياتها، لم تكن قد لاحظت إلى أي مدى كانت أيامها مقولبة في نمط واحد. الأشياء نفسها، الناس أنفسهم، الطعام نفسه، المشاهد نفسها.

لم تدرك حتى كم كانت تتوق بشدة للتغيير.

ربما كانت تلك لعنة أخرى تُلقى عند أقدام إيزابيلا مارينزولي سانت كلير. ربما لم تكن حتى تريد التغيير قبل أن تبدأ بترجمة المذكرات. ربما لم تكن تعلم أنها تريده.

لكن الآن... بعد هذا...

كان لديها شعور بأن شيئًا لن يعود كما كان أبدًا.

سألت، تواقة لتغيير الموضوع:

– "متى سنعود إلى كلير هاوس؟"

تنهد. أو ربما كان أنينًا.

– "لا أظن أنكِ ستتقبلين الأمر جيدًا لو قلت إنني ذاهب بمفردي".

أكدت:

– "بشكل سيء للغاية".

– "شككتُ في ذلك".

ألقى عليها نظرة جانبية:

– "هل كل أفراد عائلتك عنيدون مثلك؟"

قالت بصراحة تامة:

– "كلا، رغم أنهم يقتربون من ذلك. أختي إلويز، خصوصًا. لم تقابلها. وغريغوري".

أدارت عينيها.

– "إنه وحش".

– "لِمَ يراودني شك بأن مهما فعل بكِ، فقد رددته له بالمثل، وعشرة أضعاف؟"

أمالت رأسها للجانب، محاولة أن تبدو جافة وراقية للغاية:

– "هل تقول إنك لا تصدق أنني أستطيع إدارة الخد الآخر؟"

– "ولا لثانية واحدة".

قالت وهي تهز كتفيها:

– "حسنًا جدًا، هذا صحيح. لم أكن لأتمكن من الاستمرار في تلك الخدعة طويلاً على أية حال. ولا أستطيع الجلوس ساكنة في خطبة الكنيسة أيضًا".

ابتسم ابتسامة عريضة:

– "ولا أنا".

اتهمته:

– "كاذب. أنت لا تحاول حتى. لدي معلومات من مصادر موثوقة للغاية بأنك لا تذهب للكنيسة أبدًا".

ابتسم بفتور:

– "أفضل المصادر تراقبني؟ كم هذا مطمئن".

– "جدتك".

– "آه. هذا يفسر الأمر. هل تصدقين أن روحي قد تجاوزت بالفعل مرحلة الخلاص؟"

– "بالتأكيد، لكن هذا ليس سببًا لجعل بقيتنا يعانون".

نظر إليها بلمعة خبيثة في عينيه:

– "هل هو عذاب شديد أن تكوني في الكنيسة دون وجودي المهدئ؟"

– "أنت تعلم ما عنيت. ليس من العدل أن أضطر للحضور بينما أنت لا تفعل".

سأل:

– "منذ متى أصبحنا ثنائيًا لدرجة أن الأمر أصبح واحدة بيننا؟"

أوقفها ذلك فجأة. لفظيًا، على الأقل.

ومن الواضح أنه لم يستطع مقاومة مضايقتها أكثر، لأنه قال:

– "عائلتك بالتأكيد لم تكن خفية جدًا بشأن الأمر".

قالت وهي تقاوم بالكاد أنينًا:

– "آه. ذلك".

– "ذلك؟"

– "هم".

قال:

– "ليسوا سيئين لتلك الدرجة".

وافقت:

– "كلا. لكنهم طعمٌ يُكتسب بمرور الوقت. أفترض أنه يجب أن أعتذر".

همس:

– "لا داعي".

لكنها شكت في أنها كانت مجرد عبارة مبتذلة تلقائية.

تنهدت هياسنث. كانت معتادة نوعًا ما على محاولات عائلتها اليائسة غالبًا لتزويجها، لكنها استطاعت أن ترى كيف قد يكون الأمر مقلقًا قليلاً للرجل المسكين المعني. قالت وهي تمنحه نظرة متعاطفة:

– "إن كان هذا يجعلك تشعر بتحسن، فأنت لست أول رجل يحاولون إلصاقي به".

– "يا له من تعبير ساحر".

– "رغم أنك لو فكرت في الأمر، فإنه في الواقع لمصلحتنا إذا ظنوا أننا قد نتزوج".

– "وكيف ذلك؟"

فكرت بسرعة جنونية. لم تكن واثقة بعد مما إذا كانت ترغب في السعي لخطب وده، لكنها كانت واثقة أنها لا تريده أن يظن أنها فعلت. لأنه لو ظن ذلك، ثم رفضها... حسنًا، لا شيء يمكن أن يكون أكثر وحشية.

أو فطرًا للقلب.

قالت وهي تختلق الأمر أثناء حديثها:

– "حسنًا، سنحتاج لقضاء قدر كبير من الوقت بصحبة بعضنا البعض، على الأقل حتى ننتهي من المذكرات. إذا ظنت عائلتي أن هناك كنيسة في نهاية الرحلة، فسيكونون أقل ميلاً للاعتراض".

بدا أنه يفكر في ذلك. ولدهشة هياسنث، لم يتحدث، مما يعني أنها اضطرت لذلك.

قالت محاولة أن تبدو غير مكترثة وغير مبالية للغاية:

– "الحقيقة هي أنهم مهووسون بالتخلص مني".

قال بهدوء:

– "لا أظن أنكِ منصفة تجاه عائلتك".

افترقت شفتا هياسنث بذهول. كان هناك حدة في صوته، شيء جاد وغير متوقع.

– "آه... حسنًا..."

التفت، وكان هناك ضوء غريب ومكثف في عينيه وهو يقول:

– "أنتِ محظوظة جدًا بوجودهم".

شعرت فجأة بعدم الارتياح. كان غاريث ينظر إليها بتلك الحدة — بدا وكأن العالم يتلاشى من حولهما، وكانا فقط في هايد بارك بحق السماء، يتحدثان عن عائلتها...

قالت أخيرًا:

– "حسنًا، نعم".

حين تحدث غاريث، كانت نبرته حادة:

– "إنهم يحبونكِ فقط ويريدون الأفضل لكِ".

مازحته هياسنث:

– "هل تقول إنك الأفضل لي؟"

لأنها كان لزامًا عليها المزاح. لم تكن تعرف كيف تتفاعل مع مزاجه الغريب هذا. أي شيء آخر سيكشف الكثير.

وربما ستجبره مزحتها على الكشف عن شيء ما بدلاً من ذلك.

قال بحرارة:

– "ليس هذا ما عنيته، وأنتِ تعلمين ذلك".

تراجعت هياسنث خطوة للوراء:

– "أنا آسفة".

مذهولة من رد فعله.

لكنه لم ينتهِ. نظر إليها مباشرة، وعيناه تلمعان بشيء لم تره فيهما من قبل:

– "يجب أن تحمدي الله على نعمة أنكِ تنتمين لعائلة كبيرة ومحبة".

– "أنا أفعل. أنا..."

قاطعها:

– "هل لديكِ أدنى فكرة كم شخصًا لدي في هذا العالم؟"

تحرك للأمام، مقتربًا منها حتى أصبح قريبًا بشكل غير مريح. طالبها:

- "هل لديكِ؟"

ثم قال دون انتظار ردها:

- "واحد. واحد فقط. جدتي. وسأضحي بحياتي لأجلها".

لم يسبق لـ هياسنث رؤية هذا النوع من العاطفة فيه، لم تكن تحلم حتى بأنه يمتلكها. كان عادة هادئًا جدًا، لا يتزعزع. حتى في تلك الليلة في منزل بريدجرتون، حين كان منزعجًا من لقائه بوالده، كان لا يزال هناك جو معين من الخفة يحيط به. ثم أدركت ما الأمر بشأنه، ما الذي ميزه... لم يكن جادًا تمامًا أبدًا.

حتى الآن.

لم تستطع إبعاد عينيها عن وجهه، حتى وهو يلتفت بعيدًا، تاركًا لها فقط جانبه. كان يحدق في نقطة بعيدة في الأفق، شجرة ما أو شجيرة ربما لم يستطع حتى تحديد ماهيتها.

سأل بهدوء، ولا يزال لا ينظر إليها:

- "أتدركين ما يعنيه أن تكوني وحيدة؟ ليس لساعة، ليس لأمسية، بل فقط أن تعلمي، أن تعلمي يقينًا أنه في غضون بضع سنوات، لن يكون لديكِ أحد".

فتحت فمها لتقول لا، بالطبع لا، لكنها أدركت حينها أنه لم تكن هناك علامة استفهام في نهاية جملته.

انتظرت، لأنها لم تكن تدري ما تقول. ثم، لأنها أدركت أنها لو قالت شيئًا، لو حاولت التلميح بأنها تفهم، لضاعت اللحظة، ولن تعرف أبدًا ما كان يفكر فيه.

وبينما كانت تقف هناك، تحدق في وجهه وهو يغرق في أفكاره، أدركت أنها تريد بشدة معرفة ما كان يفكر فيه.

همست أخيرًا، بعد مرور دقيقة كاملة:

- "سيد سانت كلير؟ غاريث؟"

رأت شفتيه تتحركان قبل أن تسمع صوته. ارتفعت إحدى الزوايا في ابتسامة ساخرة، وراودها أغرب شعور بأنه قد قبل سوء حظه، وأنه مستعد لاحتضانه والتلذذ به، لأنه لو حاول تحطيمه، فسيُكسر قلبه ببساطة.

قال:

- "سأعطي العالم لأحظى بشخص واحد آخر أضحي بحياتي لأجله".

وحينها أدركت هياسنث أن بعض الأشياء تأتي كومضة برق. وأن هناك أشياء يعرفها المرء ببساطة دون امتلاك القدرة على تفسيرها.

لأنها في تلك اللحظة علمت أنها ستتزوج هذا الرجل.

لا أحد غيره سيفي بالغرض.

غاريث سانت كلير كان يعلم ما هو مهم. كان مضحكًا، كان جافًا، كان يمكن أن يكون ساخرًا بغطرسة، لكنه كان يعلم ما هو مهم.

ولم تدرك هياسنث من قبل قط مدى أهمية ذلك بالنسبة لها.

افترقت شفتاها وهي تراقبه. أرادت قول شيء ما، فعل شيء ما. لقد أدركت أخيرًا ما الذي تريده في الحياة، وبدا وكأنه يجب عليها القفز بكلتا قدميها، والعمل نحو هدفها والتأكد من حصولها عليه.

لكنها كانت متجمدة، عاجزة عن الكلام وهي تحدق في جانبه. كان هناك شيء في الطريقة التي يمسك بها فكه. بدا كئيبًا، مسكونًا. وتملكت هياسنث رغبة جارفة في مد يدها ولمسه، لتترك أصابعها تلامس خده، لتمسد شعره حيث تستقر خصلات ذيله الأشقر الداكن على ياقة معطفه.

لكنها لم تفعل. لم تكن بتلك الشجاعة.

التفت فجأة، وعيناه تلاقيان عينيها بقوة ووضوح كافيين لقطع أنفاسها. وراودها أغرب شعور بأنها بدأت لتوها ترى الرجل الكامن تحت السطح.

سأل، وصوته خفيف وعاد لطبيعته بشكل مخيب للآمال:

- "هل نعود؟"

مهما كان ما حدث بينهما، فقد مر.

قالت هياسنث:

– "بالطبع".

لم يكن الوقت مناسبًا للضغط عليه.

– "متى ترغب في العودة إلى كلير..."

تلاشت كلماتها. تصلب غاريث، وتركزت عيناه بحدة فوق كتفها.

التفتت هياسنث لترى ما جذب انتباهه.

احتبست أنفاسها. كان والده يسير في الممر، قادمًا مباشرة نحوهما.

نظرت حولها بسرعة. كانا في الجانب الأقل رقيًا من المتنزه، وبالتالي، لم يكن مزدحمًا للغاية. استطاعت رؤية عدد قليل من أفراد الطبقة الراقية عبر الفسحة، لكن لم يكن أي منهم قريبًا بما يكفي لسماع محادثة، شريطة أن يتمكن غاريث ووالده من البقاء مهذبين.

نظرت هياسنث مرة أخرى من أحد رجلي سانت كلير إلى الآخر، وأدركت أنها لم ترهما معًا من قبل قط.

نصفها أراد سحب غاريث جانبًا وتجنب المشهد، والنصف الآخر كان يموت فضولاً. لو بقيا مكانهما، وتمكنت أخيرًا من مشاهدة تفاعلهما، فقد تعرف أخيرًا سبب قطيعتهما.

لكن الأمر لم يكن بيدها. كان يجب أن يكون قرار غاريث. سألته مبقية صوتها منخفضًا:

– "هل تريد الذهاب؟"

افترقت شفتاه ببطء وارتفع ذقنه جزءًا من البوصة. قال وصوته متأمل بشكل غريب:

– "كلا. إنه متنزه عام".

نظرت هياسنث من غاريث إلى والده والعودة، ورأسها يتحرك، كما كانت متأكدة، مثل كرة تنس ضُربت بشكل سيء. سألت:

– "هل أنت واثق؟"

لكنه لم يسمعها. لم تظن أنه كان سيسمع مدفعًا ينطلق بجوار أذنه، لشدة تركيزه على الرجل الذي كان يتمشى ببرود مبالغ فيه نحوهما.

قال غاريث، مانحًا إياه ابتسامة لزجة:

– "أبي. كم هو مبهج رؤيتك".

مرت نظرة اشمئزاز عبر وجه اللورد سانت كلير قبل أن يكبتها. قال وصوته هادئ، صحيح، وفي رأي هياسنث، خالٍ تمامًا من الحياة:

– "غاريث. كم هو... غريب... رؤيتك هنا مع الآنسة بريدجرتون".

انتفض رأس هياسنث بدهشة. لقد نطق اسمها بتعمد شديد. لم تتوقع أن تُجر إلى حربهما، لكن بدا بطريقة ما أن ذلك قد حدث بالفعل.

مَطَّ غاريث في كلامه موجهًا السؤال إليها، حتى وعيناه لم تبارحا وجه البارون:

– "هل قابلتِ والدي؟"

أجابت هياسنث:

– "لقد تم تقديمنا".

قال اللورد سانت كلير وهو يأخذ يدها وينحني لتقبيل مفاصل أصابعها المغطاة بالقفاز:

– "بالفعل. أنتِ دائمًا ساحرة يا آنسة بريدجرتون".

وهو ما كان كافيًا لإثبات لـ هياسنث أنهم يتحدثون بالتأكيد عن شيء آخر، لأنها كانت تعلم أنها ليست دائمًا ساحرة.

سألها اللورد سانت كلير، ولاحظت هياسنث أنه مرة أخرى، يسألها أحدهم سؤالاً دون النظر إليها فعليًا:

– "هل تستمتعين بصحبة ابني؟"

قالت وعيناها تتنقلان جيئة وذهابًا بين الرجلين:

– "بالطبع. إنه رفيق مسلٍ للغاية".

ثم، لأنها لم تستطع المقاومة، أضافت:

– "لا بد أنك فخور جدًا به".

جذب ذلك انتباه البارون، والتفت إليها، وعيناه ترقصان بشيء لم يكن دعابة تمامًا.

– "فخور. إنها صفة مثيرة للاهتمام".

قالت هياسنث ببرود:

– "مباشرة إلى حد ما، على ما أظن".

قال غاريث:

– "لا شيء مباشر أبدًا مع أبي".

قست عينا البارون:

– "ما يعنيه ابني هو أنني قادر على رؤية الفروق الدقيقة في الموقف... حينما توجد".

والتفت إلى هياسنث:

– "أحيانًا، يا عزيزتي الآنسة بريدجرتون، تكون الأمور المطروحة بوضوح تام، أبيض وأسود".

افترقت شفتاها وهي تنظر إلى غاريث ثم تعود لوالده. عما يتحدثان بحق الشيطان؟

اشتدت يد غاريث على ذراعها، لكن حين تحدث، كان صوته خفيفًا وعفويًا. عفويًا أكثر مما ينبغي.

– "لمرة واحدة، أنا وأبي في اتفاق تام. غالبًا ما يمكن للمرء رؤية العالم بوضوح تام".

غمغم البارون:

– "الآن، ربما؟"

حسنًا، لا، أرادت هياسنث أن تصرخ بها. بالنسبة لها، كانت هذه المحادثة الأكثر تجريدًا وغموضًا في حياتها. لكنها أمسكت لسانها. جزئيًا لأنه لم يكن حقًا مكانها للتحدث، وأيضًا جزئيًا لأنها لم تكن تريد فعل أي شيء يوقف المشهد المتكشف.

التفتت إلى غاريث. كان يبتسم، لكن عينيه كانتا باردتين. قال بهدوء:

– "أعتقد حقًا أن آرائي الآن واضحة".

وفجأة حول البارون انتباهه إلى هياسنث. سأل:

- "ماذا عنكِ يا آنسة بريدجرتون؟ هل ترين الأشياء بالأبيض والأسود، أم أن عالمك مطلي بظلال الرمادي؟"

أجابت رافعة ذقنها حتى تمكنت من النظر إليه بندية في عينيه:

- "الأمر يعتمد".

كان اللورد سانت كلير طويلاً، بطول غاريث، وبدا بصحة جيدة ولياقة. كان وجهه مقبولاً وشابًا بشكل مفاجئ، بعينين زرقاوين وعظام وجنتين عالية وعريضة.

لكن هياسنث كرهته من النظرة الأولى. كان هناك شيء غاضب بشأنه، شيء خبيث وقاسٍ.

ولم تحب كيف جعل غاريث يشعر.

ليس أن غاريث قال لها أي شيء، لكن الأمر كان واضحًا وضوح الشمس على وجهه، في صوته، حتى في الطريقة التي يرفع بها ذقنه.

قال البارون وهو يومئ لها إيماءة تحية صغيرة:

- "إجابة دبلوماسية للغاية يا آنسة بريدجرتون".

- "كم هذا مضحك. أنا لست دبلوماسية في العادة".

غمغم:

- "كلا، لستِ كذلك، أليس كذلك؟ لديكِ سمعة... صريحة نوعًا ما".

ضيقت هياسنث عينيها:

- "إنها مستحقة".

قهقه البارون:

- "فقط تأكدي من أنكِ تمتلكين كل معلوماتك قبل تكوين آرائك يا آنسة بريدجرتون. أو..."

تحرك رأسه قليلاً، مما جعل نظرته تنحرف نحو وجهها بطريقة غريبة وماكرة.

- "... قبل اتخاذ أي قرارات".

فتحت هياسنث فمها لترد عليه ردًا لاذعًا — ردًا أملت أن تتمكن من تأليفه أثناء الحديث، بما أنها لا تزال تجهل ما الذي يحذرها منه بالضبط. لكن قبل أن تتمكن من التحدث، أصبحت قبضة غاريث على ساعدها مؤلمة.

قال:

– "حان وقت الذهاب. عائلتك ستكون في انتظارك".

قال اللورد سانت كلير وهو ينفذ انحناءة ذكية صغيرة:

– "بلغيهم تحياتي. إنهم قوم كرام، عائلتك. أنا واثق أنهم يريدون الأفضل لكِ".

حدقت فيه هياسنث فقط. لم يكن لديها أدنى فكرة عما كان يدور في الخفاء في هذه المحادثة، لكن من الواضح أنها لم تكن تملك كل الحقائق. وكرهت أن تُترك في الظلام.

جذب غاريث ذراعها بقوة، وأدركت أنه بدأ المشي بالفعل. تعثرت هياسنث في نتوء في الطريق وهي تحاول مجاراته. سألت لاهثة من محاولة اللحاق به:

– "عما كان كل ذلك؟"

كان يخطو عبر المتنزه بسرعة لا تستطيع ساقاها الأقصر مجاراتها ببساطة.

قال بحدة:

– "لا شيء".

– "لم يكن لا شيء".

نظرت فوق كتفها لترى إن كان اللورد سانت كلير لا يزال خلفهما. لم يكن كذلك، والحركة أفقدتها توازنها على أية حال. تعثرت، وسقطت ضد غاريث، الذي لم يبدُ ميلاً لمعاملتها بأي رقة أو اهتمام استثنائي. توقف، مع ذلك، لفترة كافية لتستعيد توازنها.

قال، وكان صوته حادًا ومقتضبًا ومائة شيء آخر لم تظن يومًا أنه يمكن أن يكونه:

– "كان لا شيء".

ما كان ينبغي لها قول أي شيء آخر. كانت تعلم أنها لا ينبغي أن تقول أي شيء آخر، لكنها لم تكن دائمًا حذرة بما يكفي لتنفيذ تحذيراتها الخاصة، وبينما كان يسحبها بجانبه، يجرها عمليًا شرقًا نحو مايفير، سألت:

– "ماذا سنفعل؟"

توقف فجأة لدرجة أنها كادت تصطدم به. ردد:

– "نفعل؟ نحن؟"

أكدت، رغم أن صوتها لم يخرج حازمًا تمامًا كما نوت:

– "نحن".

قال وصوته يزداد حدة وهو يتحدث:

– "نحن لن نفعل أي شيء. نحن سنسير عائدين إلى منزلك، حيث سنضعك على عتبة بابك، ثم سأعود أنا إلى شقتي الصغيرة الضيقة وأحتسي شرابًا".

سألت هياسنث، وكان صوتها ناعمًا، لكنه مباشر:

– "لماذا تكرهه كثيرًا؟"

لم يجب. لم يجب، ثم أصبح واضحًا أنه لن يجيب. لم يكن شأنها، لكن آه، كم تمنت لو كان كذلك.

سأل أخيرًا:

– "هل أعيدكِ، أم ترغبين في المشي مع خادمتكِ؟"

نظرت هياسنث فوق كتفها. كانت فرانسيس لا تزال خلفها، تقف قرب شجرة دردار كبيرة. لم تبدُ ضجرة قيد أنملة.

تنهدت هياسنث. ستحتاج للكثير من النعناع هذه المرة.

الفصل الثاني عشر

مضت عشرون دقيقة في مشية مسترسلة صامتة، كان غاريث خلالها يستشعر في قرارة نفسه مقتا لا يضاهى لذاته؛ إذ كيف لنفسه الأبية أن ترتهن لسطوة ذلك البارون، فيفسد عليه بلقاء واحد صفو يومه وجلاله.

ولم يكن الأمر متعلقا بشخص البارون فحسب؛ فالحق أنه لا يطيق للرجل ذكرا، بيد أن ما كان يؤرقه ويقض مضجعه، ويجعل روحه تعاتب عقله على هذا الخبل، هو ذلك الأثر الذي يتركه والده في نفسه؛ إذ كيف لكلمات معدودات أن تستلب منه وقاره وتصيره غريبا عن ذاته، أو على أقل تقدير، تجعل منه صورة طبق الأصل من غاريث ويليام سانت كلير... ذلك الصبي الذي لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره! بربك، لقد غدا الآن رجلا يناهز الثامنة والعشرين، فارق دار أبيه وشب عن الطوق، فكان حريا به أن يسلك مسلك الرجال الراسخين حين يواجه البارون، وكان جديرا به ألا يجد في نفسه هذا الاضطراب.

كان ينبغي ألا يستشعر شيئا على الإطلاق. لا شيء أبدا.

بيد أن الأمر يتكرر في كل مرة؛ إذ يتملكه الغيظ، ويستبد به الحنق، وينطق بكلمات لا غرض منها إلا الاستفزاز والمكابرة. إنه مسلك يترفع عنه الكرام، وتأباه الرزانة، بيد أنه يجد نفسه عاجزا عن كبح جماح هذا النزوع.

وهذه المرة، وقع المحذور في حضرة هياسنث.

لقد رافقها إلى دارها في صمت مطبق، وكان يدرك تمام الإدراك أن لسانها يتوق للنطق. تبا لكل شيء، حتى لو لم يقرأ ذلك في تقاسيم وجهها، لكان موقنا بأنها ترغب في الكلام؛ فـ هياسنث خلقت لتتكلم. بيد أنها – فيما يبدو – كانت تدرك بالفطرة متى ينبغي للمرء أن يلوذ بالصمت ويترك الأمور لمقاديرها، فظلت ساكنة طوال ذلك المشوار البعيد عبر منتزه هايد بارك وضواحي مايفير. وها هما الآن يقفان أمام ردهة منزلها، ولا تزال الخادمة فرانسيس تقتفي أثرهما على بعد عشرين قدما.

قال غاريث بلهجة سريعة، مستشعرا ضرورة الاعتذار:

– "إني لأعتذر عما شابه لقاءنا في المنتزه من كدر."

فأجابته:

– "لا أحسب أحدا قد رمقنا ببصره، أو على الأقل، لم يرهف أحد السمع لما دار بينكما. وعلاوة على ذلك، لم يكن لك يد فيما حدث."

شعر بابتسامة مريرة ترتسم على ثغره، فهي الابتسامة الوحيدة التي استطاع استحضارها في تلك اللحظة. فالحق أن اللوم يقع على عاتقه هو؛ فربما كان والده هو من بدأ بالاستفزاز، بيد أنه قد آن الأوان لـ غاريث أن يتعلم كيف يضرب بصفح عن تلك الترهات.

سألته هياسنث:

– "ألا تتفضل بالدخول؟"

فهز رأسه نفيا وقال:

– "أحسب أن الأفضل لي ألا أفعل."

رمقته بنظرة تفيض بالجدية والوقار وقالت:

– "بل إني أرغب حقا في أن تدخل."

كانت كلماتها من البساطة والوضوح بحيث لم يجد بدا من الإذعان. أومأ برأسه موافقا، وخطوا معا درجات السلم. ولما كان آل بريدجيرتون قد تفرقوا في شؤونهم، ولجا تلك الردهة الخالية ذات اللونين الوردي والقشدي. انتظرت

هياسنث عند الباب حتى استقر به المقام في مجلسه، ثم أوصدت الباب إيصادا تاما.

رفع غاريث حاجبيه دهشة وتساؤلا؛ ففي عرف القوم، يعد إيصاد الأبواب مع آنسة بمثابة ميثاق غليظ يوجب الزواج.

قالت هياسنث بعد برهة:

– "كنت أحسب فيما خلا من أيامي أن الشيء الوحيد الذي كان سيجعل حياتي أكثر كمالا هو وجود أب لي."

فلم ينبس بكلمة.

تابعت وهي لا تزال واقفة عند الباب:

– "كلما استبد بي الغضب تجاه أمي، أو تجاه أحد أشقائي أو شقيقاتي، كنت أحدث نفسي قائلا: لو كان لي أب فحسب! لكانت الأمور على أتم ما يرام، ولكان بلا ريب في صفي وظهيرا لي." ثم رفعت بصرها، وافتر ثغرها عن ابتسامة عذبة مائلة: "بالطبع لم يكن ليفعل، فإني موقنة بأني كنت المخطئة في جل الأحيان، بيد أن مجرد التفكير في ذلك كان يمنح روحي سكينة وعزاء."

ظل غاريث صامتا، ولم يكن في وسعه إلا أن يتخيل نفسه واحدا من آل بريدجيرتون، يحفه ذلك الضجيج المحبب وتلك الضحكات المجلجلة. ولم يستطع الرد، فقد كان من المؤلم حقا أن يعلم أنها حظيت بكل ذلك النعيم ولا تزال تطلب المزيد.

قالت:

– "لطالما تملكني الحسد تجاه من ينعمون بظلال الآباء، بيد أن هذا الشعور قد ولى إلى غير رجعة."

التفت نحوها بحدة، والتقت عيناه بعينيها. كانت تنظر إليه بنظرة مباشرة نافذة، فأدرك أنه لا يقوى على صرف بصره عنها.

قالت بهدوء:

– "إن العدم خير من وجود أب كأبيك يا غاريث. وإني لأشعر بالأسى لأجلك."

كانت تلك الكلمات بمثابة القشة التي قصمت ظهر اصطباره؛ فهذه الفتاة التي حازت كل أسباب السعادة – أو هكذا كان يخيل إليه – كانت على دراية بما يعتلج في صدره من ألم.

تابعت بابتسامة يغلفها الشجن:

– "على الأقل، فإني أحمل في ذاكرتي صورا، أو هكذا أنبأني الآخرون. إني أعلم من كان أبي، وأعلم يقينا أنه كان رجلا صالحا، وكان ليحبني لو امتد به العمر، حبا لا تشوبه شائبة ولا تقيده شروط."

اضطربت شفتها في تعبير لم يعهده فيها من قبل؛ كان مزيجا من السخرية المرة والاعتراف بالذات. لم تكن تلك هي هياسنث التي يعرفها، ولهذا السبب كانت فاتنة تأخذ بالألباب.

قالت وهي تطلق زفيرا متقطعا، كمن لا يصدق ما ينطق به لسانه:

– "وإني لأعلم جيدا أن حب امرأة مثلي يعد أمرا شاقا ومضنيا."

وفجأة، أدرك غاريث أن الحقائق الكبرى قد تنجلي للمرء في لمحة بصر. ثمة أمور يوقن بها القلب دون حاجة لبيان؛ فبينما كان يقف مراقبا لها، لم يدر بخلده إلا كلمة واحدة: كلا.

كلا.

بل إن حب هياسنث بريدجيرتون هو أيسر الأمور على النفس.

لم يدر من أين أتاه هذا الخاطر، ولا أي ركن من أركان عقله توصل إلى هذا الحكم؛ فإنه كان موقنا بأن العيش معها قد يداني المستحيل، بيد أنه علم في قرارة نفسه أن حبها لن يكون عسيرا أبدا.

قالت:

– "إني كثيرة الكلام."

كان مستغرقا في فكره، فسأل نفسه: ماذا تقول؟

– "وإني متمسكة بآرائي حد العناد."

كان هذا حقا، ولكن...

- "وإني قد أكون وباء لا يطاق إذا لم تجر الأمور وفق هواي، وإن كنت أحسب نفسي في غالب الأحيان متعقلة إلى حد ما..."

عندئذ، انطلق غاريث في الضحك. يا لله! إنها تسرد عليه قائمة بالأسباب التي تجعل حبها عسيرا. كانت محقة في كل ما قالت، بيد أن شيئا من ذلك لم يكن ليهم في نظره، على الأقل في تلك اللحظة الساحرة.

سألت بريبة:

- "ما بالك؟"

قال وهو يخطو نحوها ليمحو المسافة الفاصلة بينهما:

- "لوذي بالصمت."

- "ولماذا؟"

- "لوذي بالصمت وكفى."

- "ولكن..."

وضع إصبعه على شفتيها وقال بنعومة:

- "امنحيني فضلا واحدا، ولا تنبسي ببنت شفة."

ويا للعجب، فقد أذعنت لقوله.

للحظة، لم يفعل شيئا سوى النظر إليها. فمن النادر أن يراها ساكنة، لا يتحرك في وجهها جارحة، ولا ينطق لسانها برأي، ولا ينم أنفها عن اعتراض. اكتفى بالتفرس في وجهها، يحفظ في ذاكرته تقوس حاجبيها كأنهما جناحان رقيقان، وعينيها اللتين اتسعتا من هول محاولة الصمت. واستعذب أنفاسها الحارة وهي تداعب إصبعه، وتلك الهمهمة الخفية التي كانت تصدر من حنجرتها دون وعي منها.

ثم لم يملك من أمره شيئا، فقبلها.

أمسك بوجهها بين كفيه، وأدنى ثغره من ثغرها. في المرة السالفة، كان الغضب هو محركه، وكان يراها ثمرة محرمة، تلك الفتاة التي ظن والده أنه لن ينالها أبدا.

بيد أنه في هذه المرة، سيفعل الأمر على وجهه الصحيح. ستكون هذه هي قبلتهما الأولى حقا.

وقبلة لن تمحوها الأيام.

كان لثامه رقيقا، مفعما بالعذوبة. انتظر منها أن تطلق زفرة الوجد، وأن يلين جسدها بين يديه. لم يكن لينال منها شيئا حتى تعلن هي عن رغبتها في العطاء.

وعندئذ، سيبذل لها نفسه في مقابل ذلك.

داعب ثغرها بثغره، ملامسة خفيفة تتيح له استشعار رقة شفتيها ووهج جسدها. لاعبها بطرف لسانه في حنان وحلاوة، حتى انفرجت شفاها.

وعندئذ، ذاق طعم رضابها. كانت عذبة، دافئة، تبادله القبل بمزيج شيطاني من البراءة والخبرة لم يكن ليتصوره قط. براءة لأنها لا تدري يقينا ما تصنع، وخبرة لأنها رغم ذلك كانت تثير جنونه وتستبد بكيانه.

أمعن في القبلة، وانزلقت يداه على طول ظهرها، حتى استقرت إحداهما عند خصرها والأخرى تداعب انحناءات قوامها. جذبها نحوه، ملتصقة بصدره، وقد بدت أمارات الرغبة تلوح في الأفق. كان أمرا يفتقر إلى الرشد، بل هو الخبل بعينه. هما الآن في ردهة والدتها، على بعد خطوات من باب قد يفتح في أي لحظة، ليدخل شقيق لا يتردد في تمزيق غاريث إربا إربا.

ومع ذلك، لم يستطع التوقف.

لقد أرادها. أرادها بكل ما فيها.

استجار بالله من وجد يجعله يشتهيها الآن وفي هذه اللحظة.

همس في أذنها:

– "أيروقك هذا؟"

فأحس برأسها يميل مرافقةً، وسمع شهقتها تتردد كعزف الناي حينما أطبق أسنانه برفقٍ على شحمة أذنها، فكان ذلك الوقْع مِدَدًا لجرأته، ونارًا أذكَتْ لواعج جواه، فوشوشها ثانيةً وهو يرسل يده لتستقر فوق نهدها المترنح من فرط الخفقان:

– "أيروقكِ هذا العبث الساحر؟"

فأومأت برأسها تارةً أخرى، وانطلقت من ثغرها زفرةٌ حارةٌ كأنها القبس:

– "أجل.. لشدّ ما يروقني!"

فلم يملك إلا أن يفتر ثغره عن بسمةٍ ظافرة، ولم يجد بُدًّا من أن يتسلل بيده تحت طيات معطفها، حتى لم يبقَ بين أنامله وبضاعة جسدها إلا رقائق من حرير ثوبها الشفيف.

ثم قال بلهجةٍ يملؤها الدلال والمكر:

– "بل سيحلو لكِ الأمرُ أكثر، ويطيبُ الوصلُ أبلغ."

ثم أخذ يداعب مفاتنها ببراعة الغاوي، حتى استشعر ارتعاشة جسدها تحت وطأة اللذة، فاستسلمت له استسلام الغريق للتيار، وأخذت أناملها تتشبث بمنكبيه في ذعرٍ لذيذ.

أيقن في تلك اللحظة – بيقين الفحول من الرجال – أنها ستكون نِعمَ القرينة في مخدع الهوى؛ فهي وإن كانت تجهل خبايا هذا الفن، إلا أنها تملكُ طبعًا جموحًا سيجعل من تعليمها رحلةً في جنات النعيم.

ستكون ملكه.. ملكه هو وحده.

وحينما عاد ليرتشف رحيق ثغرها ثانيةً، ويستل كأنه الفاتح مكنون فمها بلسانه، هجس في خاطره هاجسٌ جليل:

لِمَ لا؟

لِمَ لا يتخذها زوجةً له؟ لِمَ لا..

تراجع عنها فجأة، وهو لا يزال يطوق وجهها بكفيه الساخنتين، إذ أدرك أن ثمة قراراتٍ مصيريةً تستوجبُ عقلًا رزينًا وفكرًا صافيًا، والله يعلم أن لبّه قد طاش وذهنه قد ذهب وهو يغرق في لثام هياسنث.

همست والذُّعرُ يطلُّ من عينيها المخمورتين بالهوى:

– "أحدثَ مني خطأٌ زلَّ به طبعي؟"

فهز رأسه نفيًا، وقد عجز لسانه عن النطق وهو يتفرس في بهاء محياها.

فتساءلت بهمس:

- "إذن لماذا توقفت؟"

فأسكتها بوضع إصبعه على شفتيها ـفي حزمٍ رفيق.

لِمَ لا يتخذها زوجة؟ إنَّ المَلأَ جَميعًا يترقبون هذا القِران ويحبذونه؛ فجدته قد لَجَّت ـفي التلميح له منذ نيفٍ وعام، وأما أهلها فكانت رغبتهم من الجلاء والوضوح كوَقْع المِطرقة فوق السندان. وزيادةً على ذلك، فإنه يجد ـفي نفسه مَيْلًا حقيقيًا نحو هياسنث، وهو أمرٌ عَزَّ عليه مَنالُه مع جُلِّ مَن لَقِيَ من الغانيات إبَّان سنوات عُزوبته. حَقًّا إنها تُذيقُه الأمرين وتُطيشُ لُبَّه ـفي كثيرٍ من الأحيان، بيد أنه يجد ـفي صُحبتها سحرًا لا يُقاوم.

علاوةً على ذلك، فقد غدا جليًا أنه لن يستطيع كبح جِماح نفسه عنها طويلًا؛ فلو تكررت مِثلُ هذه الأمسية مرةً أخرى، لَفُضِحت الأستار ولَأصاب سُمْعَتَها الخَدَشُ والضَّياع.

تمثَّل ـفي خياله صُورَ المَسرورين بهذا النبأ؛ أهلها، وجدته، ثم... والدُه البارون.

كاد غاريث أن ينفجر ضاحكًا من فَرْط الحُبور؛ يا له من فَتْحٍ مُبين! سيتزوج هياسنث، وهو أمرٌ أضحى ـفي عقله مَسعًى مَحمودًا ولذيذًا، وفي الوقت ذاته سيوجه صفعةً قاتلةً لكبرياء البارون.

سيكون وَقْعُ هذا الخبر عليه مِثل مَسِّ الحِمام؛ بل سيقتله كَمَدًا.

بيد أنه وهو يبتعد عنها، مُمررًا أنامله فوق مَنبتِ جِيدِها، أَدْرَك أنَّ عليه إتيان البيوت من أبوابها، فثمة أصولٌ لا مَحيصَ عنها لِمَن أراد سلوك درب السادة والأشراف.

و هياسنث لا تستحقُ أقلَّ من ذلك الجلال.

تمتم بنعومة وهو يتناول يدها ليلثمها لثام الوداع النبيل:

- "إنَّ عليَّ الرَّحيلَ الآن يا آنسة."

فباغَتَتْه بسؤالٍ والذُّهولُ لا يزال يغشى عينيها من أثر الصبابة:

- "إلى أين المَسير؟"

راقَه ذلك الارتباكُ الذي اعترى رصانتَها المعهودة، فقال:

– "ثمة شؤونٌ تستوجبُ النَّظر، ومهامٌ تطلبُ النَّفاذ."

– "ولكن... ماذا تعني؟"

فابتسم لها وهو يهمُّ بالانصراف:

– "ستعلمين النبأَ اليقينَ عما قريب."

– "ومتى يكون ذلك؟"

مشى نحو الباب وقال:

– "أراكِ اليومَ قد غدوتِ مِضياعًا للوقت بكثرة الأسئلة."

فاسْتَرَدَّت شيئًا من حِدَّتِها المعهودة وقالت:

– "ما كنتُ لأسألَ لولا مَيْلُك للغُموض وإمساكُك عن القول الفصل."

– "إلى لقاءٍ قريبٍ يا آنسة بريدجيرتون."

قالها وهو ينسلُّ إلى الرواق، تاركًا خلفه صَوْتَها المُتلهف وهي تتساءل:

– "ولكن متى؟"

فانطلق يضحكُ حتى غادر الدار.

بعد ساعةٍ من الزمان، في ردهة الاستقبال بدار بريدجيرتون.

بطلُنا، فيما يبدو، لا يَعرف التَّسويفَ سَبيلًا.

قال كبيرُ الخَدَم:

– "السيد الفيكونت في انتظارك الآن يا سيد سانت كلير."

تَبِع غاريث كبيرَ الخَدَمِ عَبْرَ رِحابِ الدار إلى جَناحٍ خاصٍ لم تَطأه قدماه من قبل. وأوضح له الخادمُ أنَّ الفيكونت يربضُ في مِحرابِ دراسته. أومأ غاريث برأسه، مُدركًا أنَّ مِثل هذا اللقاء الخطير يستوجبُ مَكانًا يَنضحُ بالهيبة والسُّلطان، ليُعلن فيه الفيكونت سَطوتَه وإحكامَ قبضته على مَقاليدِ الأمور.

حينما طرق غاريث باب الدار قبل دقائق، لم يُفصح عن مأربه، بيد أنه كان مُوقنًا أن شقيق هياسنث – الفيكونت المهيب ذو الصِّيتِ الذائع – يدركُ تمامًا لِماذا جاء.

فما الذي يأتي بـ غاريث إلى هذا الحِمى لولا خِطبة الوُدِّ؟ لَقَد بات مَقطوعًا به أنَّ والدة هياسنث قد بَسَطت الأمرَ أمامَ ابنها الأكبر وتداولا في شأن هذا القِران المُرتقب.

قال الفيكونت وهو ينهضُ من مَقعده خلف مَكتبه الفخم من خشب "الماهوجني":

– "أهلًا بك يا سيد سانت كلير."

كان هذا بَدءًا مَحمودًا؛ فالأعرافُ لا تُلزم الفيكونت بالنهوض، فكان في فِعله هذا إجلالٌ وتقدير.

– "لورد بريدجيرتون."

قالها غاريث وهو يُحييه. كان شقيق هياسنث يشبهها في خُصلاتِ شَعرِه الكستنائية، وإن كان الشَّيبُ قد بدأ يَخطُّ مَسارَه عند صُدغيه، مما زاده جلالًا فوق جلاله. كان رَجُلًا مَديدَ القامة، يَفيضُ قوةً وبأسًا، يُخيَّلُ للرائي أنه خَصمٌ لا يُستهان به في حَلَباتِ المُلاكمة أو مَيادينِ المِبارزة.

أشار الفيكونت إلى مَقعدٍ جِلديٍ وَثير:

– "تفضل بالجلوس، أرجوك."

امتثل غاريث، وجاهَد لكي لا تظهر عليه أماراتُ الاضطراب. لَقَد كان مَوقفًا يَهزُّ أركانَ الرجال؛ فعلى المرء أن يبدوَ رَزينًا، مُجتمعَ الفِكر، حاضرَ البديهة. كان واثقًا أنَّ طَلَبَه لن يُرد، بيد أنه أراد الخروج من هذه المَعمعة بقدرٍ من الكرامة، فهو سيبقى في وَجْه هذا الفيكونت ما امتدت به الحياة.

قال غاريث:

– "أحسبُك تدركُ عِلَّةَ مَجيئي."

أمال الفيكونت رأسَه قليلًا، وهو يشبكُ أناملَه في هيئةِ مِثلثٍ مَفرغ، وقال:

– "لعلنا، دَفعًا لكل مَظنةِ حَرَج، يجملُ بك أن تُفصحَ عن مَقصدِك ببيانٍ جَلِيّ."

اسْتَجمع غاريث أنفاسَه؛ فشقيقُ هياسنث لن يَمُنَّ عليه بيُسرِ المَنال. بيد أنه وَطَّنَ نَفْسَه على الصِّدقِ والشَّجاعة.

نَظر في عَيْنَي الفيكونت بقوةٍ وقال:

– "إني أرغبُ في اقترانِ وُصالي بـ هياسنث." ولما وَجد صَمتًا مَطبقًا من الآخَر، أردف: "هذا.. إن قَبِلَت بي زوجًا."

وعندئذٍ، وقعت أمورٌ لم تكن في الحُسبان.

أطلق الفيكونت زَفيرةً طَويلة، بل كانت تنهيدةً عَميقةً نابعةً من أغوار قلبه، كأنَّ حِمْلًا ثقيلًا قد انزاح عن كاهله، وبدا وكأنَّ الهواءَ قد انقبض من جَسده أمام ذُهول غاريث. وبدت شفتاه تتحركان بكلماتٍ خَفية، لو كان غاريث يملكُ فِراسةَ العارفين لَظَنَّ أنه يقول: "الحمدُ لك يا رب".

ثم، وبغتةً، هَوى الفيكونت بكفيه فوق مَكتبه بقوةٍ وهتف:

– "أوه، ستَقْبَلُ بك! بل إنها سَتَتَشبثُ بك تشبثًا!"

بُهِت غاريث ممَّا سَمِع وقال:

– "عفوًا، ماذا قلت؟"

نهض الفيكونت وقال:

– "إنَّ المَقامَ يقتضي شَرابًا للاحتفاء، ألا تَرى ذلك؟"

قصد لورد بريدجيرتون خِزانةَ كُتُبِه، واسْتَلَّ زُجاجةً قديمةً جدًا من شراب "الكونياك" الفاخر، وقال:

– "عليَّ أن أُخبئَ هذا الذُّخرَ الثمين."

– "عن الخَدَم؟" سأل غاريث.

– "بل عن الأشقاء!" أجاب الفيكونت وهو يَسْكُبُ الشَّرابَ في كَأسين. "أهلًا بك في العائلة."

قَبِل غاريث الكأس، وهو لا يَكادُ يُصدقُ أنَّ العقبةَ قد ذُللت بهذه البساطة.

قال الفيكونت (الذي اصبح يُدعى أنتوني الآن بطلبٍ منه):

– "إنه ليومٌ أغَرّ! يا لَه من يومٍ مَجيد!" ثم نَظر لـ غاريث وسأله: "أليس لك شقيقات؟"

– "كلا."

– "أما أنا، فلي أربع! والآن، قَد أَدَّيْتُ الأمانةَ وانتهى أَمْري. لقد غدوتُ حُرًا طَلَيقًا!"

– "ولكنَّ لكَ بناتٍ، أليس كذلك؟" سأل غاريث سائلًا ومُداعبًا.

– "ابنةٌ واحدةٌ في الثالثةِ من عُمرِها، وأمامِي سَنواتٌ طِوال قبل أن أَذوقَ مَرارةَ هذا المَوقفِ ثانية. ولعلَّ اللهَ يَهديها فَتَترهبُ وتَكفيني العَناء!"

غَصَّ غاريث بشرابِه ضَحِكًا.

ثم مال أنتوني نحو مَكتبه وقال:

– "والآن، لنتحدث في شأنِ المَهْرِ والتَّسوياتِ المالية."

والحق أنَّ غاريث لم يتدبر هذا الأمرَ بَعْد، رغم ضيق ذاتِ يده. لَقَد طاشَ لُبُّه بقرارِ الزواجِ فلم يلتفت للقضايا المادية.

قال أنتوني بجِدية:

– "لَقَد زِدْتُ في مَهْرِها العامَ الماضي، وسألتزمُ بما وَعدت، وإن كنتُ أربأُ بك أن يكونَ المالُ هو غايتَك."

اسْتَشاط غاريث غَضبًا وقال:

– "كلا، لستُ من أولئك."

– "أعلمُ ذلك، ولكن كان لِزامًا عليَّ السؤال. فإني أزعمُ قُدرتي على قراءةِ وُجوهِ الرجالِ وتَمييزِ الصِّدقِ من الكَذب."

ثم أردف الفيكونت بنبرةٍ مِلؤُها الهيبة:

– "إنَّ شقيقتي هياسنث دُرَّةٌ مَصونة، وعليك أن تَعِيَ ذلك جيدًا. فإذا كنتَ تَخشى على نَفْسِكَ، فَعَامِلْها بما تستحقُّه الجواهرُ من صَوْنٍ وإعزاز."

سكت غاريث، مُدركًا أنَّ المَقامَ مَقامُ استماعٍ لا حِوار.

تابع أنتوني وهو يذرعُ الغرفةَ جيئةً وذهابًا:

– "بَيْدَ أنها، وإن كانت مَغنمًا، لَيست باليَسيرة. إني أُقِرُّ بذلك. فَقليلٌ هم الرجالُ الذين يَقدِرون على مُجاراةِ ذكائِها، وإذا ما أُكْرِهَت على العيشِ مع مَنْ لا يُقدرُ صِفاتِها الفَريدة، فَستعيشُ شَقيةً مَحرومة."

ظلَّ غاريث شاخصًا ببصره نحو الفيكونت، فقال الأخير:

– "سأمنحُك مُوافقتي، بيد أنَّ عليكَ التفكيرَ مَليًا قَبْلَ أن تَعرِضَ عليها الأمرَ نَفْسَك."

فَسأَلَه غاريث بريبة:

– "ماذا تَعني؟"

– "لن أُخبِرَها بما دار بيننا. والأمرُ مَوكولٌ إليك لِتُقررَ خَوْضَ الغِمارِ أو الإحجام. فإذا آثَرْتَ السَّلامة، فَلَن تَعلمَ هي أبدًا بما كان."

عَجِب غاريث؛ كَمْ من الرجالِ قَد أرهبهم الفيكونت بهذا الأسلوب؟ لعلَّ هذا هو السَّببُ ـفي بَقائِها دون زواجٍ كلَّ هذا الأمد.

أكمل لورد بريدجيرتون بلهجةٍ حازمة:

– "إذا لم تُسْعِدْ شقيقتي، فَلَن تَعرفَ للسعادةِ طَعمًا. سأتكفلُ أنا بذلك بِنفسي."

هَمَّ غاريث برَدٍّ لاذعٍ يَكسرُ به صَلَفَ الفيكونت، بيد أنَّ كَلماتٍ أخرى انطلقت من ثغره:

– "إنكَ تُحِبُّها بصدق، أليس كذلك؟"

زفر أنتوني بصوتٍ مَسموع:

– "بِالطبع أُحبُّها، فهي شقيقَتي."

قال غاريث بهدوء:

– "لَقَد أَحببتُ شقيقي، وَكان هو وَجَدَّتي كلَّ ما أملكُ ـفي هذا العالَم."

– "إذن، فأنتَ لا تَنوي رَأْبَ الصَّدْعِ مع والدِك؟"

– "كلا."

أومأ الفيكونت برأسه وقال:

– "إذا تزوجتَ شقيقتي، فَستصبحُ لنا أخًا، وسنكونُ لكَ عَوْنًا."

حاول غاريث النطق، فَغَصَّ صَوْتُه بالعَبَرات. لا كَلماتِ تفي بما يَعْتَلِجُ ـفي صَدْرِه من مَشاعر.

ضحك الفيكونت ضَحكةً خَفيفة:

- "على السَّراءِ والضَّراء! وأُؤكدُ لَك أنكَ سَتَتمنى ـ في مَواقفَ كثيرة لو كانت هياسنث لقيطةً لا أَهلَ لَها!"

فردَّ غاريث بيقين:

- "كلا، لستُ أتمنى ذلك لأحدٍ أبدًا."

ساد الصمتُ لبرهة، ثم سأل الفيكونت:

- "هَل ثَمَّةَ مَا تُريدُ إِخباري به بخصوصِ البارون؟"

- "كلا."

- "هَل سَيُسببُ لنا المَتاعب؟"

- "لي أنا؟"

- "بَل لـ هياسنث."

لم يَستطع غاريث الكذب:

- "رُبما يَفعل."

وهذا هو مَكمنُ الخَوْف؛ فـ غاريث لا يدري ما قَد يُقدمُ عليه البارون، أو ما قَد ينطقُ به لِيفسدَ هذا القِران.

وفي تِلك اللحظة، أدرك غاريث أنَّ عليه فِعلَ أمرين: الأول، أن يُعجلَ بالزواجِ قدرَ المُستطاع، ويَقهرَ رغبةَ أهلِها ـ في إقامةِ حَفلاتٍ صاخبةٍ تستغرقُ شهُورًا. والثاني، أن يَجعلَ تَراجُعَها عن الزواجِ أمرًا مُستحيلًا، حتى لو جَاء البارون بكلِّ بَراهينِ الدُّنيا لِيُشكك ـ في نَسَبِه.

عليه أن يُوقعَها ـ في حَبائلِ غَرامِه، وبأسرعِ وقت. فمُذكراتُ إيزابيلا لا تزالُ قَائمة، ولعلها حَوت الحقيقةَ المُرّة، فَتعلم هياسنث سِرَّه قَبْلَ أن يُتمَّ الزواج.

وإذا كان غاريث لا يُمانعُ أن تَعرفَ الحقيقة، بَيْدَ أنه يُريدُ أن يكونَ ذلك بَعْدَ أن يُوثقَ رِباطَ الزوجية، أو بَعْدَ أن يَملك مَجامعَ قَلبِها بإغواءٍ لا فِرارَ مِنه.

لَمْ يكن غاريث يُحبُّ أن يُحشَرَ ـ في زاويةٍ ضَيقة، بَيْدَ أنَّ هذا الأمرَ بالذات... سيكونُ مَحضَ لَذّةٍ صَافية، وهَوًى لا يَنتهي.

الفصل الثالث عشر

بعد ساعة واحدة فقط. وكما أسلفنا، عندما يعقد بطلنا العزم على أمر ما...

وهل ذكرنا أن اليوم هو الثلاثاء؟

صرخت السيدة دانبري:

– "هيه؟ صوتكِ ليس مسموعًا بما يكفي!"

تركت هياسنث الكتاب الذي كانت تقرأ منه ينغلق، مبقية سبابتها بداخله لحفظ موضعها. وتساءلت بصوت مسموع:

– "لِمَ يتخيل إليّ أنني سمعتُ هذا من قبل؟"

صرحت السيدة دانبري:

– "لأنكِ سمعتِه بالفعل. أنتِ لا تتحدثين بصوت مسموع أبدًا".

– "عجيب، لكن أمي لا تشتكي من ذلك قط".

ردت السيدة دانبري بنخرة ساخرة:

– "أذنا والدتكِ ليستا من الطراز العتيق كأذنيّ. وأين عصاي؟"

منذ أن رأت غاريث يتصرف بجرأة، شعرت هياسنث بشجاعة مماثلة حين يتعلق الأمر بالتعامل مع عصا السيدة دانبري. قالت بابتسامة خبيثة:

– "خبأتها".

تراجعت السيدة دانبري للخلف مندهشة:

– "هياسنث بريدجرتون، أيتها القطة الماكرة".

– "قطة؟"

قالت السيدة دانبري ملوحة بيدها باستخفاف:

– "أنا لا أحب الكلاب، ولا الثعالب، في واقع الأمر".

قررت هياسنث اعتبار ذلك إطراءً — وهو دائمًا أفضل مسار للعمل حين يكون حديث السيدة دانبري بلا معنى — وعادت إلى الآنسة باتروورث والبارون المجنون، الفصل السابع عشر.

تمتمت:

– "دعينا نرى، أين كنا..."

– "أين خبأتها؟"

قالت هياسنث دون أن ترفع بصرها حتى:

– "لن تكون مخبأة لو أخبرتكِ، أليس كذلك؟"

– "أنا عالقة في هذا الكرسي بدونها. أنتِ لا ترغبين في حرمان سيدة عجوز من وسيلتها الوحيدة للتنقل، أليس كذلك؟"

قالت هياسنث وهي لا تزال تنظر في الكتاب:

– "بلى أرغب. أرغب تمامًا".

تمتمت الكونتيسة:

– "لقد قضيتِ وقتًا أكثر مما ينبغي مع حفيدي".

أبقت هياسنث انتباهها منصبًا بجدية على الكتاب، لكنها كانت تعلم أنها لا تنجح تمامًا في الحفاظ على وجه خالٍ من التعبيرات. ضمت شفتيها للداخل، ثم زمتهما، كما تفعل دائمًا حين تحاول ألا تنظر إلى شخص ما، وإذا كانت حرارة وجنتيها مؤشرًا على شيء، فهي تحمر خجلاً.

يا إلهي.

الدرس الأول في التعامل مع السيدة دانبري: لا تُظهري الضعف أبدًا.

والدرس الثاني بالطبع: عند الشك، عودي للدرس الأول.

قالت السيدة دانبري ببطء شديد لا يشي إلا بأنها تخطط لأكثر أنواع الأذى مكرًا:

– "هياسنث بريدجرتون، هل وجنتاك ورديتان؟"

نظرت هياسنث لأعلى بأكثر تعبيراتها فراغًا:

– "لا أستطيع رؤية وجنتيّ".

– "إنهما ورديتان".

– "إن كنتِ تقولين ذلك".

قلبت هياسنث صفحة بقوة أكبر مما كان ضروريًا، ثم نظرت باستياء إلى التمزق الصغير قرب الكعب. يا للعجب. حسنًا، لا شيء يمكنها فعله حيال ذلك الآن، وبالتأكيد نجت بريسيلا باتروورث مما هو أسوأ.

سألت السيدة دانبري:

– "لماذا تحمرين خجلاً؟"

– "أنا لا أحمر خجلاً".

– "أنا واثقة أنكِ تفعلين".

– "أنا لـ..."

تداركت هياسنث نفسها قبل أن يبدأ الشجار كزوج من الأطفال. قالت بما شعرت أنه عرض مثير للإعجاب من الكرامة واللياقة:

– "أشعر بالحر".

قالت السيدة دانبري على الفور:

– "الجو لطيف تمامًا في هذه الغرفة. لِمَ تحمرين خجلاً؟"

رمقتها هياسنث بنظرة حادة:

– "هل ترغبين في أن أقرأ هذا الكتاب أم لا؟"

قالت السيدة دانبري بحزم:

– "لا. أفضل كثيرًا معرفة سبب احمرارك خجلاً".

صاحت هياسنث تقريبًا:

– "أنا لا أحمر خجلاً!"

ابتسمت السيدة دانبري، وهو تعبير قد يبدو لطيفًا على أي شخص آخر، لكنه عليها بدا شيطانيًا.

- "حسنًا، أنتِ تفعلين الآن".

صرت هياسنث على كلماتها:

- "إن كانت وجنتاي ورديتين، فذلك من الغضب".

استفسرت السيدة دانبري، واضعة يدًا بريئة للغاية على قلبها:

- "مني؟"

أعلنت هياسنث:

- "سأقرأ الكتاب الآن".

قالت السيدة دانبري بتنهيدة:

- "إن كان لا بد لكِ من ذلك".

وانتظرت لثانية واحدة قبل أن تضيف:

- "أظن أن الآنسة باتروورث كانت تتسلق التل بصعوبة".

وجهت هياسنث انتباهها بحزم إلى الكتاب بين يديها.

طالبت السيدة دانبري:

- "حسنًا؟"

تمتمت هياسنث:

- "يجب أن أجد موضعي".

مسحت الصفحة بعينيها، محاولة العثور على الآنسة باتروورث والتل الصحيح (كان هناك أكثر من واحد، وقد تسلقتها جميعًا)، لكن الكلمات سبحت أمام عينيها، وكل ما رأته كان غاريث.

غاريث، بتلك العينين العابثتين والشفتين المثاليتين. غاريث، بغمازة كانت واثقة من أنه سينكر وجودها لو أشارت إليها يومًا. غاريث...

الذي كان يجعلها تبدو حمقاء مثل الآنسة باتروورث. لِمَ قد ينكر وجود غمازة؟

في الواقع...

قلبت هياسنث بضع صفحات للخلف. نعم، بالفعل، ها هي ذي، في منتصف الفصل السادس عشر تمامًا:

كانت عيناه عابثتين وشفتاه منحوتتين بدقة. وكان يمتلك غمازة، فوق الزاوية اليسرى لفمه مباشرة، كان سينكر وجودها حتمًا لو امتلكت الشجاعة يومًا لتشير إليها.

تمتمت هياسنث:

– "يا إلهي".

لم تظن أن غاريث يمتلك غمازة حتى.

طالبت السيدة دانبري:

– "لسنا تائهتين إلى هذا الحد، أليس كذلك؟ لقد عدتِ ثلاثة فصول للوراء على الأقل".

قالت هياسنث:

– "أنا أبحث، أنا أبحث".

كانت تفقد صوابها. لا بد أن هذا هو الأمر. من الواضح أنها فقدت عقلها إن كانت الآن تقتبس من الآنسة باتروورث دون وعي.

لكن مرة أخرى...

لقد قبّلها.

لقد قبّلها حقًا. المرة الأولى، في الردهة بمنزل بريدجرتون — كان ذلك شيئًا آخر تمامًا. تلامست شفتاهما، وفي الحقيقة تلامست أشياء أخرى قليلة أيضًا، لكنها لم تكن قبلة.

ليست مثل هذه.

تنهدت هياسنث.

طالبت السيدة دانبري:

– "لِمَ تتأففين؟"

– "لا شيء".

أطبقت السيدة دانبري فمها في خط صارم:

– "أنتِ لستِ على طبيعتكِ بعد ظهر هذا اليوم يا آنسة بريدجرتون. لستِ على طبيعتكِ على الإطلاق".

نقطة لم ترغب هياسنث في مناقشتها. قرأت بقوة أكبر مما كان ضروريًا:

– "تسلقت الآنسة باتروورث التل بصعوبة، وأصابعها تغوص أعمق في التراب مع كل خطوة".

سألت السيدة دانبري:

– "وهل للأصابع خطوات؟"

– "يمكنها ذلك في هذا الكتاب".

نحنحت هياسنث وتابعت:

– "كانت تسمعه خلفها. كان يقلص المسافة بينهما، وقريبًا سيتم الإمساك بها. ولكن لأي غرض؟ لخير أم لشر؟"

– "لشر، آمل ذلك. سيبقي الأمور مثيرة للاهتمام".

قالت هياسنث:

– "أنا أتفق معكِ تمامًا".

وقرأت:

– "كيف لها أن تعلم؟ كيف لها أن تعلم؟ كيف لها أن تعلم؟". نظرت لأعلى. "التشديد مني".

قالت السيدة دانبري بلطف:

– "مسموح به".

– "ثم تذكرت النصيحة التي أسدتها لها والدتها، قبل أن تذهب السيدة المباركة لتلقي جزاءها، منقورة حتى الموت بواسطة الحمام..."

– "هذا لا يمكن أن يكون حقيقيًا!"

– "بالطبع لا يمكن. إنها رواية. لكنني أقسم لكِ، إنها هنا تمامًا في الصفحة 193".

– "دعيني أرى ذلك!"

اتسعت عينا هياسنث. كثيرًا ما اتهمت السيدة دانبري هياسنث بالمبالغة، لكن هذه كانت المرة الأولى التي تطالب فيها بالتحقق فعليًا. نهضت وأرت الكتاب للكونتيسة، مشيرة إلى الفقرة المعنية.

قالت السيدة دانبري:

- "يا للعجب. السيدة المسكينة قضي عليها بالحمام حقًا".

هزت رأسها.

- "ليست الطريقة التي أود أن أموت بها".

قالت هياسنث وهي تعود لمقعدها:

- "ربما لا داعي للقلق بشأن ذلك".

مدت السيدة دانبري يدها لعصاها، ثم عبست حين أدركت أنها مفقودة. نبحت:

- "واصلي".

قالت هياسنث لنفسها وهي تنظر مرة أخرى في الكتاب:

- "حسنًا. دعيني أرى. آه، نعم... ذهبت لتلقي جزاءها، منقورة حتى الموت بواسطة الحمام".

نظرت لأعلى وهي تتمتم بضحكات مكتومة.

- "أنا آسفة. لا أستطيع قراءة ذلك دون الضحك".

- "فقط اقرئي!"

نحنحت هياسنث عدة مرات قبل الاستئناف:

- "كانت في الثانية عشرة فقط، أصغر بكثير من أن تخوض مثل هذه المحادثة، لكن ربما توقعت والدتها وفاتها المبكرة".

قاطعت نفسها مرة أخرى:

- "أنا آسفة، ولكن كيف بحق الأرض يمكن لشخص توقع شيء كهذا؟"

قالت السيدة دانبري بجفاف:

- "كما قلتِ، إنها رواية".

أخذت هياسنث نفسًا وقرأت:

- "أمسكت والدتها بيدها، وبعينين حزينتين ووحيدتين قالت: عزيزتي، عزيزتي بريسيلا. لا شيء في هذا العالم أغلى من الحب".

اختلست هياسنث نظرة إلى السيدة دانبري، التي توقعت تمامًا أن تكون تنخر باشمئزاز. لكن لدهشتها الكبيرة، كانت الكونتيسة مستغرقة تمامًا، تتعلق بكل كلمة تقولها.

أعادت هياسنث انتباهها بسرعة إلى الكتاب وقرأت:

– "ولكن هناك مخادعون، يا عزيزتي بريسيلا، وهناك رجال سيحاولون استغلالكِ دون تلاقٍ حقيقي للقلوب".

قالت السيدة دانبري:

– "هذا صحيح".

نظرت هياسنث لأعلى، وبدا جليًا على الفور أن السيدة دانبري لم تدرك أنها تحدثت بصوت عالٍ.

قالت السيدة دانبري بدفاعية حين أدركت أن هياسنث تنظر إليها:

– "حسنًا، إنه كذلك".

رغبة منها في عدم إحراج الكونتيسة أكثر، عادت هياسنث إلى الكتاب دون أن تنبس ببنت شفة. ونحنحت وتابعت:

– "ستحتاجين للثقة بغريزتكِ، يا عزيزتي بريسيلا، لكنني سأعطيكِ نصيحة واحدة. احفظيها في قلبكِ وتذكريها دائمًا، فأنا أقسم أنها الحقيقة".

قلبت هياسنث الصفحة، محرجة قليلاً لإدراكها أنها مأخوذة بالكتاب بقدر ما كانت دائمًا.

– "مالت بريسيلا للأمام، تلمس خد أمها الشاحب. ما هي يا أماه؟ سألت. قالت أمها: إذا أردتِ معرفة ما إذا كان رجل يحبكِ، فهناك طريقة واحدة حقيقية للتأكد".

مالت السيدة دانبري للأمام. حتى هياسنث مالت للأمام، وهي التي كانت تمسك بالكتاب.

– "همست أمها: إن السر في قبلته. كل شيء هناك، في قبلته".

افترقت شفتا هياسنث، وارتفعت يد واحدة لتلمسهما، دون أن تدرك ذلك حتى.

أعلنت السيدة دانبري:

– "حسناً. لم يكن هذا ما توقعته".

إن السر ـفي قبلته. هل يعقل أن يكون ذلك صحيحًا؟

تابعت السيدة دانبري بأسلوبها المتعالم:

– "كنتُ لأظن أنها ـفي أفعاله أو صنيعه، لكنني أفترض أن ذلك لم يكن ليبدو رومانسيًا بما يكفي للآنسة باتروورث".

غمغمت هياسنث:

– "والبارون المجنون".

– "بالضبط! من ـفي كامل قواها العقلية سترغب ـفي رجل مجنون؟"

همست هياسنث لنفسها:

– "السر ـفي قبلته".

صرخت السيدة دانبري:

– "هيه؟ لا أستطيع سماعكِ".

قالت هياسنث بسرعة، وهي تهز رأسها قليلاً لتجبر انتباهها على العودة للكونتيسة:

– "لا شيء. كنتُ شاردة الذهن فحسب".

– "تتأملين العقائد الفكرية التي وضعتها الأم باتروورث؟"

– "بالطبع لا".

سعلت.

– "هل نقرأ المزيد؟"

تذمرت السيدة دانبري:

– "من الأفضل أن نفعل. كلما أسرعنا ـفي إنهاء هذا الكتاب، كلما أسرعنا في الانتقال لآخر".

قالت هياسنث، رغم أنها لو لم ينهياه، فستضطر لتهريبه للمنزل وإنهائه بنفسها:

– "لسنا مضطرتين لإنهائه".

– "لا تكوني سخيفة. لا يمكننا عدم إنهائه. لقد دفعتُ مالاً جيدًا مقابل هذا الهراء. وفضلاً عن ذلك..."

بدت السيدة دانبري خجلة بقدر ما تستطيع حين قالت هذا، وهو ما لم يكن خجلاً كبيرًا في الواقع:

– "... أرغب في معرفة كيف ينتهي".

ابتسمت هياسنث لها. كان ذلك أقرب ما يمكن لـ السيدة دانبري أن تظهره من رقة القلب، ورأت هياسنث أنه يجب تشجيع ذلك.

قالت:

– "حسنًا جدًا. إذا سمحتِ لي بإيجاد موضعي مرة أخرى..."

جاء الصوت العميق والهادئ لكبير الخدم، الذي دخل غرفة الرسم بخطوات صامتة:

– "سيدتي دانبري، السيد سانت كلير يطلب مقابلة".

استفسرت السيدة دانبري:

– "وهو يطلبها؟ عادة ما يقتحم المكان مباشرة".

رفع كبير الخدم حاجبًا، وهو تعبير أكثر مما رأت هياسنث قط على وجه كبير خدم. قال:

– "لقد طلب مقابلة مع الآنسة بريدجرتون".

صرخت هياسنث بصوت رفيع:

– "أنا؟"

سقط فك السيدة دانبري:

– "هياسنث!"

تمتمت بذهول:

– "في غرفة رسمي؟"

– "هذا ما قاله يا سيدتي".

أعلنت السيدة دانبري وهي تنظر حول الغرفة رغم عدم وجود أحد سوى هياسنث وكبير الخدم:

– "حسنًا. حسنًا".

استفسر كبير الخدم:

– "هل أرافقه للداخل؟"

أجابت السيدة دانبري:

– "بالطبع، لكنني لن أذهب لأي مكان. أي شيء لديه ليقوله للآنسة بريدجرتون، يمكنه قوله أمامي".

طالبت هياسنث، وهي تبعد عينيها أخيرًا عن كبير الخدم وتلتفت نحو السيدة دانبري:

– "ماذا؟ لا أظن..."

قالت السيدة دانبري:

– "إنها غرفة رسمي، وهو حفيدي. وأنتِ..."

أطبقت فمها وهي تنظر إلى هياسنث، وقد توقف سيل كلامها لحظيًا. أنهت أخيرًا:

– "حسنًا، أنتِ أنتِ. هممممف".

قال غاريث، وهو يظهر في المدخل ويملأه، على طريقة باتروورث، بحضوره المذهل:

– "آنسة بريدجرتون".

ثم التفت إلى السيدة دانبري.

– "جدتي".

أخبرته:

– "أي شيء لديك لتقوله للآنسة بريدجرتون، يمكنك قوله أمامي".

غمغم:

– "أكاد أغرى باختبار تلك النظرية".

سألت هياسنث، وهي تجلس على حافة كرسيها:

– "هل ثمة خطب ما؟"

فقد افترقا قبل ساعتين بالكاد.

أجاب غاريث:

- "كلا البتة".

عبر الغرفة حتى أصبح بجانبها، أو على الأقل أقرب ما سمح به الأثاث. كانت جدته تحدق فيه باهتمام غير مخفي، وبدأ يشك في حكمة المجيء مباشرة إلى هنا من منزل بريدجرتون.

لكنه خرج إلى الرصيف وأدرك أنه يوم الثلاثاء. وبطريقة ما بدا ذلك فألاً حسناً. لقد بدأ كل هذا في يوم ثلاثاء، يا إلهي، أكان ذلك قبل أسبوعين فقط؟

أيام الثلاثاء هي الأيام التي تقرأ فيها هياسنث لجدته. كل ثلاثاء، دون فشل، في الوقت نفسه، وفي المكان نفسه. أدرك غاريث، وهو يسير في الشارع، متأملاً الاتجاه الجديد لحياته، أنه يعلم بالضبط أين تكون هياسنث في تلك اللحظة. وإذا أراد أن يطلب منها الزواج به، فما عليه سوى قطع المسافة القصيرة عبر مايفير إلى منزل دانبري.

ربما كان عليه الانتظار. ربما كان عليه اختيار وقت ومكان أكثر رومانسية بكثير، شيء يخطف أنفاسها ويتركها لاهثة للمزيد. لكنه اتخذ قراره، ولم يرد الانتظار، وفضلاً عن ذلك، بعد كل ما فعلته جدته لأجله على مر السنين، كانت تستحق أن تكون أول من يعلم.

لكنه، مع ذلك، لم يتوقع أن يضطر لتقديم عرضه في حضور السيدة العجوز.

ألقى نظرة عليها.

نبحت:

- "ما الأمر؟"

يجب أن يطلب منها المغادرة. يجب عليه حقاً، رغم أن...

آه، تباً. لن تغادر الغرفة حتى لو جثا على ركبتيه وتوسل إليها. ناهيك عن أن هياسنث ستجد صعوبة بالغة في رفضه بوجود السيدة دانبري.

ليس أنه ظن أنها سترفض، لكن كان من المنطقي حقاً تكديس الأوراق لصالحه.

قالت هياسنث بنعومة:

- "غاريث؟"

التفت إليها، متسائلاً كم من الوقت قضاه واقفاً هناك، يتدبر خياراته.

قال:

- "هياسنث".

نظرت إليه بترقب.

قال مرة أخرى، هذه المرة بمزيد من اليقين:

- "هياسنث".

ابتسم، تاركًا عينيه تذوبان في عينيها.

- "هياسنث".

جاء صوت جدته:

- "نحن نعرف اسمها".

تجاهلها غاريث ودفع طاولة جانبًا ليتمكن من الجثو على ركبة واحدة.

قال وهو يستمتع بشهقتها بينما يأخذ يدها في يده:

- "هياسنث، هل تمنحينني شرفًا عظيمًا بأن تصبحي زوجتي؟"

اتسعت عيناها، ثم اغرورقتا بالدموع، وبدأت شفتاها، اللتان كان يقبلهما بشغف قبل ساعات قليلة، بالارتجاف.

- "أنا... أنا..."

لم يكن من عادتها أن تعجز عن الكلام هكذا، وكان يستمتع بذلك، خاصة بظهور العاطفة على وجهها.

- "أنا... أنا..."

صرخت جدته أخيرًا:

- "نعم! نعم! ستتزوجك!"

قال:

- "يمكنها التحدث عن نفسها".

قالت السيدة دانبري:

– "كلا، لا يمكنها. بوضوح تام".

قالت هياسنث وهي تومئ وسط نشيجها:

– "نعم. نعم، سأتزوجك".

رفع يدها إلى شفتيه:

– "جيد".

أعلنت جدته:

– "حسنًا. حسنًا".

ثم تمتمت:

– "أحتاج عصاي".

قالت هياسنث دون أن ترفع عينيها عن غاريث:

– "إنها خلف الساعة".

رمشت السيدة دانبري بدهشة، ثم نهضت بالفعل واستعادتها.

سألت هياسنث:

– "لماذا؟"

ابتسم غاريث:

– "لماذا ماذا؟"

– "لماذا طلبت مني الزواج بك؟"

– "أظن أن ذلك كان واضحًا".

صاحت السيدة دانبري وهي تضرب بعصاها على السجاد:

– "أخبرها!"

ونظرت لأسفل إلى العصا بمودة واضحة. وتمتمت:

– "هذا أفضل بكثير".

التفت كل من غاريث وهياسنث إليها، هياسنث بنفاد صبر نوعًا ما وغاريث بتلك النظرة الفارغة التي تلمح للتعالي دون أن تفركه فعليًا في وجه المتلقي.

تذمرت السيدة دانبري:

– "آه حسناً جداً. أفترض أنكما ترغبان في قليل من الخصوصية".

لم ينبس غاريث ولا هياسنث بكلمة.

قالت السيدة دانبري وهي تعرج نحو الباب بخفة أقل بشكل مريب مما أظهرته حين عبرت الغرفة لاستعادة العصا قبل لحظات:

– "أنا مغادرة، أنا مغادرة. ولكن لا تظنا..."

توقفت في المدخل.

– "... أنني تاركة لكما المجال طويلاً. أنا أعرفك".

قالت وهي تطعن الهواء بعصاها تجاه غاريث:

– "وإن كنت تظن أنني أثق بك مع عفتها..."

– "أنا حفيدك".

أعلنت:

– "لا يجعلك ذلك قديسًا".

ثم انسلّت خارج الغرفة، مغلقة الباب خلفها.

نظر غاريث للأمر بتساؤل. وتمتم:

– "أظن أنها تريد مني توريطك في فضيحة. ما كانت لتغلقه بالكامل لولا ذلك".

قالت هياسنث محاولة التظاهر بالشجاعة تحت احمرار خجلها، الذي شعرت بانتشاره عبر وجنتيها:

– "لا تكن سخيفاً".

قال وهو يأخذ كلتا يديها في يديه ويرفعهما لشفتيه:

– "بلى، أظن أنها تفعل. إنها تريدكِ حفيدة، ربما أكثر مما تريدني حفيدًا، وهي ماكرة بما يكفي لتسهيل تدمير سمعتكِ لضمان النتيجة".

تمتمت هياسنث، مرتبكة من قربه:

– "ما كنتُ لأتراجع. لقد أعطيتك كلمتي".

أخذ أحد أصابعها ووضع طرفه بين شفتيه. وهمس:

– "لقد فعلتِ، أليس كذلك؟"

أومأت، مذهولة بمرأى إصبعها ضد فمه. وهمست:

– "أنت لم تجب عن سؤالي".

وجد لسانه الثنية الرقيقة تحت طرف إصبعها وتحرك جيئة وذهابًا.

– "هل سألتِني واحدًا؟"

أومأت. كان من الصعب التفكير بينما يغويها، ومن المذهل التفكير أنه يستطيع إيصالها لمثل هذه الحالة اللاهثة بمجرد إصبع واحد على شفتيه.

تحرك، جالسًا بجانبها على الأريكة، دون أن يترك يدها ولو لمرة. همس:

– "جميلة جدًا. وقريبًا ستكون لي".

أخذ يدها وقلبها، بحيث أصبحت راحتها للأعلى. راقبته هياسنث وهو يراقبها، راقبته وهو يميل فوقها ويلمس بشفتيه باطن معصمها. بدت أنفاسها عالية جدًا في الغرفة الصامتة، وتساءلت ما الذي كان مسؤولاً أكثر عن حالتها المتصاعدة: ملمس فمه على جلدها أم رؤيته وهو يغويها بقبلة فقط.

قال وهو يمسك بذراعها وكأنها كنز ثمين، يحتاج للفحص بقدر ما يحتاج للحفظ:

– "أنا أحب ذراعيكِ. الجلد أولاً، على ما أظن".

وترك أصابعه تنزلق بخفة على الجلد الحساس فوق معصمها. كان يومًا دافئًا، وارتدت فستانًا صيفيًا تحت ردائها. كانت الأكمام مجرد أغطية صغيرة، و — سحبت أنفاسها — إذا استمر في استكشافه طوال الطريق حتى كتفها، ظننت أنها قد تذوب هناك على الأريكة.

قال وهو ينظر إليها وكأنها شيء عجيب:

– "ولكنني أحب شكلهما أيضًا. نحيلتان، ولكن بلمسة من الاستدارة والقوة".

نظر لأعلى، والدعابة الكسولة في عينيه.

– "أنتِ رياضية نوعًا ما، أليس كذلك؟"

أومأت.

لوى شفتيه في نصف ابتسامة.

– "أستطيع رؤية ذلك في طريقة مشيك، طريقة حركتك. حتى..."

ملّس ذراعها مرة أخيرة، وتوقفت أصابعه قرب معصمها.

– "... شكل ذراعك".

مال، حتى أصبح وجهه قريبًا من وجهها، وشعرت بأنفاسه تقبلها وهو يتحدث. قال بنعومة:

– "أنتِ تتحركين بشكل مختلف عن النساء الأخريات. هذا يجعلني أتساءل".

همست:

– "ماذا؟"

كانت يده بطريقة ما على وركها، ثم على ساقها، تستقر على منحنى فخذها، لا تداعبها تمامًا، تذكرها فقط بوجودها بحرارتها وثقلها.

همس:

– "أظن أنكِ تعلمين".

شعرت هياسنث بجسدها يشتعل حرارة بينما ملأت صور غير مستدعاة ذهنها. كانت تدرك كُنه ما يدور بين الرجل والمرأة؛ فقد استلّت الحقيقة من أخواتها الكبريات بعد إلحاحٍ طويل. وذات مرة، عثرت في غرفة غريغوري على كتاب فاضح يضج بصور خليعة، وحافل برسومات من الشرق أورثتها شعورًا غريبًا مبهمًا في دخيلة نفسها.

بيد أن شيئًا لم يكن ليوطئ لها النفس لتلقي تلك الدفقة العارمة من الرغبة التي اجتاحتها عند سماع همسات غاريث. لم تملك إلا أن تتمثله في خيالها... يداعبها، ويلثمها.

أوهن ذلك قواها.

وأجج فيها التوق إليه.

همس، وكلماته تلفح أذنها بحرارتها:

– "ألا تتساءلين؟"

أومأت. لم يكن في وسعها الكذب. شعرت بأنها عارية في تلك اللحظة، وأن روحها قد شُرّعت أبوابها أمام هجومه الرفيق.

ألحّ سائلاً:

– "ماذا تظنين؟"

ابتلعت ريقها، محاولة تجاهل الطريقة المغايرة التي بدت أنفاسها تملأ بها صدرها. وتمكنت أخيرًا من القول:

– "لستُ أستطيع القول".

قال وهو يبتسم ابتسامة العارف:

– "كلا، لا تستطيعين، أليس كذلك؟ لكن هذا لا يهم".

مال نحوها وقبّلها، قبلة واحدة، متأنية، على شفتيها.

– "ستعلمين قريبًا".

نهض واقفًا.

– "أخشى أن عليّ المغادرة قبل أن تحاول جدتي التجسس علينا من المنزل المقابل".

طارت عينا هياسنث إلى النافذة في ذعر.

قال غاريث مع قهقهة:

– "لا تقلقي. عيناها ليستا بتلك الحدة".

قالت هياسنث، وهي لا تزال ترمق النافذة بريبة:

– "إنها تملك منظارًا مقربًا".

تمتم غاريث وهو يسير نحو الباب:

– "لِمَ لا يفاجئني هذا؟"

راقبته هياسنث وهو يقطع الغرفة. لطالما ذكرها بالليث. وما زال كذلك، غير أنه الآن صار ليثها الذي ستروضه.

قال غاريث وهو يخصها بانحناءة صغيرة:

– "سأزوركِ غدًا".

أومأت، تراقبه وهو يغادر. ثم، حين توارى عن الأنظار، عدلت جذعها لتواجه الأمام مرة أخرى.

– "يا. إلـ..."

طالبت السيدة دانبري، وهي تدخل الغرفة مجددًا بعد ثلاثين ثانية بالكاد من رحيل غاريث:

– "ماذا قال؟"

اكتفت هياسنث بالنظر إليها بذهول.

ذكرتها السيدة دانبري:

– "لقد سألتِه لِمَ طلب منكِ الزواج به. ماذا قال؟"

فتحت هياسنث فمها لتجيب، وحينها فقط أدركت أنه لم يجب عن سؤالها قط.

كذبت قائلة:

– "قال إنه لم يكن بوسعه ألا يتزوجني".

كان هذا ما تمنت لو قاله؛ وقد يكون أيضًا ما ظنت السيدة دانبري أنه حدث.

تنهدت السيدة دانبري وهي تضم يدًا إلى صدرها:

– "آه! كم هذا جميل".

نظرت إليها هياسنث بتقدير جديد. وقالت:

– "أنتِ رومانسية".

أجابت السيدة دانبري، بابتسامة سرية عرفت هياسنث أنها لا تشاركها كثيرًا:

– "دائمًا. دائمًا".

الفصل الرابع عشر

انقضى من الزمان أسبوعان، فاستفاض النبأ في أرجاء لندن استفاضة الصبح في الآفاق، وبات القاصي والداني يعلم أن الآنسة هياسنث قد أوشكت أن تغدو سيدةً لدار سانت كلير. أما غاريث، فقد استمرأ مقامه الجديد صهرًا أثيرًا لدى آل بريدجرتون، بيد أن هواجس نفسه لم تنفك تهمس في أذنه بتوقع زلزلةٍ عاتية تقوض هذا البنيان الشامخ وتذرُه هباءً منثورًا.

آن أوان السحر، حيث انتصف الليل وغلبت النعاسَ العيون، والموضع في بقعة تقع تِلقاء نافذة مخدع هياسنث. لقد أحكم الرجل التدبير، ورسم الخطوب رسمًا دقيقًا، وأجرى في خياله كل شاردة وواردة، خلا تلك الكلمات التي سيفوه بها؛ إذ علم أنها ستتدفق عفو الخاطر في لظى اللحظة واحتدام الوجد.

سيكون مشهدًا يرفل في أثواب البهاء.

سيكون فيضًا من صبابةٍ لا تُرد.

ستكون تلك الليلة هي ليلته الموعودة.

في تلك الليلة – هكذا ناجى غاريث نفسه بمزيجٍ من الدهاء الماكر والحبور الغامر – سأفتن هياسنث فتنةً لا مخلص منها. وعلى الرغم من اعتلاجه ببعض وخزات الضمير لصناعته هذا الفخ الذي يروم به استدراجها، إلا أنه سرعان ما نفض عن نفسه غبار ذلك التردد؛ فما كان لِيُورِدَها موارد الهلكة ثم يتركها للذئاب، فإنه يبتغيها زوجة له أمام الله والملأ. ولن يعلم بتلك الواقعة بشرٌ سواه هو وهياسنث، أما ضميرها الأبيّ، فلن يطاوعها أبدًا على

نقض العهد أو الفكاك من رِبقة الخطبة بعد أن تهب نفسها لخطيبها ـ في مخدع الهوى.

لقد عَقدا العزم على استطلاع دار كلير ـ في تلك الليلة الليلاء. وكانت هياسنث قد ألحت ـ في طلب ذلك قبل أسبوع خَلَا، بيد أن غاريث صرفها عن مأربها تريثًا، إذ رأى أن الوقت لم يحن بعدُ لتحريك بيدق خطته، فافترى قصةً تزعم أن والده يستقبل زمرةً من الأضياف؛ إذ يقضي المنطق بأن تقع غارتُهما والدارُ خاويةٌ على عروشها. وهياسنث، بجبلّتها التي تميل إلى الحزم والعمل، لم تجد بدًا من الإذعان.

أما الليلة، فالموعد مثاليٌّ لا ريب فيه؛ إذ يُرجَّح أن والده يرفل ـ في أروقة حفل آل موترام، هذا إن قُدّر لهما بلوغ دار كلير أصلًا. والأهم من ذلك كله، أن هياسنث باتت مهيأةً لتلك اللحظة؛ بل إنه هو من تعهدها بالتهيئة حتى أينعت ثمارُها.

لقد كانت الأيام العشرون المنصرمة مفعمةً ببهجةٍ لم يحسب لها حسابًا، إذ أُكره على ولوج حشدٍ من المحافل والرقصات، وشهد عروض "الأوبرا" والملاعب، بيد أنه خاض ذلك كله وهياسنث ـ في ركابه، فتبخرت من رأسه كل شبهة شكٍّ ـ في حصافة قراره بالاقتران بها. فبرغم خُلُقها الذي يورث الحنق أحيانًا، وسجاياها التي تستثير الغيظ أطوارًا، إلا أنها كانت أبدًا مؤنسةً للروح، مُذهبةً للسأم. ستكون زوجةً صالحةً بلا مراء؛ ربما لا تليق بجُلّ الرجال، ولكنها تليق به هو وحده، وهذا هو غاية المراد.

بيد أن عليه أولًا أن يوثق الرابطة بحيث لا تجد سبيلاً للفرار، ويجعل ميثاقهما أبديًا لا ينفصم. لقد شرع ـ في استمالتها وئيدًا، يفتنها بنظراتٍ تسرق اللب، ولمساتٍ تُذكي الجوى، وقُبلاتٍ تُختلس ـ في غفلة من الرقباء. كان يداعب خيالها، ويترك لها دائمًا قبسًا مما قد ينجلي عنه الغيب ـ في الخطوة التالية، حتى أورثها – بل وأورث نفسه – تلاحقًا ـ في الأنفاس ينمُّ عن وَجْدٍ عارم.

لقد بدأ هذا التدبير قبل أسبوعين، حين طلب منها الزواج، وهو يعلم أن خطبتهما لا بد أن تتبعها مراسيمُ عاجلة. بدأها بقبلة؛ مجرد قبلة صغيرة. أما الليلة، فسيُريها ما عسى أن تكون عليه القبلات في محراب الهوى.

أما هياسنث، فقد كانت تُحدث نفسها وهي تحث الخطى صُعُدًا نحو مخدعها، بأن الأمور قد جرت على سدادٍ وتوفيق. كانت تؤثر البقاء في دارها لتستعد لغارتها على دار كلير، بيد أن غاريث نبهها إلى أن اعتذاره عن حفل آل موترام يوجب حضورها هي، لئلا تلوك الألسن سيرتهما وتظن الظنون بمكانهما. وبعد كدح ثلاث ساعات في الحوار والضحك والرقص، انتحت بوالدتها جانبًا وتعللت بصداعٍ يلمُّ برأسها. ولما كانت فيوليت مأخوذةً ببهجة الحفل، فقد آثرت البقاء وأرسلت هياسنث في العربة وحيدةً نحو الدار.

كل شيء جرى وفق ما اشتهت النفس؛ فالعربة لم يَعُقْ مسيرَها زحامٌ، فبلغت الدار عند منتصف الليل تمامًا، مما منح هياسنث خمس عشرة دقيقةً لتبديل ثيابها والتسلل عبر الدرج الخلفي لانتظار غاريث. كانت تتلظى شوقًا لتلك المغامرة؛ ولم تكن موقنةً بالعثور على الجواهر في تلك الليلة، فربما تركت إيزابيلا وراءها مزيدًا من الألغاز، بيد أنهما سيغدوان قاب قوسين أو أدنى من بغيتهما.

أتراها كانت تحمل في جبلّتها هذا النزوع نحو التهور دائمًا؟ أتراها كانت تهتز طربًا للمخاطر؟ أكانت ترقب الفرصة السانحة لتطلق العنان لجموحها؟

تسللت في رفقٍ عبر الرواق العلوي نحو باب مخدعها، وكانت الدار غارقةً في صمتٍ مهيب، ولم تكن ترغب في إيقاظ الحشم. مدت يدها وأدارت مقبض الباب المدهون بالزيت، فدفعته في هدوء وانزلقت إلى الداخل. وأخيرًا، لم يبقَ عليها إلا أن...

قال صوتٌ فجأة:

– " هياسنث."

كادت تطلق صرخةً يتردد صداها في أرجاء القصر. لَهَثَتْ وقد اتسعت عيناها ذهولاً:

- "غاريث؟"

يا للهول! كان الرجل متكئًا فوق فراشها ـفي دعةٍ واسترخاء.

افترَّ ثغره عن ابتسامةٍ مريبة وقال:

- "لقد كنت ـفي انتظارك."

أجالت بصرها ـفي أرجاء الغرفة بذعر، متسائلةً كيف ولج الحصن:

- "ما الذي تصنعه هنا؟" همست بفزع.

أجاب بصوتٍ يقطر رخاوةً، بيد أن عينيه كانتا تقدحان ذكاءً وحدة:

- "لقد وافيت الموعد باكرًا، فاستهواني الانتظار ـفي مخدعك."

- "هنا؟"

هز كتفيه متبسمًا:

- "لقد كان القرُّ يلفح الآفاق ـفي الخارج."

كذب الرجل؛ فقد كان الجو دافئًا دِفئًا غير معهود، والكل كان يتحدث عن ذلك.

- "وكيف تسللت إلى الداخل؟" يا لله! هل علم الحشم بأمره؟ هل أبصره أحد؟

- "تسلقت الجدار."

- "تسلقت الجـ... ماذا؟" هرعت نحو النافذة، ترمق الأرض بذهول: "وكيف تسنى لك..."

بيد أنه نهض من الفراش وتسلل خلفها، وطوقت ذراعاه خصرها، ووشوشها بصوتٍ خفيضٍ دنا من أذنها:

- "إني لَذو مَكرٍ وطَوْل."

أطلقت ضحكةً يغلفها التوتر:

- "أو لعلك من فصيلة الذئاب."

أحسّت بابتسامته تداعب صفحة وجهها:

- "وهذا أيضًا." ثم أردف بعد هنيهة: "لقد افتقدتك."

– "إني..." أرادت أن تقول إنها افتقدته أيضًا، بيد أن دنوّه كان يسرق منها الكلمات، وحرارة أنفاسه أخرست لسانها.

أمال رأسه، فاستقرت شفتاه عند تلك البقعة الرقيقة أسفل أذنها، ولمسها لمسةً لم تدرِ أهي قبلةٌ أم نَفحةُ سِحْر، ثم تهمس:

– "أبلغتِ غاية الحبور في سهرتك الليلة؟"

– "أجل... كلا... لقد كنتُ جدًّ..." ابتلعت ريقها عاجزةً عن مدافعة لمسة شفتيه دون اضطراب: "...جدَّ قلقة."

أمسك كفيها، ولثم كل واحدةٍ منهما بدلال:

– "قلقة؟ ولِمَ ذلك يا فتنة الروح؟"

– "الجواهر." هكذا ذكرته. يا لَلعجب! أتجد كل امرأةٍ هذا العناء في التنفس حين تدنو من رجلٍ وسيمٍ إلى هذا الحد؟

– "آه، أجل." استقرت يده عند خصرها، وجذبها نحوه جذبًا آثمًا: "الجواهر."

– "ألا ترغب في..."

– "بل إني أرغب." وشوشها وهو يضمها إليه ضمةً تخدش حياء العذارى: "أرغبُ جدًا."

– "غاريث." لَهثت، فقد استقرت يداه حيث لا ينبغي، وشفتيه تداعبان نحرها، فلم تَعُدْ توقن أتقوى ساقاها على حملها بعد الآن أم تخرُّ صريعة الهوى.

لقد كان يفعل بها الأفاعيل، ويستثير في كوامنها أحاسيس مجهولة النَّسَب، فكانت تئن وتزفر، ولا تدرك من أمرها إلا أنها تنشد المزيد.

وشوشها ملامسًا بشرتها:

– "إني أتخيلكِ في كل ليلة."

– "أحقًا تفعل؟"

كان صوته كالخرير يتردد في أعماق نحرها:

– "أجل. أضطجع في فراشي، متمنيًا لو كنتِ ضجيعتي هاهنا."

استنفدت كل ذرة من قوتها لتمسك برمق أنفاسها، بيد أن نزوعًا عارمًا في سويداء روحها الجموح دفعها لتقول:

- "وفيمَ تفكر حينها؟"

ضحك بزهوٍ جليٍّ وقد راقه سؤالها:

- "أفكر في فعل هذا." ووشوشها بينما ضمت يده خصرها بقوةٍ ألصقتها به لِتَشْعُرَ بعنفوان رغبته. أطلقت صوتاً خافتاً، لعلها كانت تناديه باسمه.

- "وأفكر كثيراً في فعل هذا." هكذا قال وهو يفك بإبهامه الماهر أحد أزرار ثوبها الخلفية. غصَّت هياسنث بريقها، ثم ازدادت غصتُها حين أدركت أنه حلَّ ثلاثةً أخرى في لمحة بصر.

- "ولكن أكثر ما أفكر فيه هو فعل هذا." أردف بصوتٍ رخيمٍ مُترع بالنعومة.

وحملها بين ذراعيه، فتمايلت أطراف ثوبها حول ساقيها بينما انزلق صدرُه ليستقر فوق نهديها في وضعٍ يُنذر بالخطر. تشبثت بمنكبيه، وأرادت أن تنطق بكلمةٍ تُبدي فيها تمدنًا وخبرةً تفوق حقيقتها، بيد أنها لم تقوَ إلا على إطلاق زفرةٍ مبهوتة:

- "أوه!"

حينما استشعرت خفة جسدها، وكأنها تطفو في أثيرٍ من السحر، حتى ألحدها برفقٍ فوق وثير فراشها.

ثم اضطجع إلى جوارها، مائلاً بجسده، يُرسل أنامله لتعبث في دعةٍ ببشرتها الوضيئة عند نحرها، وهمس بصوتٍ يذوب رقة:

- "يا للحسن الباهر! ويا لرقة هذا الملمس!"

همست بوهنٍ يكاد لا يُبين:

- "ماذا تصنع؟"

فافترَّ ثغره عن ابتسامةٍ تشبه ابتسامة السنور العارف بخبايا الصيد:

- "أتسألين عما أصنعه بكِ؟"

فأومأت برأسها إيجابًا.

– "إن ذلك رهينٌ بما تستشعره جوارحكِ." ثم أهوى برأسه ليداعب بلسانه ذلك الموضع الذي كانت تعبث به أنامله قبل قليل، وأردف: "أجيبي، كيف تجدين وقع ذلك في نفسكِ؟"

فاعترفت بصدقٍ قائلة:

– "لستُ أدري."

فانطلقت منه ضحكةٌ خافتة، كانت نغمتها تفيض بالدفء وتُثلج الصدر، وقال وهو يعبث بأزرار ثوبها المنحسر:

– "هذا أمرٌ حسن، بل هو غاية الحسن."

ثم جذب الثوب في رفق، فشهقت هياسنث حينما تجردت من دثارها، وباتت ملقاةً في مهب النسيم والليل، وأمام ناظريه.

همس وهو يرمقها بنظرةٍ تُذكي في القلوب النيران:

– "يا لبهائكِ الأخاذ!"

وتساءلت في سرها إن كان لمسُه سيتركها فريسةً لضيق الأنفاس كما فعلت نظرته. لم يكن يفعل شيئًا سوى التفرس في جمالها، بينما كانت هي مشدودة الأعصاب، ممتلئةً بالتوق والترقب.

تمتم بكلماتٍ كأنها الدر المنثور:

– "إنكِ لبارعة الحسن." ثم مد يده ليلمس طرف نهدها لمسةً خفيفةً كأنها مسُّ النسيم لبتلات الزهور.

أوه، أجل! لقد كان للمسه أثرٌ يفوق أثر نظراته بمراحل.

لقد استشعرت وقع ذلك في أحشائها، وبين جوانحها، وحتى في أطراف قدميها، فلم تملك إلا أن تنثني نحوه، تطلب مزيدًا من الدنو، وشيئًا من القوة والصلابة.

– "كنتُ أحسبكِ كاملةً." هكذا قال وهو ينقل فتنته إلى الجانب الآخر: "بيد أني لم أكن أدرك الحقيقة.. لم أكن أدركها أبدًا."

همست متسائلة:

– "وأي حقيقةٍ تعني؟"

فالتقت عيناه بعينيها في نظرةٍ كأنها القيد:

– "إنكِ أسمى من الكمال.. أبهى من التمام."

– "هذا.. هذا ممتنع." قالتها والاضطراب يغلبها: "فلا يمكن.. أوه!"

لقد أتى بفعلٍ أكثر مكرًا، وإذا كانت هذه معركةً لإثبات الرزانة، فقد خسرتاها شر خسارة.

سأل ببراءةٍ مصطنعة، وأنامله تعبث بفتنتها حتى أحالتها إلى اتقادٍ لا يُوصف:

– "وما هو الممتنع الذي لا أقدر عليه؟"

– "لا يمكن للمرء أن يصنع.. أن يصنع.."

– "أحقًا لا أقدر؟" ابتسم دهاءً وهو يواصل فتنته: "أظنني أقدر، بل أظنني فعلتُ للتو."

لَهثت قائلة:

– "كلا، فلا يمكن أن يكون هناك ما هو أسمى من الكمال، فهذا خروجٌ عن مقتضى البيان."

وعندئذٍ سكن تمامًا، مما أورثها دهشةً بالغة، بيد أن نظراته ظلت متقدة، وبينما كانت عيناه تجوبان مفاتنها، شعرت بوقع وجوده يتخلل كيانها.

همس قائلاً:

– "هذا ما كنتُ أحسبه؛ فالكمال غايةٌ مطلقة، أليس كذلك؟ فلا يمكن للمرء أن يكون فريدًا بعض الشيء، ولا يمكن أن يكون أتمَّ من التمام.. بيد أنكِ، لسببٍ أجهله، قد حطمتِ هذه القاعدة."

– "فريدةٌ بعض الشيء؟"

اتسعت ابتسامته في دعة:

– "أسمى من الكمال."

مدت يدها لتلمس صفحة وجهه، ثم نحَّت خصلةً من شعره وأودعتها خلف أذنه، فبدا ضوء القمر كأنه يسبك شعره سبك الذهب الإبريز.

لم تدرِ ما تقول، ولم تعلم ما تصنع، وكل ما علمتْه في تلك اللحظة أنها استسلمت لسطوة حُبها لهذا الرجل.

ولم تكن تدري متى وقعت في شراك هذا الهوى؛ فلم يكن الأمر كقرارها بالزواج منه، والذي جاء بغتةً وجلاءً، بل كان هذا الحب يتسلل إلى حشاشتها وئيدًا، وينمو في صمتٍ حتى استوى على سوقه وملك عليها أقطار نفسها.

والآن، وهي مضطجعةٌ فوق فراشها، في سكون الليل المستتر، أرادت أن تهب له نفسها، وأن تحبه بكل ما تملكه امرأةٌ من وجدٍ لرجل، وأرادت منه أن ينهل من كل ما تجود به نفسها. ولم يكن يهمها إن لم يقع القِران بعد؛ فإنه كائنٌ لا محالة.

وفي تلك الليلة، لم تطق صبرًا.

همست قائلة:

– "قَبِّلني."

ابتسم، وبدا حبوره في عينيه أبلغ مما بدا على شفتيه:

– "كنتُ أحسبكِ لن تطلبيها أبدًا."

أمال رأسه، بيد أن شفتيه لم تلمسا شفتيها إلا لمحةً عابرة، بل انحرف بهما نحو الأسفل، ينفث حرارة أنفاسه فوق بشرتها حتى عثر على بغيته، وعندئذٍ...

– "أوه!" أنت أنين الوجد. أيعقل أن يأتي بمثل هذا الفعل؟

لقد فعل، وأمعن في الفعل.

سرت في جسدها لذةٌ صِرفة، تداعب كل ركنٍ في كيانها. تشبثت برأسه، وغاصت أصابعها في شعره الكثيف المسترسل، ولم تدرِ أكانت تجذبه نحوها أم تدفعه عنها. خُيل إليها أنها لن تقوى على مزيدٍ من الاحتمال، ومع ذلك لم تكن تريده أن يكفَّ عما يصنع.

لَهثت:

– "غاريث.. إني.. أنت.."

كانت يداه كأنهما في كل مكان، تلمسانها وتداعبانها، وتدفعان ثوبها هبوطًا.. وهبوطًا.. حتى استقر عند خصريها، على بُعد شبرٍ من كشف المكنون من أنوثتها.

بدأ الذعر يتسلل إلى صدر هياسنث؛ كانت تنشد هذا الوصال، بيد أنها شعرت فجأةً برهبةٍ لم تعهدها.

قالت:

– "لستُ أدري كيف السبيل إلى العمل."

اعتدل في جلسته، ونزع قميصه بقوةٍ أذهلتها:

– "لا عليكِ، فإني أدري."

– "أعلم ذلك، ولكن.."

وضع أنملته فوق شفتيها ليحبس أنفاس القول، وهمس:

– " صهٍ، ودعيني أكون هاديكِ في معارج هذا السحر."

ثم ألقى عليها نظرةً تفيض دهاءً ومرحاً، وتلجلج صوته متهكماً وهو يتساءل بصوتٍ مسموع:

– " أترى نفسي تجسر على اقتحام هذا الحِمى؟ وهل يليق بي أن... لعلّ القَدَر يشاء..."

ثم رفع إصبعه عن ثغرها.

فنطقت في توها:

– " بيد أني أخشى أني سأ..."

فأعاد إصبعه مكانه ليلجم لسانها، وقال:

– " كنت موقناً أن هذا ما سيبدر منكِ."

فرمقته بنظرةٍ شزراء، أو هكذا خُيِّل إليها أنها تفعل، فقد كان لـ غاريث قدرةٌ عجيبة على جعلها تضحك من حماقات نفسها. وشعرت بشفتيها تختلجان ببسمةٍ مكتومةٍ رغم محاولته إلجامَهما بصمتٍ مفروض.

سألها غاريث وهو يرمقُها بابتسامةٍ ودودة:

– "أتَلزمينَ الصّمتَ يا مَليحةَ الحِجا؟"

فأومأتْ برأسِها إيجابًا.

فتظاهرَ بالتدبّرِ والتروّي قائلاً:

– "لستُ أحسبُني أصدّقُ ما أرى."

وعندئذٍ، وضعتْ يدَيها فوق خصرِها ـفي وثوقٍ، وهو مَوقفٌ يجمعُ بين الجلالِ والفكاهةِ، إذ كانت لا تزالُ عاريةَ الصّدرِ أمامَ ناظرَيه.

تابعَ غاريث قولَهُ وقد استسلمَ لمشيئتِها:

– "حَسَنٌ ما رأيتِ، بَيدَ أنّي لنْ آذنَ لِلسانِكِ أنْ يَنطقَ إلا بِثلاث: (أوه يا غاريث)، و(نعم يا غاريث)، و(زدني يا غاريث)."

ثم رفعَ أنملتَهُ عن ثغرِها.

فباغَتَتْهُ قائلةً:

– "وماذا عَن قولِ: (أرجوكَ زِدني يا غاريث)؟"

فجاهدَ لِيحفظَ وقارَ وجْهِهِ من الضحكِ وقال:

– "هذا مِمّا يُقبلُ ولا يُردّ."

أحستْ هياسنث بموجةٍ من الحُبورِ تَجتاحُ كَيانَها؛ لم تَنبسْ بِبنتِ شفةٍ، لكنّها استشعرتْ ذلكَ الشُّعورَ الطّروبَ الذي يَتراقصُ ـفي أحشائِها كأنه خَفقُ أجنحةِ الفَراش. وعجبتْ كيفَ استطاعَ هذا الرّجلُ أنْ يَنزعَ عنها رِداءَ الوَجلِ والقَلَقِ ويُبدلَها أمْنًا وسكينةً.

لقد بدّدَ مَخاوفي بِلحظةٍ، وكأنّ سِحرهُ قد صَيّرَ المَجهولَ مَألوفًا.

كانتْ تُدركُ ـفي قرارةِ نَفسِها أنّ الأمورَ ستكونُ على خَيرِ ما يُرام؛ لَعلهُ فعلَ هذا مِرارًا، ولَعلهُ خاضَ غِمارَ هذهِ اللذّةِ مع مِئاتِ النّساءِ اللاتي يَفُقْنَها بَهاءً وجمالاً، لكنّ ذلكَ لمْ يَكنْ لِيَعنيها ـفي شيء، فالمُهمُّ أنّهُ كانَ فاتِحَ مَغاليقِ قلبِها، وأنّها ستكونُ مَرفأَهُ الأخير.

اضطجعَ إلى جِوارِها، وجذبَها لِتَستريحَ فوقَ مَنكِبِهِ قبلَ أنْ يَنهلَ من لَثامِها لَثمةً ثانية. غاصتْ أصابعُهُ ـفي شَعرِها، فنثرتْ خُصلاتِهِ الحريريّةَ لِتَنسكبَ فوقَ ظَهرِها كأنّها شَلّالاتٌ من نور. استشعرتِ الانعتاقَ من رِبقةِ التّقاليد، والتحرّرَ من قُيودِ الحَياءِ العليل.

أرسلتْ يَدَها لتَستكشفَ مَآثِرَ صَدرِهِ، وتَتَحسّسَ نُعومةَ بشرتِهِ وصلابةَ مَفتولِ عَضلاتِهِ الكامنة. أدركتْ أنّها لمْ تلمسْهُ قَطُّ بهذا القُربِ، فأخذتْ أنامِلُها تَرسمُ مَساراتٍ فوقَ خَصرِهِ، وتَتعقّبُ حُدودَ ثِيابِهِ.

شَعَرَتْ بِزفراتِهِ تَتلاحقُ كُلّما لامَسَتْهُ، وحينَ استقرّتْ يَدُها عندَ مَوضعِ السّرّة، استنشقَ الهواءَ في حشرجةٍ مَكتومة.

ابتسمتْ هياسنث وهي تَشعرُ بسَطوتِها كامرأةٍ مَكتملةِ الأنوثة. أخذتْ تَعبثُ بأظافِرِها فوقَ جِلدِهِ رِفقًا، تُداعبُهُ وتُثيرُ كَوامِنَ شَوقِهِ. كانَ بَطنُهُ مَمشوقًا، يَزدانُ بِنبتٍ خَفيفٍ من الشّعرِ يَنحدرُ لِيختفيَ تحتَ رِدائِهِ.

هَمستْ في أُذنِهِ:

– "أيَروقُكَ هذا المَسُّ يا سَيدي؟"

فأجابَها بِصوتٍ يَفيضُ رُخاوةً، وإنْ شابَهُ تَهَدُّجُ الأنفاس:

– "أوه، نَعَمْ."

– "وماذا عنْ هذا؟"

– "حُلّي هذهِ الأزرارَ."

توقّفتْ يَدُها لِوهلة؛ أكانَ عَلَيها هيَ أنْ تُعينَهُ على التّجرّدِ من بَقيةِ ثِيابِهِ؟ لَقَد حَسِبَتْ أنّ ذلكَ دأبُ الغاوِينَ من الرّجال. بَيدَ أنّهُ تناولَ كَفّها ووجّهَهُ نَحوَ غايتِهِ. وبِأصابعَ مُرتعشة، أخذتْ هياسنث تَحُلُّ عُقَدَ الأزرارِ واحداً تِلوَ الآخر، بَيدَ أنّها لمْ تَجرؤْ على نَزعِ الثّيابِ نَزعًا، فما زالَ في نَفسِها بَقيةٌ من تَرَدّد.

أدركَ غاريث ما يَعترِيها من وَجل، فوثبَ عن الفِراشِ وَثبةً خَفيفة، وما هيَ إلا لَحظةٌ حتى تَخلّصَ من كلِّ عائقٍ يَحُولُ بينَهُ وبينَ صَبوتِهِ. شاحتْ هياسنث بِبَصرِها عنهُ في بَداءةِ الأمر، لَكنّ جَمالَ مَنظَرِهِ غَلَبَ حَياءَها.

– "يا لَجَـ..."

قاطعَها وهو يَعودُ لِيتبوأَ مَكانَهُ بِجانِبِها:

– "لا تَبتئسي يا نُورَ العين." لَثَمَ نَحْرَها وأردف: "ولا يَدخُلَنَّ الرّوعُ قَلبَكِ أبدًا."

أرادتْ أنْ تُنبِئَهُ بِثِقتِها المُطلقةِ فيه، بَيدَ أنّ أناملَهُ التي تَسلّلتْ بينَ ساقَيها لَجمتْ لِسانَها، فلمْ يَبْقَ فيها مَوضعٌ لِغيرِ تلاحقِ الزّفرات.

أخذَ يُناغيها بِصوتٍ رَخيمٍ داعيًا إيّاها لِلاستكانةِ واللّين:

– "اِستكيني لِقَدَرِ الوجد، واطرحي عَنكِ كُلَّ كُدرة."

لَهثتْ قائلة:

– "إنّي مُستكينة."

– "كلا، بَلْ أراكِ لا تَزالينَ مُتوجّسة."

– "بَلْ أنا..."

فأهوى بِقبلةٍ حانيةٍ فوقَ مَرسمِ أنفِها، ووشوشَها:

– "ثِقي بي؛ في هذهِ اللّحظةِ الفاصلة، أَسلِمي لي قِيادَكِ."

حاولتْ أنْ تَبسطَ نَفسَها لِلرّاحة، لَكنّ ذلكَ غدا مَطلبًا عَسيرًا وهو يُحوّلُ جَسدَها إلى أتونٍ من الشّوقِ والاحتراق. تارةً تَستشعرُ لَمساتِهِ فوقَ مَحاسنِها، وتارةً يَنفذُ إلى مَواطنَ لمْ تَعرفْها من جَسدِها قَطّ.

تَقوّسَ ظَهرُها في رَعشةٍ مُفاجئة، ولمْ تَدْرِ ما صَنيعُها، ولا ما يَنبغي قَولُهُ، بَلْ لمْ تَعُدْ تَميزُ كُنهَ ما تَستشعر.

هَمسَ في أُذنِها:

– "أنتِ الكمالُ بِعينِهِ، بلْ أنتِ بَهاءُ التّمام."

لَهثتْ قائلة:

– "يا غاريث، ماذا تَصنَع؟"

– "إنّي أُصيّرُكِ لي زوجة ومَعشوقة."

خَفَقَ قلبُها في صدرِها خَفقانَ الطّيرِ الذّبيح؛ لمْ تَكنْ تلكَ كَلمةُ (أُحبّكِ) صَراحةً، لَكنّها كانتْ تُدانيها في المَعنى والجَلال. وفي تِلكَ اللّحظةِ التي كادَ عَقلُها يَنفذُ فيها من بَينِ جَوانحِها، أحستْ بِهِ يَغزو مِحرابَ صَبوتِها.

– "غاريث!"

تَشبّثتْ بِمَنكِبيهِ بِقوةٍ، فنهاها بِصوتٍ يَنضحُ مَكراً:

– "صهٍ.. أتَبغينَ إيقاظَ الحَشم؟"

لَهثتْ بغيرِ وَعي:

- "لَسْتُ أبالي بِهم."

رَمقَها بِنظرةٍ مِلؤُها التّسلّي، ثمّ أمعنَ في صَنيعِهِ حتى أَخرجَها عن طَورِها.

- "أظنُّكِ سَتُبالين."

- "كلا.. بلْ إنّي.. أوه!"

شَعرتْ بِهِ يَستقرُّ فَوقَها، وأنفاسُهُ تَلتقي بِأنفاسِها، وغاصتْ في زُرقةِ عَينيهِ التي تُشبهُ لُجّةَ البَحار. هَمستْ باسمِهِ بِنبرةٍ لا تَحملُ سؤالاً ولا رَجاءً، بَلْ هيَ إقرارٌ بِسلطانِهِ عليها. كانَ لِقاؤُهما مِحرابًا مُقدّسًا، تُعزفُ فيهِ أوتارُ الهوى.

وَلجَ مِحرابَ وَجدِها وئيدًا، فحبستْ أنفاسَها من هَولِ ما استشعرتْ من جَلالِ الوِصالِ وعُنفوانِهِ.

هَمسَ لَها:

- "لا تَجزعي."

بَيدَ أنّ صَوتَهُ لمْ يَكنْ صَوتَ رَجلٍ آمِن، بَلْ بَدتْ تَقاطيعُ وجْهِهِ مُتشنّجةً، وأنفاسُهُ مُتلاحقةً كأنّها الصّعداء.

ظَلَّ ساكِنًا لِيمنحَها بَعضَ الوَقتِ لِتعتادَ جُرأتَهُ، ثمّ اندفعَ نَحوَ غايتِهِ، فشهقتْ من وَقعِ ذلكَ الاجتياح.

- "اِستكيني لِلذّة."

فأجابتْ بِنبرةٍ حادّة:

- "إنّي أُحاولُ جُهدي."

كادَ غاريث يَبْتسم؛ ففي قولِها هذا تَتجلّى شَخصيّةُ هياسنث التي لا تَتغيّرُ مَهما تَبَدّلتِ الظّروفُ؛ هيَ هيَ، بِعنفوانِها وحَزمِها، حتى في أحرجِ لَحظاتِ حَياتِها وأغربِها.

اندفعَ ثانيةً، فَشعرتْ بِهِ يَتغلغلُ في أوصالِها، ويَطوي مَسافاتِ الغُربةِ بَينهما. كانَ يَبْتغي ألا يُصيبَها بِأذى، وكانَ يَعلمُ أنّ صُنوفَ الألمِ لا مَفرَّ منها،

لَكِنَّهُ عاهدَ نَفْسَهُ أنْ يَجعلَ تِلكَ اللّيلةَ آيةً ـفِي الكمال، ولوْ كانَ ـفِي ذلكَ مَهلكتُهُ صَبَرًا وتأنّيًا.

كانتْ جُثّةً هامدةً تحتَهُ، تَكزُّ على أسنانِها تَرَقُّبًا لِما سَيأتي. كادَ غاريث يَئِنُّ كَمَدًا؛ لَقَد أعدَّها إعدادًا بَليغًا، بَيدَ أنّها الآنَ تَبذلُ جُهدًا جَهيدًا ـفِي التّظاهرِ بِالرّزانةِ حتى غَدَتْ صَلابةُ عُودِها تُشبهُ صَلابةَ سِياجٍ من حديد.

لَمسَ سَاقَها، فوجدَها مُتصلّبةً كأعوادِ الشّجر.

هَمسَ ـفِي أُذنِها بِصوتٍ يَكادُ يَخنقُهُ الضّحك:

– "يا هياسنث، لَقَد كُنتِ قَبلَ دَقائقَ ـفِي حالٍ أفضلَ مِمّا أنتِ عليهِ الآن."

سادَ صَمْتٌ لَحْظيّ، ثمّ قالت:

– "لعلَّ قَوْلَكَ هذا حَقٌّ لا مِريةَ فيه."

عَضَّ على شَفَتِهِ لِكيلا يَنفجرَ ضاحكًا:

– "أَتظنّينَ أنّكِ قادرةٌ على العَوْدَةِ لِمَقامِ الغِبْطةِ والسُّرور؟"

زَمّتْ شَفَتَيها بِتلكَ الحركةِ التي يَعرفُها عَنها حِينما تُدركُ أنّهُ يُداعبُ لُبَّها:

– "نَعَم، إني أَرومُ ذلك."

لمْ يَمْلِكْ إلا الإعجابَ بِرصانتِها؛ فَقلّةٌ من النّساءِ مَنْ يَحتفظنَ بِهدوئِهنَّ ـفِي مِثلِ هذا المَقام. أهوى بِلِسانِهِ خَلفَ أُذنِها، لِيَصرفَ خَلَجَها بَينما تَسلّلتْ يَدُهُ لِتُداعبَ مَواطِنَ فِتنتِها.

– "لَعلي أستطيعُ مَدَّ يَدِ العَوْنِ لَكِ ـفِي هذا الشّأن."

– "أيَّ شَأن؟" لَهثتْ، وأدركَ من اضطرابِ جَسدِها أنّها قَد أوشكتْ على الانغماسِ ـفِي بَحارِ السَّدَم.

– "أقصدُ ذلكَ الشُّعورَ الطّروب.. شعُورَ (أوه يا غاريث)، و(نعم يا غاريث)، و(زدني يا غاريث)."

أطلقتْ أنيناً مَشوُبًا بِالرّنينِ بَينما كانتْ أناملُهُ تَرسُمُ مَساراتٍ من النّعيم:

– "أوه.. إنّهُ ذلكَ الشُّعورُ بِعينِهِ."

– "إنّهُ شعُورٌ سَنيّ، أليسَ كذلك؟"

– "إنّهُ سَيُرديني.. أوه!" أَحكمتْ إِطباقَ ثَناياها وهيَ تَئنُّ مِمّا استشعرتْ من لَذّةٍ تَفتكُ بِصبرِها.

– "إلى أينَ سَيُرديكِ؟" سألَها بَعدَ أنْ غدا قابَ قَوْسَينِ أو أدنى من بُلوغِ تَمامِ الوِصال. وأيقنَ في نَفسِهِ أنّهُ يَستحقُّ وِسامًا على هذا الصّبرِ الجَميل، فَمَا حَسِبَ أنّ رَجُلاً قَد بَلغَ مَبلغَهُ من كَبْحِ الجِماحِ قَطّ.

– "سَيُلقي بي في مواردِ التّهلكة."

– "هذا ما أَرْجُوهُ وأَنْشُدُه."

ثمّ اندفعَ اندفاعةً أخيرة، جَعلتْهُ يَستقرُّ في أعماقِ صَبوتِها. ارتعشَ جَسدُهُ بَينما استشعرَ اضطرابَها حَوْلَهُ. كانتْ كُلُّ عَضلةٍ في جَسدِهِ تَصرخُ طَلَبًا لِلحراك، بَيدَ أنّهُ ظلَّ ساكِنًا، آخِذًا بِمبدأِ الرِّفقِ بـعروسِهِ في أوّلِ عَهْدِها بِالوصال، كَيْلا تَبقى في ذاكرتِها غَصّةُ ألمٍ تُكدّرُ صَفوَ مَواجيدِها.

بَيْدَ أنَّ هياسنث، وإنْ شَابَها شَيْءٌ من التّوجُّع، لمْ تَعُدْ تَشعرُ بِه، إذ بدأتْ تَتجاوبُ مَعَهُ في رَقصةِ الجَوى، وباتَ وجْهُها مِرآةً لِصَبابةٍ لا تُرد. وعندئذٍ، انفصمَ عُرُى اصطبارِهِ، واستسلمَ لِتيّارِ الرّغبةِ العارم.

أخذَ يَتجاوبُ مَعها في إيقاعٍ يَفيضُ وَجدًا، وتَصاعدتْ أشواقُهُ حتى خُيِّلَ إليهِ أنّهُ لنْ يَقوى على مَزيدِ احتمال، وحينما كانتْ تُطلقُ أنينًا خَفِيًّا، كانَ يَزدادُ نُزوعًا إِلَيها.

كانَ مَشهدًا سِحريًّا، مَحفوفًا بِآياتِ الإعجاز. تَشبّثتْ يَداهُ بِمَنكِبَيها بِقوةٍ قَد تَفوقُ قَدْرَ الرِّفق، بَيدَ أنّهُ لمْ يَستطعْ فَكَّ قَيْدِهِ؛ فَقَد تَمَلّكَهُ نُزوعٌ جَبّارٌ لِيَجعلَها مِلْكَ يَمينِهِ، ويَسِمَها بِوسمِ خُصوصيّتِهِ.

– "غاريث.. أوه يا غاريث."

كانَ صَوْتُها فَوقَ طاقةِ احتمالِهِ؛ صَوْتُها، ورَائحتُها، وَمرأَى جَمالِها، فَأَحسَّ بِنَفْسِهِ يَرتعشُ وهوَ يَقتربُ من مَرفأِ الانتهاء. كَزَّ على أسنانِهِ مُحاولاً التّمهُّلَ حَتّى تَبلُغَ مَعَهُ غايةَ المَراد.

لَهثتْ قائلة:

– "غاريث!"

أرسلَ يَدَهُ لِتَستكشفَ مَكامِنَ وَجدِها ثانية، وباشرَها بِعنفوانٍ لمْ يَخْلُ من الرّقةِ المَطلوبة. لمْ يُحِدْ بَصرَهُ عَن وجْهِها قَطّ، فَرأى عَيْنَيْها وقد استحالَ لَوْنُهُما إلى زُرقةٍ بَحريّةٍ عَميقة، وانفرجتْ شَفَتاها طَلَبًا لِلنَّفَس، وبدأتْ تَضطربُ تَحْتَهُ اضطرابَ المَوْجِ في البَحار.

– "أوه!" صَرختْ، فَبادَرَها بِقُبلةٍ لِيَحتويَ صَوْتَها بَينَ شَفَتَيه. كانتْ جَوارحُها تَرْتعدُ في رَعشةِ النّعيم، ثمّ أَسلَمتْ قِيادَها لِشُعورٍ طَاغٍ اكتسحَ كَيانَها. تَشبّثتْ بِمَنكِبيهِ وعُنقِهِ، وأغرزتْ أنامِلَها في بَشرَتِهِ.

بَيدَ أنّهُ لمْ يَكترث، فَمَا عادَ يَشعرُ بِشيءٍ سِوى بِتلكَ الضّغطةِ السّنيّةِ التي احتوتْهُ حتى بَلغَ غايةَ الارتواء. ثمّ لَثَمَها ثانيةً لِيُخفيَ صَرخاتِ وَجْدِهِ الخاصّة. لمْ يَكنِ الأمرُ كَما سَبَق، بَلْ كانَ فَتْحًا لمْ يَعرفْ لَهُ مَثيلاً.

تَنفّسَتْ هياسنث بصُعوبةٍ بَعْدَ أَنْ تَنحّى عَنْها:

– "يا لَلعجب! لمْ أكنْ أحسبُ الأمرَ هكذا."

فأومأَ برأسِهِ، وَقَد أَنهكتْهُ الصَّبابةُ عن النُّطق، بيدَ أنّهُ أَمسكَ بِيَدِها، فَمَا زالَ يَشدو التّواصُلَ مَعها.

– "لمْ أكنْ أعلمُ كُنْهَ هَذا النّعيم."

فأجابَها بصُعوبة:

– "ولا أنا أَيْضًا."

– "أهوَ دائمًا هكذا؟"

ضَغطَ على يَدِها، وحينما التفتتْ إليه، هَزَّ رأسَهُ نَفْيًا.

– " أوه." سادَ صَمْتٌ لَحْظي، ثمّ أردفت: "حَسَنٌ فِعلُنا بِالزّواجِ إذن."

انفجرَ غاريث ضاحِكًا.

– "ماذا هُناك؟" سألتْ مُستنكرة.

لمْ يَستطعِ النُّطق، بَلْ ظلَّ مُستلقيًا، وضَحِكاتُهُ تَهزُّ جَنباتِ الفِراش.

– "ما الذي يُثيرُ ضَحِكَكَ إلى هذا الحد؟"

اسْتَعادَ أنفاسَهُ، والتَفَتَ نَحْوَها حتى استقرَّ فوقَها ثانيةً، والْتقتِ الأُنوفُ بِالأُنوف:

– "أنتِ، يا فِتنةَ الرُّوح."

قَطّبَتْ جَبينَها لِوهلة، ثمّ انفرجتْ أساريرُها عَنْ ابتسامةٍ ماكرة.

يا للّه! كَمْ سأستمتعُ بِحياتي مَع هذهِ المرأة.

قالتْ:

– "أحسبُ أنّنا بِحاجةٍ لِتقديمِ مَوْعِدِ الزّفاف."

– "إِني على أُهْبَةِ الاستعدادِ لِاقتيادِكِ إِلى اسكتلندا في صَباحِ الغَد." وكانَ يَعني ما يقولُ بِصِدق.

– "لا يُمكِنُني ذلك." بَيدَ أنّ نَبرتَها وَشتْ بِرغبتِها في ذلك.

– "ستكونُ مَغامرةً كُبرى." قالَها وهوَ يُمرّرُ يَدَهُ فوقَ خَصْرِها لِيُغريَها بِالقَبول.

– "سأتحدثُ مَعَ والدتي، وإذا ما أَمعنتُ في إِزعاجِها، فإني مُوقنةٌ بِأني سأقصرُ مَدّةَ الخطبةِ إِلى النِّصْف."

– "هذا يَجعلُني أَتساءل: هَلْ يَنبغي لي كَزوجٍ مُستقبليٍّ أنْ أَقلقَ من جُملةِ (إذا ما أَمعنتُ في إِزعاجِها)؟"

– "ليسَ إذا ما نَزلتَ عندَ رَغباتي كُلِّها."

تَمْتَمَ قائلاً:

– "هذهِ جُملةٌ تُثيرُ قَلَقي أَكثَر."

فلمْ تَفعلْ شَيْئًا سِوى الابتسام. وفجأةً، وبَينما كانَ يَشعرُ بِتمامِ الرّاحة، صرختْ: "أوه!" وانسلّتْ من تَحْتِهِ.

سألَها وهوَ يَنغرسُ في الوَسائد:

– "ماذا دَهاكِ؟"

– "الجواهر!" قالتْ وهيَ تَتشبّثُ بِغطاءِ الفِراش: "لَقَد ذَهبتْ عَنْ بالي تَمامًا! يا للّه، كَمِ السّاعةُ الآن؟ عَلينا الرَّحيلُ فَوْرًا."

– "أتقوينَ على الحراك؟"

رَمشتْ بِعينيها: "وأنتَ لا تَقوى؟"

– "لو لمْ أكنْ مُضطرًا لِمغادرةِ هذا الفراشِ قَبْلَ الصباح، لكُنتُ قَنوعًا بِالغطيطِ في نَوْمٍ عَميقٍ حتى الهاجرة."

– "ولكنَّ الجواهرَ تَنْتظرُنا! ومُخططاتُنا تَدعونا!"

أغمضَ عَينيهِ: "يُمكِنُنا الذَّهابُ غَدًا."

– "كلا." ضَربتْهُ على مَنكِبِهِ بِراحةِ يَدِها: "لا نَستطيع."

– "ولِماذا؟"

– "لأنَّ لَدَيَّ مَشاغلَ أُخرى غَدًا، وسَيساورُ أمِّي الشَّكُّ إذا ما استمررتُ في التّعلُّلِ بِالصُّداع. وعلاوةً على ذلك، لَقَد عَقَدنا العَزْمَ على خَوْضِها الليلة."

فتحَ عَيْناً واحدة: "ليسَ وكأنَّ أحداً يَنْتظرُ قُدومَنا."

– "بَلْ إني ذاهبة." قالتْها وهيَ تَلُفُّ الغطاءَ حَوْلَ جَسدِها وتَهمُّ بِالنهوض.

رفعَ غاريث حَاجِبَيْهِ وهوَ يَرْمُقُ جَسدَهُ العارِي، ثمّ نَظرَ إلى هياسنث بِابتسامةِ رَجُلٍ فاتِح، فازدادتِ ابتسامتُهُ عَرْضاً حِينما احمرَّ وجْهُها وشاحتْ بِبَصرِها.

تَمْتَمَتْ وهيَ تَفرُّ نَحْوَ غُرْفَةِ الزّينة:

– "إني.. آ.. فَقَطْ أحتاجُ لِلاغتسال."

بِتثاقُلٍ مُصْطَنَع، شَرَعَ غاريث في ارتداءِ ثِيابِهِ، وعَجِبَ كيفَ لَها أنْ تُفكرَ في الخُروجِ بَعْدَ كُلِّ ما جَرى. ألمْ يكنْ من المَفروضِ لِمنْ كانتْ في مِثلِ حالِها أنْ تَشعرَ بِالوَهَنِ والتّعب؟

أطلّتْ بِرأسِها من بابِ غُرْفَةِ الزّينةِ هامسة:

– "لَقَد اشتريتُ حِذاءً مَتيناً، تَحَسُّباً لِحالاتِ الفِرار."

هَزَّ رأسَهُ؛ فَهيَ لَيستْ كَأيِّ امرأةٍ عَرَفها.

سألَها حِينَما خَرجتْ مُرتديةً ثِيابَ الرِّجالِ السّوداء:

– "أأنتِ واثقةٌ من رَغبتِكِ في القيامِ بهذا الليلة؟"

أجابتْ وهيَ تَعقدُ شَعرَها إلى الخَلْف:

– "بِكُلِّ تأكيد." رَفعتْ بَصرَها والابتسامةُ تُشرقُ في عَيْنيها: "وأنتَ.. ألا تَرْغب؟"

– "إني مُنهكٌ حدَّ العَياء."

– "حَقّاً؟" نَظرتْ إليهِ بِفُضُول: "أما أنا، فأَشعرُ بِنشاطٍ غَريبٍ يَموجُ في أوصالي."

– "أنتِ سَتكونينَ سَببَ هلاكي.. ألا تُدركينَ ذلك؟"

ابتسمتْ: "بَلْ أنالُ هذا الشَّرَفَ وَحْدي."

تَنَهَّدَ وقصدَ النّافذة.

سألتْهُ بِأَدَب:

– "أتريدُني أنْ أنْتظرَكَ في الأسفل، أمْ تُؤثرُ الهُبوطَ مَعي عَبْرَ الدَّرجِ الخلَفيّ؟"

تَوقفَ غاريث وقَد استقرّتْ إحْدَى قَدَميهِ على حَافَةِ النّافذة:

– "آه.. الدَّرجُ الخلَفيُّ سيكونُ مَسلكاً آمِناً."

ثمَّ تَبِعَها إلى الخارج.

الفصل الخامس عشر

في رحاب مكتبة كلير هاوس. لا حاجة لنا بسرد تفاصيل الرحلة عبر مايفير، سوى الإشارة إلى الطاقة المتدفقة والحماس المفرط لدى هياسنث، وما قابله من فتور لدى غاريث.

همست هياسنث:

- "هل ترى شيئًا؟"

- "كتبًا فقط".

رمقته بنظرة محبطة لكنها قررت عدم توبيخه على افتقاره للحماس. فمثل هذا الجدال لن يفعل سوى تشتيتهما عن المهمة التي بين أيديهما. قالت، مستجمعة أقصى ما تملك من صبر:

- "هل ترى أي أقسام يبدو أنها تتألف من عناوين علمية؟"

ألقت نظرة على الرف أمامها، والذي كان يحوي ثلاث روايات، وعملين فلسفيين، وتاريخًا لليونان القديمة في ثلاثة مجلدات، وكتابًا بعنوان رعاية وتغذية الخنازير. تنهدت:

- "أم أنها ليست مرتبة بأي نظام على الإطلاق؟"

جاء الرد من الأعلى، حيث كان غاريث يقف على كرسي خشبي صغير، يتفحص الرفوف العلوية:

- "نوعًا ما. ليس حقًا".

لوت هياسنث عنقها، ناظرة لأعلى حتى حصلت على رؤية جيدة إلى حد ما للجانب السفلي من ذقنه.

- "ماذا ترى؟"

- "الكثير جدًا حول موضوع بريطانيا القديمة. لكن انظري ماذا وجدت، محشورًا في الطرف".

التقط كتابًا صغيرًا من الرف وألقاه للأسفل.

التقطته هياسنث بسهولة، ثم قلبته بين يديها حتى أصبح العنوان مقروءًا.

- "لا!"

- "يصعب تصديق ذلك، أليس كذلك؟"

نظرت للأسفل مرة أخرى. هناك تمامًا، بحروف ذهبية: الآنسة دافنبورت والماركيز الأسود.

قالت:

- "أنا لا أصدق ذلك".

- "ربما ينبغي عليكِ أخذه للمنزل لجدتي. لن يفتقده أحد هنا".

فتحت هياسنث صفحة العنوان.

- "لقد كُتب بواسطة المؤلف نفسه الذي كتب الآنسة باتروورث".

علق غاريث وهو يثني ركبتيه لفحص الرف التالي للأسفل بشكل أفضل:

- "كان لا بد أن يكون كذلك".

- "لم نكن نعلم بوجود هذا الكتاب. لقد قرأنا الآنسة سينسبري والكولونيل الغامض، بالطبع".

- "حكاية عسكرية؟"

- "تدور أحداثها في البرتغال".

استأنفت هياسنث فحصها للرف أمامها.

- "لم تكن تبدو أصلية للغاية، مع ذلك. ليس، بالطبع، أنني زرت البرتغال قط".

أومأ، ثم نزل عن كرسيه وحركه أمام مجموعة الرفوف التالية. راقبته هياسنث وهو يصعد مرة أخرى ويبدأ عمله من جديد، على أعلى رف.

قال:

– "ذكريني. عم نبحث بالتحديد؟"

سحبت هياسنث الملاحظة كثيرة الطيات من جيبها.

– "Discorso Intorno alle Cose che stanno in sù l’acqua".

حدق فيها للحظة.

– "وهو ما يعني...؟"

– "مناقشة حول الأشياء الداخلية التي تكون في الماء؟"

لم تكن تقصد قولها كسؤال.

بدا متشككًا:

– "أشياء داخلية؟"

– "التي تكون في الماء. أو التي تتحرك فيه".

أضافت:

"Ò che in quella si muovono. –هذا هو الجزء الأخير منه."

– "وشخص ما قد يرغب في قراءة ذلك لآن...؟"

قالت وهي تهز رأسها:

– "ليس لدي أدنى فكرة. أنت خريج كامبريدج".

نحنح.

– "نعم، حسنًا، لم أكن مهتمًا كثيرًا بالعلوم".

قررت هياسنث عدم التعليق وعادت إلى الرف أمامها، الذي كان يحوي مجموعة من سبعة مجلدات حول موضوع علم النبات الإنجليزي، وعملين لـ شكسبير، وكتابًا سمينًا نوعًا ما بعنوان بسيط: الزهور البرية.

قالت وهي تعض شفتها السفلى للحظة بينما تنظر مرة أخرى إلى العديد من الرفوف التي فهرستها بالفعل:

– "أظن أنه ربما كانت هذه الكتب مرتبة في وقت ما. يبدو أن هناك بعض التنظيم فيها. إذا نظرت هنا..."

أشارت إلى أحد الرفوف الأولى التي فحصتها.

– "... إنها أعمال شعرية بالكامل تقريبًا. لكن بعد ذلك، في المنتصف تمامًا، تجد شيئًا لـ أفلاطون، وهناك في الطرف، تاريخ مصور للدنمارك".

قال غاريث، وبدا صوته كأنه يتجهم قليلاً:

– "صحيح. صحيح".

رددت وهي تنظر لأعلى:

– "صحيح؟"

– "صحيح".

بدا محرجًا الآن.

– "ربما كان ذلك خطئي".

رمشت.

– "عذرًا؟"

أقرّ قائلاً:

– "كانت واحدة من لحظاتي الأقل نضجًا. كنت غاضبًا".

– "كنت... غاضبًا؟"

– "أعدت ترتيب الرفوف".

– "فعلت ماذا؟"

كانت تود أن تصرخ، وبصراحة، كانت فخورة بنفسها نوعًا ما لعدم قيامها بذلك.

هز كتفيه بخجل:

– "بدا الأمر ماكرًا بشكل مثير للإعجاب في ذلك الوقت".

وجدت هياسنث نفسها تحدق بذهول في الرف أمامها.

– "من كان ليخمن أن الأمر سيعود ليطاردك؟"

– "من بالفعل".

انتقل إلى رف آخر، مميلاً رأسه وهو يقرأ العناوين على الكعوب.

– "الأسوأ من ذلك، اتضح أنه كان ماكرًا أكثر مما ينبغي قليلاً. لم يزعج والدي قيد أنملة".

– "كان ذلك ليدفعني للجنون".

– "نعم، لكنكِ تقرئين. والدي لم يلاحظ حتى أن هناك شيئًا غير طبيعي".

– "لكن لا بد أن شخصًا ما كان هنا منذ جهودك الصغيرة لإعادة التنظيم".

نظرت هياسنث إلى الكتاب بجانبها.

– "لا أظن أن عمر الآنسة دافنبورت يزيد عن بضع سنوات".

هز غاريث رأسه:

– "ربما تركه أحدهم هنا. ربما كانت زوجة أخي. أتخيل أن أحد الخدم حشره فقط في أي رف يملك أكبر مساحة".

أطلقت هياسنث زفرة طويلة، محاولة معرفة أفضل طريقة للمضي قدمًا. سألت:

– "هل يمكنك تذكر أي شيء عن تنظيم العناوين؟ أي شيء على الإطلاق؟ هل كانت مجمعة حسب المؤلف؟ حسب الموضوع؟"

هز غاريث رأسه:

– "كنت في عجلة من أمري نوعًا ما. أمسكت بالكتب عشوائيًا وبدلت أماكنها".

توقف، زافرًا وهو يضع يديه على وركيه ويستطلع الغرفة.

– "أذكر أنه كان هناك الكثير جدًا حول موضوع كلاب الصيد. وهناك كان..."

تلاشت كلماته. نظرت هياسنث لأعلى بحدة ورأت أنه يحدق في رف بجوار الباب. سألت بإلحاح وهي تنهض واقفة:

– "ما الأمر؟"

قال وهو يلتفت ويخطو إلى الجانب المقابل من الغرفة:

– "قسم بالإيطالية".

كانت هياسنث خلفه مباشرة.

– "لا بد أنها كتب جدتك".

تمتم غاريث:

– "وآخر كتب قد يفكر أي من آل سانت كلير في فتحها".

– "هل تراها؟"

هز غاريث رأسه وهو يمرر إصبعه على كعوب الكتب، باحثًا عن تلك المكتوبة بالإيطالية.

تمتمت هياسنث وهي تجثم تحته لتفحص الرفوف السفلية:

– "لا أفترض أنك فكرت في ترك المجموعة سليمة".

أقرّ قائلاً:

– "لا أذكر. لكن بالتأكيد لا يزال معظمها حيث ينتمي. لقد مللت من المزحة بسرعة فلم أقم بعمل جيد حقًا فيها. تركت معظمها في مكانه. وفي الواقع..."

استقام فجأة.

– "ها هي ذي".

وقفت هياسنث على الفور:

– "هل هناك الكثير منها؟"

– "رفان فقط. أتخيل أن استيراد الكتب من إيطاليا كان مكلفًا للغاية".

كانت الكتب في مستوى وجه هياسنث تمامًا، فطلبت من غاريث حمل الشمعة بينما كانت تمسح العناوين بحثًا عن شيء يشبه ما كتبته إيزابيلا في ملاحظتها. العديد منها لم يكن يحمل العنوان كاملاً مطبوعًا على الكعب، واضطرت لسحب هذه الكتب لقراءة الكلمات على الغلاف الأمامي. في كل مرة فعلت ذلك، كانت تسمع شهقة غاريث الحادة، تليها زفرة خيبة أمل حين تعيد الكتاب إلى الرف.

وصلت إلى نهاية الرف السفلي ثم وقفت على أطراف أصابعها لتفحص العلوي. كان غاريث خلفها مباشرة، يقف قريبًا لدرجة أنها استطاعت الشعور بحرارة جسده تتموج عبر الهواء.

سأل، وكلماته منخفضة ودافئة بجوار أذنها:

– "هل ترين شيئًا؟"

لم تظن أنه كان يحاول عمدًا إرباكها بقربه، لكن النتيجة النهائية كانت واحدة.

قالت وهي تهز رأسها:

– "ليس بعد".

كانت معظم كتب إيزابيلا شعرًا. وبدا أن القليل منها لشعراء إنجليز مترجمة إلى الإيطالية. لكن حين وصلت هياسنث إلى منتصف الرف، تحولت الكتب إلى كتب غير خيالية. تاريخ، فلسفة، تاريخ، تاريخ...

احتبست أنفاس هياسنث.

طالبها غاريث:

– "ماذا؟"

بأيدٍ مرتجفة سحبت مجلدًا نحيلاً وقلبته حتى أصبح الغلاف الأمامي مرئيًا لكليهما.

غاليليو غاليلي

Discorso intorno alle cose che stanno, in sù l’acqua, ò che in quella si muovono

همست هياسنث:

– "بالضبط ما كتبته في الدليل".

وأضافت بسرعة:

– "باستثناء الجزء المتعلق بالسيد غاليلي. كان العثور على الكتاب ليكون أسهل بكثير لو عرفنا المؤلف".

لوح غاريث جانبًا بأعذارها وأشار إلى النص بين يديها.

ببطء، وبعناية، فتحت هياسنث الكتاب للبحث عن قصاصة الورق المنشودة. لم يكن هناك شيء مدسوس في الداخل مباشرة، فقلبت صفحة، ثم أخرى، ثم أخرى...

حتى انتزع غاريث الكتاب من يديها.

همس بنفاد صبر:

– "هل تريدين البقاء هنا حتى الأسبوع القادم؟"

ودون أي رقة على الإطلاق، أمسك بكل من الغلافين الأمامي والخلفي للكتاب وأمسكه مفتوحًا، والكعب لأعلى بحيث شكلت الصفحات مروحة مقلوبة.

– "غاريث، أنت..."

– "صه".

هز الكتاب، وانحنى ونظر لأعلى وللداخل، ثم هزه مرة أخرى، بقوة أكبر. وبالتأكيد، تحررت قصاصة ورق وسقطت على السجاد.

طالبت هياسنث، بعد أن أمسك بها غاريث:

– "أعطني ذلك. لن تتمكن من قراءتها على أية حال".

بدا أنه اقتنع بمنطقها، فسلمها الدليل، لكنه ظل قريبًا، يميل فوق كتفها بالشمعة وهي تفتح الطية الوحيدة في الورقة.

سأل:

– "ماذا تقول؟"

هزت رأسها:

– "لا أعلم".

– "ماذا تعنين بـ لا أعلم..."

انفجرت قائلة، كارهة اضطرارها للاعتراف بالهزيمة:

– "لا أعلم! أنا لا أميز أي شيء. لستُ واثقة حتى أن هذه إيطالية. هل تعلم إن كانت تتحدث لغة أخرى؟"

– "ليس لدي أدنى فكرة".

أطبقت هياسنث أسنانها، محبطة تمامًا من تحول الأحداث. لم تكن تظن بالضرورة أنهم سيجدون المجوهرات في تلك الليلة، لكن لم يخطر ببالها أبدًا أن الدليل التالي قد يقودهم مباشرة إلى طريق مسدود.

سأل غاريث:

– "هل لي أن أرى؟"

سلمته الملاحظة، وراقبته وهو يهز رأسه.

– "لا أعلم ما هذا، لكنها ليست إيطالية".

– "ولا أي شيء متعلق بها".

شتم غاريث تحت أنفاسه، بكلمات كانت هياسنث واثقة تمامًا من أنها لم تكن لتسمعها.

قالت، مستخدمة تلك النبرة الهادئة التي تعلمت منذ زمن أنها مطلوبة عند التعامل مع رجل غاضب:

– "بإذنك، يمكنني عرضها على أخي كولن. لقد سافر كثيرًا، وقد يتعرف على اللغة، حتى لو افتقر للقدرة على ترجمتها".

بدا غاريث مترددًا، فأضافت:

– "يمكننا الوثوق به. أعدك".

منحها إيماءة.

– "من الأفضل أن نغادر. لا شيء آخر يمكننا فعله هذه الليلة، على أية حال".

لم يكن هناك الكثير من التنظيف للقيام به؛ فقد أعادا الكتب إلى الرفوف بمجرد إزالتها تقريبًا. أعادت هياسنث الكرسي الخشبي الصغير إلى مكانه ضد الجدار، وفعل غاريث الشيء نفسه مع الكرسي الآخر. الستائر ظلت في مكانها هذه المرة؛ إذ لم يكن هناك ضوء قمر يذكر للرؤية به على أية حال.

سأل:

– "هل أنتِ جاهزة؟"

أمسكت برواية الآنسة دافنبورت والماركيز الأسود.

- "أنت واثق أن لا أحد سيفتقد هذا؟"

دس دليل إيزابيلا بين الصفحات لحفظه.

- "تمامًا".

راقبت هياسنث بينما ضغط أذنه على الباب. لم يكن أحد ـفي الجوار حين تسللا للداخل قبل نصف ساعة، لكن غاريث أوضح أن كبير الخدم لا ينام أبدًا قبل البارون. ومع بقاء البارون ـفي حفل آل موترام، بقي رجل واحد مستيقظًا وربما يتجول، وآخر يمكن أن يعود ـفي أي وقت.

وضع غاريث إصبعًا على شفتيه وأشار لها بالتبعية وهو يدير مقبض الباب بحذر. فتح الباب بوصة واحدة — ما يكفي فقط للنظر من الشق والتأكد من أمان المضي قدمًا. تسللا معًا إلى الردهة، وتحركا بسرعة إلى الدرج المؤدي للطابق الأرضي. كان الظلام دامسًا، لكن عيني هياسنث تكيفتا جيدًا بما يكفي لترى إلى أين تذهب، وفي أقل من دقيقة كانا عائدين إلى غرفة الرسم — تلك التي بها مزلاج النافذة المعطل.

كما فعل ـفي المرة السابقة، تسلق غاريث للخارج أولاً، ثم شكل درجة بيديه لتتوازن عليها هياسنث وهي تمد يدها وتغلق النافذة. أنزلها للأسفل، وطبع قبلة سريعة على أنفها، وقال:

- "عليكِ العودة للمنزل".

لم تستطع إلا أن تبتسم.

- "لقد شُوهت سمعتي بشكل ميئوس منه بالفعل".

- "نعم، لكنني الوحيد الذي يعلم".

ظنت هياسنث أنه من اللطيف منه أن يكون قلقًا جدًا على سمعتها. ـفي النهاية، لم يكن يهم حقًا إن ضبطهما أحد أم لا؛ لقد نامت معه، ويجب أن تتزوجه. امرأة بمولدها لا يمكنها فعل أقل من ذلك. يا إلهي، قد يكون هناك طفل، وحتى لو لم يكن، فهي لم تعد عذراء.

لكنها كانت تعلم ما تفعله حين سلمت نفسها له. كانت تعرف العواقب.

تسللا معًا عبر الزقاق إلى شارع دوفر. أدركت هياسنث أنه من الضروري التحرك بسرعة. كان حفل آل موترام مشهورًا بالاستمرار حتى الساعات الأولى من الصباح، لكنهما بدآ بحثهما متأخرين، وبالتأكيد سيتجه الجميع للمنازل قريبًا. ستكون هناك عربات في شوارع مايفير، مما يعني أنه يتعين عليها وعلى غاريث جعل نفسيهما غير مرئيين قدر الإمكان.

بصرف النظر عن مزاح هياسنث، لم تكن ترغب في أن تُضبط في الخارج في منتصف الليل. صحيح أن زواجهما أصبح الآن حتميًا، لكن رغم ذلك، لم تكن تستمتع بصفة خاصة بفكرة أن تكون موضوعًا لنميمة بذيئة.

قال غاريث وهو يمنعها من التقدم بذراعه:

– "انتظري هنا".

بقيت هياسنث في الظلال بينما خطى هو إلى شارع دوفر، مقتربًا من الزاوية بقدر ما تجرأ للتأكد من خلو الطريق. بعد بضع ثوانٍ رأت يد غاريث تمتد للخلف وتقوم بإشارة "تعالي".

خطت إلى شارع دوفر، لكنها لم تكن هناك سوى لثانية واحدة قبل أن تسمع شهقة غاريث الحادة وتشعر بنفسها تُدفع بقوة عائدة إلى الظلال.

مسطحة نفسها ضد الجدار الخلفي للمبنى الركني، ضمت الآنسة دافنبورت — وبداخلها دليل إيزابيلا — إلى صدرها وهي تنتظر ظهور غاريث بجانبها.

ثم سمعت ذلك.

كلمة واحدة فقط. بصوت والده.

– "أنت".

لم يكن لدى غاريث سوى ثانية واحدة لرد الفعل. لم يدرِ كيف حدث ذلك، لم يدرِ من أين ظهر البارون فجأة، لكن بطريقة ما تمكن من دفع هياسنث عائدة إلى الزقاق في الثانية ذاتها قبل أن يُضبط.

قال بصوته الأكثر مرحًا، وهو يخطو للأمام ليضع أكبر مسافة ممكنة بينه وبين الزقاق:

– "تحياتي".

كان والده يخطو نحوه بالفعل، ووجهه غاضب بشكل واضح، حتى في ضوء الليل الخافت. طالب:

– "ما الذي تفعله هنا؟"

هز غاريث كتفيه، التعبير نفسه الذي أغضب والده مرات عديدة من قبل. إلا أنه هذه المرة لم يكن يحاول الاستفزاز، بل كان يحاول فقط إبقاء انتباه البارون مثبتاً عليه بحزم. قال بلامبالاة متعمدة:

– "فقط في طريقي للمنزل".

كانت عينا والده متشككتين:

– "أنت بعيد قليلاً عن طريقك".

– "أحب التوقف وتفقد إرثي بين الحين والآخر. فقط للتأكد من أنك لم تحرق المكان".

– "لا تظن أنني لم أفكر في ذلك".

– "آه، أنا واثق أنك فعلت".

لزم البارون الصمت للحظة، ثم قال:

– "لم تكن في الحفل الليلة".

لم يكن غاريث واثقًا من أفضل طريقة للرد، لذا اكتفى برفع حاجبيه قليلاً جدًا وحافظ على تعبيره مستويًا.

– "الآنسة بريدجرتون لم تكن هناك أيضًا".

سأل غاريث بلطف، آملًا أن تمتلك السيدة المعنية ضبطًا للنفس كافيًا لعدم القفز من الزقاق صارخة بلى، كنتُ!:

– "ألم تكن؟"

أقرّ البارون:

– "في البداية فقط. غادرت مبكرًا نوعًا ما".

هز غاريث كتفيه مرة أخرى:

– "إنه حق للمرأة".

– "أن تغير رأيها؟"

شكلت شفتا البارون أصغر انحناءة، وكانت عيناه ساخرتين.

– "من الأفضل أن تأمل أنها أكثر ثباتاً من ذلك قليلاً".

منحه غاريث نظرة باردة. بطريقة ما، وبشكل مذهل، لا يزال يشعر بالسيطرة. أو على الأقل، كالشخص البالغ الذي كان يحب أن يعتقد أنه هو. لم يشعر بأي رغبة صبيانية في الرد بعنف، أو قول شيء لغرض وحيد هو إغضابه. لقد أمضى نصف حياته يحاول إبهار الرجل، والنصف الآخر يحاول إزعاجه. لكن الآن... أخيرًا... كل ما أراده هو التخلص منه.

لم يشعر تمامًا باللا شيء الذي تمناه، لكنه كان قريبًا لدرجة اللعنة.

ربما، ربما فقط، كان ذلك لأنه وجد أخيرًا شخصًا آخر لملء الفراغ.

قال البارون وصوته لئيم:

– "أنت بالتأكيد لم تضيع أي وقت معها".

قال غاريث:

– "الرجل النبيل يجب أن يتزوج".

لم تكن العبارة التي رغب بقولها أمام هياسنث، لكن كان من الأهم بكثير الحفاظ على الخدعة مع والده بدلاً من إشباع أي حاجة قد تشعر بها لخطاب رومانسي.

تمتم البارون:

– "نعم. الرجل النبيل يجب أن يفعل".

بدأ جلد غاريث يتنمّل. كان يعلم ما يلمح إليه والده، ورغم أنه ورط هياسنث بالفعل، فإنه يفضل ألا تعرف حقيقة مولده إلا بعد الزفاف. سيكون الأمر أسهل ببساطة بهذه الطريقة، وربما...

حسنًا، ربما لن تعرف الحقيقة أبدًا. بدا ذلك غير مرجح، بين سم والده ومذكرات إيزابيلا، لكن أشياء أغرب قد حدثت.

كان بحاجة للمغادرة. الآن. قال بفظاظة:

– "يجب أن أذهب".

انحنى فم البارون في ابتسامة غير سارة. قال بسخرية:

- "نعم، نعم. ستحتاج لترتيب نفسك قبل الذهاب للعق أقدام الآنسة بريدجرتون غدًا".

تحدث غاريث من بين أسنانه:

- "ابتعد عن طريقي".

لكن البارون لم ينتهِ.

- "ما أتساءل عنه هو... كيف جعلتها تقول نعم؟"

بدأ ضباب أحمر يغشى عيني غاريث.

- "قلتُ..."

سأل والده ضاحكًا:

- "هل أغويتها؟ لتتأكد أنها لا تستطيع قول لا، حتى لو..."

لم يقصد غاريث فعل ذلك. كان ينوي الحفاظ على هدوئه، وكان سيمكنه ذلك لو أبقى البارون إهاناته موجهة إليه. لكن حين ذكر هياسنث...

تولى غضبه الزمام، والشيء التالي الذي عرفه، أنه كان يثبت والده ضد الجدار. حذر بصوت بالكاد ميزه:

- "إياك أن تتحدث لي عنها مرة أخرى".

- "هل سترتكب خطأ محاولة قتلي هنا، في شارع عام؟"

كان البارون يلهث، لكن حتى مع ذلك، حافظ صوته على درجة مذهلة من الكراهية.

- "الأمر مغرٍ".

- "آه، لكنك ستخسر اللقب. وحينها أين ستكون؟ أوه نعم..."

قال وهو يكاد يختنق بكلماته الآن:

- "...في نهاية حبل المشنقة".

أرخى غاريث قبضته. ليس بسبب كلمات والده، بل لأنه بدأ يستعيد السيطرة على انفعالاته أخيرًا. هياسنث تستمع، ذكر نفسه. كانت قابعة خلف الزاوية مباشرة. لا يمكنه فعل شيء قد يندم عليه لاحقًا.

قال والده، حين تركه غاريث واستدار للمغادرة:

– "كنت أعلم أنك ستفعلها".

تباً. كان دائمًا يعرف ما يقول، بالضبط أي زر يضغط لمنع غاريث من فعل الشيء الصحيح.

سأل غاريث وقد تجمد في مكانه:

– "أفعل ماذا؟"

– "تطلب منها الزواج بك".

استدار غاريث ببطء. كان والده يبتسم ابتسامة عريضة، مسرورًا بنفسه للغاية. كان مشهدًا جعل الدم يتجمد في عروق غاريث.

قال البارون وهو يميل رأسه بوصة واحدة أو نحو ذلك إلى الجانب:

– "أنت متوقع جدًا".

كانت إيماءة رآها غاريث مائة مرة من قبل، ربما ألفًا. كانت متعالية ومزدرية، وكانت تنجح دائمًا في جعل غاريث يشعر وكأنه صبي مرة أخرى، يعمل بجد لنيل رضا والده.

ويفشل في كل مرة.

قال البارون وهو يقهقه لنفسه:

– "كلمة واحدة مني. مجرد كلمة واحدة مني".

اختار غاريث كلماته بعناية فائقة. كان لديه جمهور. كان عليه تذكر ذلك. ولذا، حين تحدث، كل ما قاله هو:

– "ليس لدي أدنى فكرة عما تتحدث عنه".

وانفجر والده ضاحكًا. ألقى برأسه للخلف وقهقه، مظهرًا درجة من المرح صدمت غاريث وأخرسته.

قال وهو يمسح عينيه:

– "آه، بالله عليك. أخبرتك أنك لا تستطيع الفوز بها، وانظر ماذا فعلت".

بدأ صدر غاريث يشعر بضيق شديد. ماذا كان والده يقول؟ أنه أراده أن يتزوج هياسنث؟

تابع البارون:

– "خرجت فورًا وطلبت منها الزواج بك. كم استغرق ذلك؟ يومًا؟ يومين؟ ليس أكثر من أسبوع، أنا واثق".

قال غاريث ببرود جليدي:

– "عرضي للآنسة بريدجرتون لم يكن له أي علاقة بك".

قال البارون بازدراء تام:

– "آه، أرجوك. كل شيء تفعله هو بسببي. ألم تكتشف ذلك حتى الآن؟"

حدق فيه غاريث برعب. هل كان ذلك صحيحًا؟ هل كان صحيحًا ولو قليلاً؟

قال البارون بتنهيدة متكلفة:

– "حسنًا، أعتقد أنني سأذهب للنوم. كان الأمر... مسليًا، ألا تظن ذلك؟"

لم يعرف غاريث ما يظن.

قال البارون، ملقيًا بالملاحظة فوق كتفه وهو يضع قدمه على الدرجة الأولى المؤدية للباب الأمامي لـ كلير هاوس:

– "آه، وقبل أن تتزوج الآنسة بريدجرتون، قد ترغب في النظر في أمر تصفية خطبتك الأخرى".

– "ماذا؟"

ابتسم البارون بنعومة كالحرير.

– "ألم تكن تعلم؟ أنت لا تزال مخطوبًا للمسكينة ماري وينثروب. لم تتزوج أي شخص آخر قط".

– "هذا لا يمكن أن يكون قانونيًا".

– "آه، أؤكد لك أنه كذلك".

مال البارون قليلاً للأمام.

– "لقد تأكدتُ من ذلك".

وقف غاريث هناك فقط، وفمه مفتوح بذهول، وذراعاه تتدليان بضعف بجانبيه. لو أن والده انتزع القمر من السماء وضربه به على رأسه، لما كان أكثر ذهولاً.

نادى البارون:

- "سأراك في الزفاف. أوه، يا لسخافتي. أي زفاف؟"

ضحك، وأخذ بضع خطوات أخرى نحو الباب الأمامي.

- "أخبرني، بمجرد أن تحل الأمر كله".

لوح بيده تلويحة صغيرة، مسرورًا بنفسه بوضوح، وانزلق داخل المنزل.

قال غاريث لنفسه:

- "يا إلهي".

ثم مرة أخرى، لأنه لم تمر لحظة في حياته استدعت التجديف أكثر من هذه:

- "يا إلهي".

أي ورطة هو فيها الآن؟ لا يمكن لرجل أن يعرض الزواج على أكثر من امرأة في وقت واحد. وبينما ربما لم يعرضه هو على ماري وينثروب، فإن البارون فعل ذلك باسمه، ووقع وثائق بهذا المعنى. لم يكن لدى غاريث أي فكرة عما يعنيه هذا لخططه مع هياسنث، لكنه لا يمكن أن يكون جيدًا.

آه، اللعنة... هياسنث.

يا إلهي، حقًا. لقد سمعت كل كلمة.

بدأ غاريث الركض نحو الزاوية، ثم أوقف نفسه، ناظرًا لأعلى نحو المنزل للتأكد من أن والده لا يراقبه. كانت النوافذ لا تزال مظلمة، لكن هذا لم يعنِ...

آه، تباً. من يهتم؟

ركض حول الزاوية، وتوقف فجأة أمام الزقاق، حيث تركها.

كانت قد اختفت.

الفصل السادس عشر

لا يزال مرتهناً بظلال ذلك الزقاق الضيق، يشخص ببصره نحو البقعة التي كان يُفترض أن تستقر فيها ركائب هياسنث. إنه الشعور الذي لا يود أن يتجرع غصصه ثانيةً ما امتد به العمر.

خلَعَ قلب غاريث واضطربت جوارحه. أين توارت هياسنث عن ناظريه؟ هل غالتها غوائل الردى في هذا الليل البهيم؟ ورغم أنهم في كنف حي من أمنع أحياء لندن وأكثرها ترفًا، إلا أن ذؤبان الليل وعُتَاة الإجرام لا يزال لهم في المسالك مَطمع، و—

كلا، ما كان للغدر أن ينال منها نال الظفر من الفريسة، ليس في هذا الموضع السني. لكان قد تناهى إلى سمعه جلبة، أو صراع، أو استغاثة؛ فـ هياسنث ليست ممن يسلمون أعناقهم للمنايا دون قتال مستميت، قتال يُصم الآذان بجعجعته.

وما ذاك إلا لسبب واحد لا غيره...

لا ريب أنها استرقت السمع لحديث والده عن ماري وينثروب، فجمح بها الغضب وأسلمت ساقيها للريح. تبا لتلك المرأة! أما كان في عقلها فضل من حصانة يمنعها من هذا الشطط؟

أطلق غاريث زفرة حرى تنضح بالحنق، ووضع يديه فوق خاصرتيه يجوب الآفاق بنظراته القلقة. لقد كان أمامها ثمانية سبل للعودة إلى دارها، بل

ربما تزيد إن هي سلكت تلك الأزقة الملتوية والدهاليز الخلفية، وهو الذي كان يرجو أن تعصمها حكمتها من ولوج تلك المسالك الموحشة.

عقد العزم على سلوك الطريق الأقوم والأنفذ؛ ذلك الذي سيفضي بها مباشرة إلى شارع بيركلي، وهو ممر يضج بالحركة، وقد تجوز فيه العربات الآيبة من محفل آل موترام، بيد أن هياسنث بلغت من سَوْرة الغضب مبلغاً جعل غايتها القصوى هي بلوغ دارها في أقصر أمد.

ولم يكن ذلك ليسوء غاريث في شيء؛ فأن تلتقطها أعين الوشاة في قارعة الطريق، أحب إليه من أن يفتك بها غادر في زقاق منزوي.

اندفع غاريث يَعْدُو عَدْوَ الوحش الطريد صَوْبَ ميدان بيركلي، يطوي الأرض طياً، ويخفف من غلوائه عند كل مفترق ليرسل نظراته يمنة ويسرة في الدروب المتقاطعة.

بيد أنه لم يظفر بشيء.

أين استقرت بها النوى؟ إنه ليعلم أنها أوتيت من بأس البدن وقوة الشكيمة ما لا تُؤتاه الغواني، ولكن بربك، أي ريح عاصف كانت تحاكيها في عَدْوها؟

اجتاز شارع تشارلز كالشهاب، وبلغ الميدان الفسيح. مَرّت عربة بجانبه، فلم يُعرها أدنى التفات. لعل نادِي الغيبة والنميمة غداً سيضج بأخبار عَدْوه المحموم في جوف الليل عبر طرقات مايفير، بيد أن تلك السمعة لم تكن لتكترث لمثل هذا اللغو، فهي من الصلابة بحيث تصمد أمام كل ريح.

طفق يركض بمحاذاة الميدان، حتى استقرت به القدم في شارع بروتون، يمر بالدار السادسة عشرة، فـ الثانية عشرة، فـ السابعة...

وهناك أبصرها، تحاكي الريح في سرعتها، تنعطف عند زاوية الدار لتدلف إليها من باب الخدم الخلفي.

وإذ سرت في بدنه طاقة عارمة ممتزجة بالغضب، ضاعف غاريث من سرعته حتى كاد يسبق البرق. كانت ذراعاه تخفقان، وساقاه تتلظيان بنار الجهد، ولا ريب أن قميصه قد ضاع صفاؤه بعرق الكدح، بيد أنه لم يبالِ على

الإطلاق. كان يبتغي الظفر بتلك المرأة المتمردة قبل أن توصد دونها الأبواب، وحين يظفر بها...

تالله، لا يدري ما هو صانع بها، بيد أنه يوقن أن اللقاء لن يكون وادعاً بأي حال.

انزلقت هياسنث عند المنعطف الأخير، وخففت من سُرعتها لتلقي نظرة خلسة وراءها. فغرت فاها حين أدركته بصرها، ثم تشنج جسدها برباطة جأشٍ عجيبة، واندفعت نحو مدخل الحشم في المؤخرة.

ضاقت عينا غاريث بابتسامة نصر؛ فلا بد لها أن تضطرب وهي تبحث عن المفتاح، ولن تبلغ مأربها الآن. خفف من وطأة عَدْوه ليسترد بعض أنفاسه، ثم شرع يخطو خطوات الصياد المتربص.

لقد وقعت في الشرك الآن.

بيد أنها، بدلاً من أن تبحث عن المفتاح خلف قطع الآجر، دفعت الباب فانفتح لها بِيُسر.

يا لَلخسارة! لقد نسيا إيصاد الباب حين غادرا.

استجمع غاريث قوته في وثبة أخيرة، وكاد يدركها.

كاد...

بلغ الباب في اللحظة التي أوصدته فيها في وجهه إيصاداً.

واستقرت يده على المقبض في اللحظة التي سمع فيها صوت المزلاج وهو يُغلق إغلاقاً مُحكماً.

قبض غاريث كفه، وتاقت نفسه لضرب الباب ضرباً يزلزله. بل إنه تمنى لو صاح باسمها صيحةً تخرق الآذان، وليذهب الوقار إلى الجحيم؛ فكل ما كان سيحدث هو تعجيل زفافهما، وهو ما كان يبتغيه على أية حال.

بيد أن شيم السادة كانت قد تغلغلت في أعماقه، فبدا كأنه من النبل بحيث يترفع عن سحق سمعتها في مثل هذا المجمع العام.

تَمتم في سريرة نفسه وهو يقفل عائداً نحو مقدمة الدار:

– "كلا، إن كل صنوف التدمير يجب أن تقع في خلوةٍ لا يَطّلع عليها بشر."

وضع يديه فوق خاصرتيه ورمق نافذة مخدعها بنظرةٍ شزراء. لقد ولج الحصن مرة، وإنه لقادر على ولوجه ثانية.

ألقى نظرةً عابرة يمنة ويسرة ليوقن خلو الطريق من الرقباء، ثم تسلق الجدار ببراعة، وكان ارتقاؤه هذه المرة أيسر من سابقتها؛ فقد حفظ مواضع يديه وقدميه عن ظهر قلب. كانت النافذة لا تزال مواربة، كما تركها أول مرة، ولم يَدُرِ في خلده أنه سيُضطر لولوجها كاللص ثانية.

دفعها بقوة، وانزلق من خلالها، ليهبط فوق البساط هبوطاً له صدى، في اللحظة ذاتها التي ولجت فيها هياسنث الغرفة من بابها.

زمجر بصوت كأنه زئير الليث وهو يثب واقفاً ببراعة السنور:

– "أيتها الآنسة، إنَّ عليكِ تبيانَ ما أقدمتِ عليه من نُكْرٍ، وتفسيرَ هذا الفِرارِ المريب."

فردت عليه هياسنث والدهشة تعقد لسانها:

– "أنا؟ أأنا من يفسر؟ لستُ أحسب أن—" ثم انفرجت شفاها وهي تدرك حقيقة الموقف: "ابتعد عني واخرج من غرفتي!"

رفع حاجبه في غطرسةٍ وقال:

– "أتريدين مني أن أسلك الدرج الأمامي إذن؟"

– "ستخرج من حيث أتيت أيها الخسيس المتمرد!"

أدرك غاريث عندئذٍ أنه لم يَرَ هياسنث غاضبة قط؛ رأاها محتدة، نعم؛ رأاها متبرمة، بلا ريب؛ أما هذا...

فقد كان شيئاً يفوق كل وصف.

استشاطت غضباً وهي تقول:

– "كيف تجرؤ! كيف طاوعتك نفسك!" وقبل أن يرتد إليه طرفه، انقضت نحوه وضغطت بمنكبيها على صدره بكل قوتها وهي تزمجر: "أخرج! الآن!"

فأجابها وهو يشير بإصبعه نحو نحرها مباشرة:

– "لن أبرح هذا المكان حتى تقطعي على نفسك عهداً غليظاً—" وغمز بصدرها بإصبعه تأكيداً: "—ألا تكرري هذا الخبل الذي أقدمتِ عليه الليلة."

– "آه! آه!" أخرجت صوتاً مخنوقاً، كأنما حُبست الكلمات في حنجرتها فما عادت تقوى على نطقٍ مستبين. وأخيراً، وبعد زفراتٍ متلاحقة من الغيظ، قالت بصوت خفيض ينذر بالخطر:

– "لستَ في مقامٍ يسمح لك بفرض المطالب عليّ."

– "أحقاً ترين ذلك؟" رفع حاجبه ورمقها بنصف ابتسامة تنضح بالصلف: "بصفتي زوجك المرتقب—"

– "لا تجرؤ على ذكر هذا الأمر أمامي الآن."

شعر غاريث بشيء ينقبض في صدره ويهتز:

– "أتنوين نكث العهد وفسخ الخطبة؟"

نظرت إليه بنظرةٍ تفيض حنقاً وقالت:

– "كلا، بيد أنك قد أحكمت الوثاق الليلة، أليس كذلك؟ أكان هذا هو مأربك؟ أن تقهر إرادتي وتجعلني غير صالحة للزواج من رجلٍ سواك؟"

لقد كان ذلك هو عينه مأربه، ولهذا السبب آثر غاريث الصمت المطبق، فلم ينبس بكلمة.

فحّت هياسنث كالأفعى:

– "ستندم على هذا، تالله ستندم يوماً ما، فثق بقولي."

– "أحقاً تزعمين ذلك؟"

قالت وعيناها تقدحان شرراً:

– "بصفتي زوجتك المستقبيلة، فإني قادرة على أن أصيّر حياتك سعيراً لا يُطاق."

لم يساور غاريث أدنى شك في صدق وعيدها، بيد أنه آثر إرجاء التعامل مع تلك المعضلة إلى حينها.

– "إن حديثنا الآن لا يمت بصلة لما وقع بيننا آنفاً، ولا لما عسى أن يكون قد تناهى إلى سمعك من لغو البارون. إنما حديثنا عن—"

قاطعته هياسنث وقد بلغت القلوب الحناجر:

– "أوه، بربك! من تحسب نفسك؟"

أدنى وجهه من وجهها حتى تلاقت الأنفاس:

– "أنا الرجل الذي سيقترن بكِ. وأنتِ يا هياسنث بريدجيرتون، التي ستغدو قريباً سيدة لدار سانت كلير، لن تطأ قدماكِ طرقات لندن دون رقيب، في أي ساعة من ليل أو نهار."

سكتت لبرهة، وظن لثانية أنها قد تأثرت بخوفه على سلامتها، بيد أنها تراجعت وقالت:

– "يا له من وقتٍ بارع لتستيقظ فيه في نفسك شيم الغيرة والوقار!"

جاهد لكيلا يقبض على منكبيها ويهزهما هزاً.

– "ألديكِ أدنى تصور لما كابدتُه حين عدتُ ولم أجدكِ؟ ألم يتوقف عقلكِ لثانية ليتدبر ما كان قد يحيق بكِ من هلكة قبل أن تجمحي وحدكِ في الفلوات؟"

رفعت حاجبها في غطرسة مفرطة:

– "لن يصيبني شرٌّ أدهى مما أصابني هنا في عقر داري."

كانت طعنة نجلاء أصابت المرمى، فترنح غاريث من وَقعها، بيد أنه كبح جماح غضبه، وقال بصوت بارد كالجليد:

– "أنتِ لا تعنين ما تقولين. قد يتوهم لكِ أنكِ تعنينه، بيد أن الحقيقة بخلاف ذلك، وسأضرب عن قولكِ هذا صفحاً غفراناً لكِ."

وقفت ساكنة، سكوناً لا يقطعه إلا تعالي صدرها وانخفاضه في زفرات محمومة. كانت يداها مقبوضتين، ووجهها يزداد توردًا من الغيظ.

قالت بصوت خفيض مقتضب ينم عن سيطرة بالغة:

– "إياك، إياك أن تخاطبني بهذه النبرة ثانية، وإياك أن تتوهم أنك تدرك ما يدور في خَلَدي."

– "لا عليكِ، فهذا زعمٌ نادراً ما سأدعيه."

ابتلعت هياسنث ريقها، في بادرة هي الوحيدة التي نَمّت عن اضطرابها، وقالت:

– "أريد منك الانصراف."

– "لن أبرح مكاني حتى تنطقي بالوعد."

– "لستُ مدينةً لك بشيء يا سيد سانت كلير. وأنت حتماً لست في مقامٍ يسمح لك بالاشتراط."

كرر قوله:

– "عديني."

بحثت هياسنث في ملامحه بذهول. كيف يجرؤ على الدخول إلى خدرها ثم يقلب الآية لتغدو هي المخطئة؟ هي المجني عليها، وهو الذي— هو الذي— ياللهول، لم تعد تقوى حتى على صياغة جملة مفيدة في عقلها.

قالت ثانية:

– "أريد منك الانصراف."

فجاء رده فور انقطاع صوتها:

– "وأنا أريد الوعد."

أطبقت فاها في إصرار. كان وعداً يسيراً، فهي لا تنوي تكرار تلك الرحلات الليلية الغابرة، بيد أن الوعد كان في نظرها اعتذاراً مستتراً، ولم تكن لتهبه تلك النشوة.

لتكن حمقاء، لتكن طفولية، بيد أنها لن تفعل. ليس بعد ما ألحقه بها من أذى.

تمتم غاريث:

– "ياللهول، كم أنتِ عاتية في عنادك!"

افتر ثغرها عن ابتسامة ممقوتة:

– "سيكون من دواعي سرورك حقاً أن تقترن بي."

تنهد غاريث تنهيدة الثكل:

– "هياسنث، برب كل ما هو مقدس—" مَرّر يده في شعره، وأجال بصره في أرجاء الغرفة قبل أن يرتد إليها ثانية: "أدركُ أنكِ مغتاظة..."

– "لا تخاطبني كأنني صبية غرة."

– "لم أفعل."

رمقته بنظرة باردة:

– "بل فعلت."

كز على أسنان كزاً وتابع:

– "ما قاله والدي عن ماري وينثروب..."

فغرت فاها بذهول:

– "أهذا ما تظن أن الغضب من أجله؟"

حملق فيها، ورمش مرتين قبل أن يقول:

– "أليس كذلك؟"

– "كلا بالطبع!" هتفت بحدة. "بربك، أتحسبني بلهاء؟"

– "أنا... آ... كلا؟"

– "أرجو أن أكون قد بلغتُ من معرفتك قدراً يطمئنني أنك لن تعرض الزواج على امرأتين في آن واحد، على الأقل ليس عن عمد."

قال وقد بدا عليه الارتباك:

– "حسناً، فما الخطب إذن؟"

سألته بقوة:

– "أتدرى لِمَ سألتني الاقتران بك؟"

– "عن أي شياطين تتحدثين؟"

كررت قولها:

– "أتدرى؟" لقد سألته من قبل ولم يحط بالجواب خبراً.

– "بالطبع أدرى. ذلك لأن—" بيد أنه قطع قوله، وبدا جلياً أنه لا يملك جواباً مستبيناً.

هزت رأسها، وهي تغالب عبراتٍ كادت تفر من عينيها:

– "لا أود رؤيتك الآن."

– "ما الذي أصابكِ؟"

صرخت بأعلى صوت تجرأت عليه في هذا السكون:

– "لم يصبني شيء! أنا على الأقل أدرك لِمَ قبلتُ عرضك. أما أنت، فلا تدري لِمَ قدمتَه."

اندفع قائلاً:

– "أفصحي إذن! أنبئيني ما الذي تظنينه بهذا القدر من الأهمية اللعينة! أنتِ دوماً تدعين المعرفة بما هو أصلح لكل شيء ولكل أحد، والآن تزعمين الإحاطة بما في الصدور. فهاتِ ما عندكِ، أنبئيني يا هياسنث—"

ترنحت من فرط السموم التي نضح بها صوته.

– "—أنبئيني!"

ابتلعت غصتها. لن تتراجع. ربما كانت ترتعد، ربما كانت قاب قوسين أو أدنى من البكاء المرير، بيد أنها لن تتراجع. قالت بصوت خفيض لتكبح جماح الرعدة:

– "لقد أقدمتَ على هذا... بسببه هو."

حملق فيها، وأومأ برأسه طالباً منها الاستفاضة.

– "والدك." لولا حرمة الليل لصرخت بها صراخاً.

– "يا للهول!" أقسم مغيظاً. "أهذا ما تتوهمين؟ ليس لهذا الأمر صلة به من قريب أو بعيد."

رمقته بنظرةٍ تفيض شفقة.

فحّ غاريث حنقاً من زعمها:

– "أنا لا أفعل شيئاً لأجله! إنه لا يعني لي شيئاً قط."

هزت رأسها:

– "أنت تخدع نفسك يا غاريث. كل ذرة في أفعالك إنما هي بسببه. لم أدرك ذلك إلا حين نطق بها هو، بيد أنها الحقيقة."

– "أتصدقين قوله وتكذبين قولي؟"

قالت بصوت يغلبه الكلل والإحباط، وربما مسٌّ من اليأس:

– "ليس الأمر متعلقاً بصدق القول أو كذبه. بل هو حال الأشياء وواقعها. وأنت... أنت خطبتني لأنك أردت أن تثبت له قدرتك على ذلك. لم يكن لي شأن في الأمر."

تصلب غاريث في مكانه.

– "هذا زعمٌ باطل."

– "أحقاً هو كذلك؟" ابتسمت، وبدا وجهها حزيناً، مستسلماً للقدر. "أعلمُ أنك ما كنت لتخطبني لو كنت موقناً بارتباطك بامرأة أخرى، بيد أني أعلم أيضاً أنك مستعد لفعل أي شيء نكاية في أبيك، بما في ذلك الزواج مني."

هز غاريث رأسه وئيداً.

– "لقد أخطأتِ المرمى تماماً." بيد أنه في قرارة نفسه، شعر بزعزعة في يقينه. لقد حدثته نفسه، أكثر من مرة وبنشوة مخزية، كيف سيتميز والده غيظاً من نجاح غاريث في هذا القِران. ولقد استمرأ ذلك الشعور؛ استمرأ فكرة أنه في رقعة الشطرنج التي تمثل علاقته بـ اللورد سانت كلير، قد وجه أخيراً الضربة القاضية.

مات الملك.

لقد كان شعوراً لذيذاً.

بيد أنه لم يكن الدافع لخطبة هياسنث. لقد خطبها لأن— حسناً، كانت هناك مائة حجة وحجة. كان الأمر معقداً.

إنه يميل إليها، أليس هذا بذي بال؟ بل إنه استأنس بعائلتها، وهي توددت لجدته، وما كان له أن يقترن بامرأة لا تحسن معاملة الليدي دانبري.

ولقد أرادها؛ أرادها بوجدٍ عارم سلب منه لبّه.

كان الزواج من هياسنث أمراً منطقياً، ولا يزال كذلك.

هذا هو لُب المسألة. هذا ما كان يحتاج لبيانه. كان عليه أن يفهمها، وهي ستدرك بلا ريب؛ فهي ليست غِرّة بلهاء. إنها هياسنث.

ولهذا السبب أحبها كل هذا الحب.

فتح فاه، وأومأ بيده قبل أن تخرج الكلمات. كان عليه أن يصيب المرمى هذه المرة، أو على الأقل ألا يخطئه بالكلية.

– "إذا نظرتِ للأمر بعين العقل..." بدأ قوله.

– "بل إني أنظر إليه بعين العقل!" قاطعته قبل أن يتم فكرته. "يا لله! لولا أنني أتمتع بهذا القدر اللعين من التعقل، لكنتُ قد فسخت الخطبة في توّي." تشنج فكها، وابتلعت غصتها.

فحدثته نفسه: ياللهول، إنها على وشك البكاء.

قالت بصوت خفيض مؤلم:

– "كنتُ أدرك ما أقدمتُ عليه في أول المساء. كنتُ أعلم مآله، وأنه ميثاق لا رجعة فيه." ارتعشت شفتها السفلى، وشاحت ببصرها وهي تقول: "بيد أني لم أحسب يوماً أنني سأندم عليه."

كانت الكلمة كطعنةٍ في الأحشاء. لقد آذاها. لقد جرح كبرياءها حقاً. لم يكن يبتغي ذلك، ولم يكن موقناً أن رد فعلها لم يشبْه غلوّ، بيد أنه آذاها.

وبُهت حين أدرك كم يؤلمه هذا الجرح الذي ألحقه بها.

للحظة، لم يصدر عنهما حراك، وقفا يتبادلان نظرات الحذر والترقب.

أراد غاريث النطق، وشعر بضرورة البيان، بيد أن الكلمات خذلته؛ فما وجد في قاموسه ما يسعف الموقف.

سألته هياسنث:

– "أتدري كيف يكون شعور المرء حين يُصيَّرُ بيذقاً في يد غيره؟"

همس قائلاً:

– "أجل، أدري."

انقبضت أسارير فمها. لم تبدُ غاضبة، بل... حزينة.

– "إذن، فستفهم لِمَ أسألك الرحيل."

ثارت في أعماقه غريزة بدائية تطلب البقاء، نزعة عارمة تدفعه للقبض عليها وإرغامها على الفهم؛ بالبيان أو بالبنان، لا يهم، المهم أن تفهم.

بيد أن صوتاً آخر في أعماقه—صوتاً يملؤه الشجن والوحدة، يدرك معنى الألم—أنبأه أنه لو بقي، ولو حاول قهرها على الفهم، فلن يظفر بطائل. ليس في هذه الليلة.

بل سيخسرها إلى الأبد.

فأومأ برأسه موافقاً.

– "سنناقش هذا الأمر لاحقاً."

فلم تجبه بكلمة.

قفل عائداً نحو النافذة. بدا الأمر هزلياً ومثيراً للشفقة، أن يخرج من حيث أتى كاللصوص، بيد أنه تباً لكل شيء، من يبالي؟

قالت هياسنث وهي تولي ظهرها له:

– "تلك المدعوة ماري، أياً كان الخطب معها، فإني موقنة أن له مخرجاً. وأهلي كفلاء بقضاء أي غرامة لو لزم الأمر."

كانت تحاول استعادة زمام نفسها، وتسكين آلامها بالانشغال بالحقائق العملية. أدرك غاريث هذا المذهب؛ فقد سلكه هو نفسه مراراً وتكراراً.

التفت نحوها، والتقى بصره ببصرها:

– "إنها ابنة إيرل روثام."

– "أوه." سكتت لبرهة. "حسناً، هذا يغير وجه المسألة، بيد أني موقنة أنه لو كان أمراً غابراً..."

– "لقد كان."

ابتلعت ريقها قبل أن تسأل:

– "أكان ذلك هو سبب الجفاء بينك وبين أبيك؟ ذلك العهد؟"

– "إنكِ تسرفين في السؤال بالنسبة لشخصٍ أمرني بالانصراف."

– "سأغدو زوجتك." قالتها. "سأعلم الخبر اليقين عاجلاً أم آجلاً."

فرد عليها:

– "أجل، ستعلمين. بيد أنه ليس الليلة."

ومع تلك الكلمة، انسل من النافذة.

رفع بصره حين بلغ الأرض، يتوق لنظرةٍ أخيرة إليها. أي شيء كان سيسعده، خيالها المرتسم خلف الستار، أو طيفها وهو يتحرك في الخفاء.

بيد أنه لم يجد شيئاً.

لقد توارت عن الأنظار.

الفصل السابع عشر

وقت الشاي في المنزل رقم خمسة. هياسنث وحيدة في غرفة الجلوس مع أمها، وهو دائمًا موقف محفوف بالمخاطر حين يكون المرء حاملاً لسر.

– "هل السيد سانت كلير خارج المدينة؟"

رفعت هياسنث بصرها عن تطريزها غير المتقن بالمرة لفترة كافية فقط لتقول:

– "لا أظن ذلك، لِمَ؟"

انطبقت شفتا والدتها للحظة عابرة قبل أن تقول:

– "لم يزرنا منذ عدة أيام".

ثبتت هياسنث تعبيرًا خاليًا من المشاعر على وجهها وهي تقول:

– "أعتقد أنه مشغول بشيء ما أو آخر يتعلق بممتلكاته في ويلتشاير".

كانت كذبة بالطبع. لم تظن هياسنث أنه يمتلك أي ممتلكات، في ويلتشاير أو في أي مكان آخر. لكن مع قليل من الحظ، ستتشتت انتباه والدتها بمسألة أخرى قبل أن تصل إلى الاستفسار عن عقارات غاريث غير الموجودة.

غمغمت فيوليت:

– "أفهم".

طعنت هياسنث إبرتها في القماش بحيوية ربما تزيد قليلاً عما هو ضروري، ثم نظرت لأسفل إلى عملها اليدوي بشيء من الامتعاض. كانت مطرزة فاشلة. لم تمتلك قط الصبر أو العين الثاقبة للتفاصيل التي يتطلبها

الأمر، لكنها كانت تحتفظ دائمًا بطارة تطريز في غرفة الجلوس. لا يدري المرء متى سيحتاج إليها لتوفير إلهاء مقبول عن المحادثة.

نجحت الخدعة جيدًا لسنوات. لكن الآن وقد أصبحت هياسنث ابنة بريدجرتون الوحيدة التي تعيش في المنزل، غالبًا ما كان وقت الشاي يقتصر عليها وعلى والدتها فقط. ولسوء الحظ، فإن التطريز الذي أبقاها بعيدة ببراعة عن المحادثات الثلاثية والرباعية لم يبدُ أنه يؤدي الغرض جيدًا مع اثنتين فقط.

سألت فيوليت:

– "هل ثمة خطب ما؟"

– "بالطبع لا".

لم ترد هياسنث أن ترفع بصرها، لكن تجنب التواصل البصري سيجعل والدتها تشك بالتأكيد، لذا وضعت إبرتها ورفعت ذقنها. إن دخلت في الأمر، فأكمله للنهاية، قررت. إذا كانت ستكذب، فمن الأفضل أن تجعلها مقنعة.

– "إنه مشغول فحسب، هذا كل ما في الأمر. أنا معجبة به نوعًا ما لذلك. أنتِ لا ترغبين في أن أتزوج مبذرًا عاطلاً، أليس كذلك؟"

غمغمت فيوليت:

– "كلا، بالطبع لا، ولكن مع ذلك، يبدو الأمر غريبًا. أنتِ مخطوبة حديثًا جدًا".

في أي يوم آخر، كانت هياسنث لتلتفت ببساطة إلى والدتها وتقول: إذا كان لديكِ سؤال، فقط اسأليه.

باستثناء أن والدتها حينها ستطرح سؤالاً.

وهياسنث بالتأكيد لم ترغب في الإجابة.

مرت ثلاثة أيام منذ علمت الحقيقة عن غاريث. بدا الأمر دراميًا جدًا، بل ميلودراميًا حتى — "علمت الحقيقة". بدا وكأنها اكتشفت سرًا رهيبًا، أو كشفت هيكلاً عظميًا دنيئًا في خزانة عائلة سانت كلير.

لكن لم يكن هناك سر. لا شيء مظلم أو خطير، أو حتى محرج قليلاً. مجرد حقيقة بسيطة كانت تحدق في وجهها طوال الوقت.

وكانت عمياء جدًا عن رؤيتها. الحب يفعل ذلك بالمرأة، افترضت.

وهي بالتأكيد قد وقعت في حبه. كان ذلك القدر واضحًا. في وقت ما بين اللحظة التي وافقت فيها على الزواج منه والليلة التي مارسا فيها الحب، وقعت في حبه.

لكنها لم تكن تعرفه. أم هل كانت؟ هل يمكنها حقًا القول إنها عرفته، عرفت معدن الرجل حقًا، حين لم تفهم حتى العنصر الأكثر أساسية في شخصيته؟

لقد استغلها.

هذا ما كان عليه الأمر. لقد استغلها ليفوز بمعركته التي لا تنتهي مع والده.

وآلمها ذلك أكثر مما كانت لتحلم به أبدًا.

ظلت تخبر نفسها أنها سخيفة، أنها تدقق في التفاصيل. ألا ينبغي أن يُحسب له أنه يستلطفها، أنه يظنها ذكية ومضحكة وحتى حكيمة أحيانًا؟ ألا ينبغي أن يُحسب له أنها تعلم أنه سيحميها ويكرمها، ورغم ماضيه الملطخ نوعًا ما، سيكون زوجًا صالحًا ومخلصًا؟

لماذا يهم لِمَ طلب منها الزواج به؟ ألا ينبغي أن يهم فقط أنه فعل؟

لكن الأمر كان يهم. شعرت بأنها مستغلة، غير مهمة، وكأنها مجرد قطعة شطرنج على رقعة لعبة أكبر بكثير.

والجزء الأسوأ — أنها لم تكن تفهم اللعبة حتى.

- "كانت تلك تنهيدة نابعة من القلب حقًا".

رمشت هياسنث لتركز بصرها على وجه والدتها. يا إلهي، كم من الوقت ظلت جالسة هناك، تحدق في الفراغ؟

سألت فيوليت بلطف:

- "هل هناك شيء ترغبين في إخباري به؟"

هزت هياسنث رأسها. كيف يشارك المرء شيئًا كهذا مع أمه؟

— آه، نعم، بالمناسبة وفي حال كنتِ مهتمة، لقد نمى لعلمي مؤخرًا أن خطيبي طلب مني الزواج به لأنه رغب في إغاظة والده.

— آه، وهل ذكرتُ أنني لم أعد عذراء؟ لا مفر من الأمر الآن!

لا، لن يجدي ذلك نفعًا.

قالت فيوليت وهي تأخذ رشفة صغيرة من شايها:

– "أشك في أنكِ خضتِ أول شجار عشاق لكِ".

حاولت هياسنث جاهدة ألا تحمر خجلاً. عشاق، حقًا.

– "ليس هناك ما يدعو للخجل".

قالت هياسنث بسرعة:

– "أنا لست خجلة".

رفعت فيوليت حاجبيها، وأرادت هياسنث ركل نفسها لوقوعها بهذه البراعة في فخ والدتها.

تمتمت وهي تنقر تطريزها حتى بدت الزهرة الصفراء التي كانت تعمل عليها ككتكوت صغير زغبي:

– "لا شيء".

هزت هياسنث كتفيها وسحبت بعض الخيوط البرتقالية. قد أمنحه بعض الأقدام ومنقارًا أيضًا.

قالت فيوليت:

– "أعلم أنه يُعتبر من غير اللائق إظهار المرء لعواطفه، وبالتأكيد لن أقترح عليكِ الانخراط في أي شيء قد يوصف بالمبالغة المسرحية، لكن أحيانًا يساعد أن تخبري شخصًا ما ببساطة كيف تشعرين".

نظرت هياسنث لأعلى، ملاقية نظرة والدتها مباشرة:

– "نادرًا ما أجد صعوبة في إخبار الناس كيف أشعر".

قالت فيوليت، وقد بدت مستاءة قليلاً لنسف نظريتها:

– "حسنًا، هذا القدر صحيح".

عادت هياسنث لتطريزها، عابسة حين أدركت أنها وضعت المنقار عاليًا جدًا. آه، حسنًا جدًا، إنه كتكوت يرتدي قبعة احتفال.

أصرت والدتها:

– "ربما السيد سانت كلير هو من يجد صعوبة في..."

قاطعتها هياسنث:

– "أنا أعرف كيف يشعر".

– "آه".

زمت فيوليت شفتيها وأطلقت زفرة قصيرة عبر أنفها.

– "ربما ليس واثقًا من كيفية المضي قدمًا. كيف ينبغي له أن يتوجه إليكِ".

– "إنه يعرف أين أعيش".

تنهدت فيوليت بصوت مسموع:

– "أنتِ لا تسهلين الأمر عليّ".

– "أحاول التطريز".

رفعت هياسنث عملها اليدوي كدليل.

– "أنتِ تحاولين تجنب..."

توقفت والدتها، ترمش.

– "أقول، لِمَ لتلك الزهرة أذن؟"

– "ليست أذنًا".

نظرت هياسنث لأسفل.

– "وليست زهرة".

– "ألم تكن زهرة بالأمس؟"

قالت هياسنث من بين أسنانها وهي تمنح الزهرة اللعينة أذنًا أخرى:

– "لدي عقل مبدع للغاية".

قالت فيوليت:

– "ذلك لم يكن موضع شك أبدًا".

نظرت هياسنث لأسفل إلى الفوضى على القماش.

– "إنها قطة مرقطة. أحتاج فقط لمنحها ذيلاً".

لزمت فيوليت الصمت للحظة، ثم قالت:

– "يمكنكِ أن تكوني قاسية جدًا على الناس".

انتفض رأس هياسنث لأعلى. صاحت:

– "أنا ابنتكِ!"

ردت فيوليت، وقد بدت مصدومة نوعًا ما من قوة رد فعل هياسنث:

– "بالطبع. ولكن..."

– "لماذا يجب أن تفترضي أنه مهما كان الخطب، لا بد أنه خطئي؟"

– "لم أفعل!"

– "بلى فعلتِ".

وفكرت هياسنث في مشاحنات لا حصر لها بين إخوة بريدجرتون.

– "أنتِ تفعلين دائمًا".

ردت فيوليت بشهقة مرتاعة:

– "هذا غير صحيح يا هياسنث. الأمر فقط أنني أعرفكِ أفضل مما أعرف السيد سانت كلير، و..."

– "... وبالتالي تعرفين كل عيوبي؟"

– "حسنًا... نعم".

بدت فيوليت مندهشة من إجابتها الخاصة وسارعت لتضيف:

– "هذا لا يعني أن السيد سانت كلير لا يمتلك نقاط ضعف وعيوبًا خاصة به. الأمر فقط أن... حسنًا، أنا لست على دراية بها فحسب".

قالت هياسنث بمرارة:

– "إنها كبيرة، وربما لا يمكن التغلب عليها".

قالت والدتها، وكان في صوتها قلق بالغ لدرجة أن هياسنث كادت تنفجر بالبكاء في التو واللحظة:

– "آه يا هياسنث. ما الذي يمكن أن يكون الأمر؟"

نظرت هياسنث بعيدًا. ما كان ينبغي لها قول أي شيء. الآن ستكون والدتها قلقة للغاية، وسيتعين على هياسنث الجلوس هناك، تشعر بالسوء، راغبة بشدة في إلقاء نفسها بين ذراعيها والعودة طفلة مرة أخرى.

حين كانت صغيرة، كانت مقتنعة بأن والدتها تستطيع حل أي مشكلة، وجعل أي شيء أفضل بكلمة ناعمة وقبلة على الجبين.

لكنها لم تعد طفلة، وهذه لم تكن مشاكل أطفال.

ولم تستطع مشاركتها مع والدتها.

سألت فيوليت بنعومة وحذر شديد:

– "هل ترغبين في فسخ الخطبة؟"

هزت هياسنث رأسها. لم تكن تستطيع التراجع عن الزواج. لكن...

نظرت بعيدًا، مندهشة من اتجاه أفكارها. هل أرادت حتى التراجع عن الزواج؟ لو لم تسلم نفسها لـ غاريث، لو لم يمارسا الحب، ولم يكن هناك ما يجبرها على البقاء في الخطبة، ماذا كانت ستفعل؟

لقد أمضت الأيام الثلاثة الماضية مهووسة بتلك الليلة، بتلك اللحظة المروعة حين سمعت والد غاريث يتحدث ضاحكًا عن كيف تلاعب به ليتقدم لخطبتها. لقد راجعت كل جملة في رأسها، كل كلمة استطاعت تذكرها، ومع ذلك كانت الآن فقط تسأل نفسها ما يجب أن يكون السؤال الأهم. السؤال الوحيد الذي يهم، حقًا. وأدركت...

أنها ستبقى.

كررتها في عقلها، مستغرقة وقتًا لتستقر الكلمات.

ستبقى.

هي تحبه. هل كان الأمر حقًا بهذه البساطة؟

قالت، رغم أنها هزت رأسها بالفعل:

– "لا أرغب في الفسخ".

بعض الأشياء كان يجب أن تقال بصوت عالٍ.

قالت فيوليت:

– "إذن سيتعين عليكِ مساعدته. مهما كان ما يزعجه، سيكون الأمر متروكًا لكِ لمساعدته".

أومأت هياسنث ببطء، غارقة جدًا في أفكارها لتقديم رد أكثر جدوى. هل تستطيع مساعدته؟ هل كان ذلك ممكنًا؟ كانت تعرفه منذ شهر بالكاد؛ بينما كان لديه عمر كامل لبناء هذه الكراهية مع والده.

قد لا يريد المساعدة، أو ربما الأرجح — قد لا يدرك أنه بحاجة إليها. الرجال لا يدركون ذلك أبدًا.

قالت والدتها:

– "أنا أؤمن بأنه يهتم لأمركِ. أؤمن حقًا بأنه يفعل".

قالت هياسنث بحزن:

– "أعلم أنه يفعل".

لكن ليس بقدر ما يكره والده.

وحين جثا على ركبة واحدة وطلب منها قضاء بقية حياتها معه، وحمل اسمه وإنجاب أطفاله، لم يكن ذلك بسببها.

ماذا يقول ذلك عنه؟

تنهدت، تشعر بتعب شديد.

قالت والدتها:

– "هذا لا يشبهكِ".

نظرت هياسنث لأعلى.

أوضحت فيوليت:

– "أن تكوني هادئة هكذا. أن تنتظري".

رددت هياسنث:

– "أنتظر؟"

– "تنتظرينه. أفترض أن هذا ما تفعلينه، تنتظرين أن يزوركِ ويتوسل غفرانكِ عما فعله".

– "أنا..."

توقفت. كان هذا بالضبط ما تفعله. لم تكن تدرك ذلك حتى. وربما كان ذلك جزءًا من سبب شعورها بالبؤس الشديد. لقد وضعت مصيرها وسعادتها في يدي شخص آخر، وكرهت ذلك.

اقترحت فيوليت:

– "لماذا لا ترسلين له رسالة؟ اطلبي منه زيارتكِ. إنه رجل نبيل، وأنتِ خطيبته. لن يرفض أبدًا".

تمتمت هياسنث:

– "كلا، لن يفعل. ولكن..."

نظرت لأعلى، وعيناها تتوسلان النصيحة.

– "ماذا سأقول؟"

كان سؤالاً سخيفاً. لم تكن فيوليت تعرف حتى ما المشكلة، فكيف يمكنها معرفة الحل؟ ومع ذلك، بطريقة ما، وكالعادة، تمكنت من قول الشيء الصحيح تمامًا.

قالت فيوليت:

– "قولي كل ما في قلبكِ".

التوت شفتاها بسخرية.

– "وإذا لم ينجح ذلك، أقترح أن تأخذي كتابًا وتضربيه به على رأسه".

رمشت هياسنث، ثم رمشت مرة أخرى.

– "عذرًا؟"

قالت فيوليت بسرعة:

– "لم أقل ذلك".

شعرت هياسنث بنفسها تبتسم.

– "أنا واثقة نوعًا ما أنكِ فعلتِ".

تمتمت فيوليت مخفية ابتسامتها بكوب الشاي:

– "أتظنين ذلك؟"

استفسرت هياسنث:

– "كتاب كبير، أم صغير؟"

– "كبير، أظن، ألا تظنين؟"

أومأت هياسنث.

– "هل لدينا الأعمال الكاملة لـ شكسبير في المكتبة؟"

ارتجفت شفتا فيوليت.

– "أعتقد أننا نملكها".

بدأ شيء ما يغلي في صدر هياسنث. شيء قريب جدًا من الضحك. وكان شعورًا جيدًا جدًا أن تشعر به مرة أخرى.

قالت، وقد تملكها فجأة احتياج لقول ذلك بصوت عالٍ:

– "أنا أحبكِ يا أمي. أردتُ فقط أن تعرفي ذلك".

قالت فيوليت وعيناها تلمعان ببريق:

– "أعلم يا عزيزتي. أنا أحبكِ أيضًا".

أومأت هياسنث. لم تتوقف أبدًا لتفكر كم كان ذلك ثمينًا — الحصول على حب والد. كان شيئًا لم يحصل عليه غاريث قط. الله وحده يعلم كيف كانت طفولته. لم يتحدث عنها أبدًا، وخجلت هياسنث لإدراكها أنها لم تسأل قط.

لم تلاحظ حتى الإغفال.

ربما، ربما فقط، كان يستحق قليلاً من التفهم من جانبها.

سيظل عليه استجداء غفرانها؛ فهي ليست ممتلئة بالطيبة والإحسان لتلك الدرجة. لكنها يمكن أن تحاول الفهم، ويمكنها أن تحبه، وربما، إذا حاولت بكل ما أوتيت من قوة، يمكنها ملء ذلك الفراغ بداخله.

مهما كان ما يحتاجه، ربما يمكنها أن تكونه.

وربما سيكون ذلك كل ما يهم.

لكن في غضون ذلك، سيتعين على هياسنث بذل قليل من الطاقة لتحقيق نهايتها السعيدة. وكان لديها شعور بأن رسالة لن تكون كافية.

حان الوقت لتكون جريئة، حان الوقت لتكون مقدامة.

حان الوقت لمواجهة الأسد في عرينه، لـ...

جاء صوت والدتها:

- "أقول يا هياسنث، هل أنتِ بخير تمامًا؟"

هزت رأسها، حتى وهي تقول:

- "أنا بخير تمامًا. فقط أفكر كالحمقى، هذا كل شيء".

حمقاء واقعة في الحب.

الفصل الثامن عشر

في وقت متأخر من بعد ظهر ذلك اليوم، وفي حجرة الدراسة الصغيرة الملحقة بجناح غاريث سانت كلير الضيق، توصل بطلنا إلى قناعة تامة: لا بد من اتخاذ خطوة ما.

ولم يكن يدرك أن هياسنث كانت على وشك أن تسبقه إلى غايته.

بادرة كبرى..

هذا ما قرره غاريث؛ هذا ما كان يحتاجه حقًا. لفتة كبرى تأسر الألباب.

فالنساء يعشقن البادرات الكبرى، ورغم أن هياسنث لم تكن تشبه أي امرأة تعامل معها من قبل، إلا أنها تظل امرأة في نهاية المطاف، ولا بد أن تميل – ولو قليلًا – أمام لفتة درامية مؤثرة.

ألن تفعل؟

فكر غاريث بضيق: من الأفضل لها أن تفعل، لأنني لا أملك حيلة أخرى.

لكن معضلة البادرات الكبرى تكمن في أن أعظمها يحتاج عادة إلى المال، وهو الشيء الذي يفتقر إليه غاريث بشدة. أما تلك التي لا تتطلب مالاً وفيرًا، فغالبًا ما تنطوي على إحراج المرء لنفسه بشكل علني ومبتذل؛ كإلقاء الشعر أو غناء موشح، أو إلقاء اعتراف عاطفي سمج أمام ثمانمائة شاهد.

قرر غاريث أن هذا النوع من الحماقات لا يناسبه أبدًا.

ولأن هياسنث – كما لاحظ مرارًا – أنثى من طراز فريد، فقد كان يأمل أن تنجح معها بادرة فريدة من نوعها. سيريها مدى اهتمامه بها، وحينها ستنسى كل هذا الهراء المتعلق بوالده، وسيعود كل شيء إلى نصابه.

لا بد أن يستقيم الأمر.

قطع حبل أفكاره صوت خادمه الخاص:

– "سيد سانت كلير، لديك زائرة."

رفع غاريث بصره. كان جالسًا خلف مكتبه لفترة طويلة حتى خُيل إليه أنه كاد يضرب جذوره في مكانه. كان خادمه فيليبس واقفًا عند عتبة الباب. ولأن غاريث لا يملك ترف استئجار رئيس خدم – وبصراحة، من يحتاج لواحد في شقة من أربع غرف؟ – فقد كان فيليبس يقوم بمهام "البوتلر" أيضًا.

قال غاريث بشرود وهو يزيح بعض الكتب فوق الأوراق المبعثرة على مكتبه:

– "أدخلها."

سمع صوت سعال متردد: "إحم.. إحم.."

نظر غاريث إليه متسائلاً:

– "هل هناك مشكلة؟"

أجاب الخادم بوجه ينم عن الضيق:

– "في الواقع.. لا.."

حاول غاريث أن يشفق عليه؛ فالمسكين فيليبس لم يكن يتوقع حين تقدم للوظيفة أنه سيضطر للقيام بدور رئيس الخدم أحيانًا، ومن الواضح أنه لم يتقن بعد مهارة "البوتلر" في الحفاظ على وجه خالٍ من التعبيرات.

سأله غاريث باهتمام:

– "سيد فيليبس؟"

– "الزائر امرأة يا سيد سانت كلير."

سأله غاريث فقط ليرى حمرة الخجل على وجهه:

– "خُنثى مثلًا يا سيد فيليبس؟"

ويُحسب للخادم أنه لم يبدِ أي رد فعل سوى شد قامته بجمود وقال:

– "إنها الآنسة بريدجرتون."

قفز غاريث واقفًا بسرعة كبيرة لدرجة أن فخذيه اصطدما بحافة المكتب.

– "هنا؟ الآن؟"

أومأ فيليبس برأسه، وبدا عليه شيء من التمتع بارتباك سيده:

– "لقد سلمتني بطاقتها، وكانت مهذبة للغاية في طلبها، وكأن مجيئها أمر عادي تمامًا."

دارت الأفكار في رأس غاريث محاولًا فهم السبب الذي قد يدفع هياسنث للقيام بمثل هذه الخطوة المتهورة؛ أن تزوره في منزله في وضح النهار! لا يعني هذا أن زيارة منتصف الليل كانت لتكون أفضل، لكن أي عدد من الفضوليين قد يكون قد رآها وهي تدخل المبنى.

قال:

– "آه.. أدخلها."

لم يكن بوسعه طردها، وفي كل الأحوال، سيكون لزامًا عليه مرافقتها إلى منزلها بنفسه. لم يتخيل أبدًا أنها جاءت برفقة حارس مناسب؛ فالأرجح أنها لم تجلب معها سوى خادمتها التي لا تكف عن أكل أقراص النعناع، والله وحده يعلم أن تلك الخادمة لا تصلح لحمايتها في شوارع لندن.

وقف مكتوف اليدين بانتظارها. كانت غرفه مرتبة على شكل مربع، ويمكن الوصول إلى مكتبه إما من غرفة الطعام أو من غرفة نومه. ولسوء الحظ، اختارت خادمة النهار هذا اليوم تحديدًا لطلاء أرضية غرفة الطعام بنوع من الشمع النصف سنوي الذي أقسمت (بصوت عالٍ وعلى قبر والدتها العزيزة) أنه سيحمي الأرضية ويقي من الأمراض. ونتيجة لذلك، دُفع الطاولة لتسد باب المكتب، مما يعني أن الطريق الوحيد للدخول هو عبر غرفة نومه.

أطلق غاريث زفيرًا حانقًا وهز رأسه. آخر ما كان يحتاجه هو أن يتخيل هياسنث في غرفة نومه.

أتمنى لو شعرت ببعض الحرج وهي تمر من هناك، فهذا أقل ما تستحقه بعد مجيئها بمفردها.

قالت وهي تظهر عند الباب:

– "غاريث."

وتبخرت كل نواياه الحسنة في لحظة. صرخ بها متسائلًا:

– "ما الذي تفعلينه هنا بحق الجحيم؟"

أجابت ببرود أظهر حماقته:

– "من اللطيف رؤيتك أيضًا."

لكنه استمر في توبيخها:

– "لقد رآكِ الكثيرون بالتأكيد. ألا تبالين بسمعتكِ؟"

هزت كتفيها برقة وهي تنزع قفازيها:

– "أنا مخطوبة وسأتزوج قريبًا. أنت لا تستطيع التراجع، وأنا لا أنوي ذلك، لذا لا أظن أن سمعتي ستنهار تمامًا إن رآني أحد."

حاول غاريث تجاهل موجة الارتياح التي اجتاحت صدره عند سماع كلماتها. لقد بذل جهدًا كبيرًا ليضمن عدم تراجعها، وهي كانت قد أكدت له ذلك من قبل، ومع ذلك، كان وقع الكلمات على أذنيه مريحًا بشكل مفاجئ.

قال ببطء وهو ينتقي كلماته بعناية:

– "حسنًا جدًا.. لماذا أنتِ هنا إذن؟"

قالت بلهجة عملية حازمة:

– "لم آتِ لمناقشة موضوع والدك، إن كان هذا ما يقلقك."

أجاب بحدة:

– "لستُ قلقًا."

رفعت حاجبًا واحدًا. تبًا، لماذا اخترت الزواج من المرأة الوحيدة في العالم التي تتقن هذه الحركة؟ أو على الأقل الوحيدة في محيطي.

كرر بتوتر:

– "لستُ قلقًا."

لم ترد مباشرة، لكنها رمقته بنظرة تقول إنها لا تصدقه للحظة واحدة. ثم قالت:

– "لقد جئت لمناقشة أمر الجواهر."

ردد وراءها:

– "الجواهر؟"

أجابت بصوتها الرسمي الرزين:

– "نعم، آمل ألا تكون قد نسيت أمرها."

تمتم قائلًا:

– "وكيف لي أن أنسى؟"

بدأ يشعر بالاستفزاز من برودها. كان يغلي من الداخل، متوترًا بمجرد رؤيتها، بينما كانت هي هادئة بشكل مبالغ فيه، بل وباتزان لا يُصدق.

تابعت قائلة:

– "آمل أنك لا تزال تنوي البحث عنها؛ فقد قطعنا شوطًا طويلاً ولا يمكننا الاستسلام الآن."

سألها محاولًا الحفاظ على نبرة مستقرة:

– "وهل لديكِ أدنى فكرة من أين نبدأ؟ على حد علمي، فقد اصطدمنا بطريق مسدود."

مدت يدها في حقيبتها وأخرجت آخر دليل من إيزابيلا، والذي كان بحوزتها منذ افترقا قبل أيام. وبأصابع ثابتة وحذرة، فردت الورقة فوق مكتبه وقالت:

– "لقد سمحتُ لنفسي بعرض هذه الورقة على شقيقي كولين، وقد سمحتَ لي بذلك من قبل."

أومأ لها بالموافقة.

– "كما ذكرتُ لك، لقد سافر كثيرًا في القارة الأوروبية، ويرى أن هذه الكلمات مكتوبة بلغة سلافية. وبعد استشارة الخريطة، خمن أنها اللغة

"السلوفينية"." ولما رأت نظراته الخالية من الفهم، أضافت: "إنها اللغة التي يتحدثون بها في سلوفينيا."

رمش غاريث بعينيه قائلًا:

– "وهل هناك بلد بهذا الاسم؟"

لأول مرة منذ دخولها، ابتسمت هياسنث:

– "موجودة بالفعل. أعترف بأنني لم أكن أعرف بوجودها أيضًا. هي أشبه بمنطقة تقع شمال وشرق إيطاليا."

– "جزء من إمبراطورية النمسا والمجر إذن؟"

أومأت هياسنث برأسها:

– "وقبلها الإمبراطورية الرومانية المقدسة. هل كانت جدتكِ من شمال إيطاليا؟"

أدرك غاريث فجأة أنه لا يملك أدنى فكرة. كانت الجدة إيزابيلا تحب إخباره بقصص عن طفولتها في إيطاليا، لكنها كانت حكايات عن الطعام والعطلات؛ الأشياء التي تثير اهتمام صبي صغير. إن كانت قد ذكرت مسقط رأسها، فقد كان أصغر من أن يلاحظ ذلك.

قال وهو يشعر بالجهل وبشيء من التقصير:

– "لا أعرف. أفترض أنها كانت كذلك. لم تكن داكنة البشرة جدًا، بل كان لون بشرتها كلون بشرتي في الواقع."

أومأت هياسنث:

– "لقد تساءلتُ عن ذلك. لا أنت ولا والدك تملكان ذلك المظهر المتوسطي الصارخ."

ابتسم غاريث بضيق. لم يكن يستطيع التحدث نيابة عن البارون، لكن كان هناك سبب وجيه جدًا لعدم امتلاكه ملامح إيطالية خالصة.

قالت هياسنث وهي تعيد نظرها إلى الورقة:

– "حسناً، إن كانت من الشمال الشرقي، فمن المنطقي أنها عاشت بالقرب من الحدود السلوفينية، وبالتالي كانت ملمة بتلك اللغة، أو على الأقل ملمة بما يكفي لكتابة جملتين بها."

– "لكنني لا أتخيل أنها ظنت أن أحداً هنا في إنجلترا سيتمكن من ترجمتها."

قالت بحماس:

– "بالضبط!" ولما رأت عدم فهمه، تابعت: "إذا أردتَ جعل اللغز صعبًا للغاية، ألن تكتبه بأكثر لغة غامضة ممكنة؟"

تمتم ساخرًا:

– "من المؤسف حقًا أنني لا أتحدث الصينية."

رمقته بنظرة – لم يدرِ أهي نفاذ صبر أم ضيق – ثم تابعت:

– "أنا مقتنعة أيضًا أن هذا هو الدليل الأخير. فأي شخص وصل إلى هذه المرحلة سيضطر لبذل مجهود شاق، وربما دفع مبالغ طائلة للحصول على ترجمة. بالتأكيد لن تجبره على خوض العناء نفسه مرتين."

نظر غاريث إلى الكلمات الغريبة، وهو يعض على شفته السفلى متأملًا.

أصرت هياسنث:

– "ألا توافقني الرأي؟"

نظر إليها وهز كتفيه:

– "حسناً، لو كنتِ مكانها لفعلتِ ذلك."

انفغر فاها دهشة:

– "ماذا تقصد؟ هذا ليس.." صمتت للحظة تفكر في كلامه، ثم قالت: "حسنًا، كنتُ لأفعل ذلك. لكننا نتفق، للخير أو للشر، أنني أكثر دهاءً من النساء العاديات، بل ومن الرجال أيضًا."

ابتسم غاريث بمرارة، متسائلًا إن كان عليه أن يقلق من عبارة "للخير أو للشر".

سألت بصوت خفتت نبرته قليلاً:

– "هل تظن أن جدتك كانت بدهائـ.. إحم.. بدهائي؟" بدا أن حماسها فتر قليلاً، ورأى غاريث في عينيها أنها لم تكن متماسكة كما تدعي.

قال بصدق:

– "لا أعرف. لقد توفيت وأنا صغير جدًا، وتصوراتي عنها هي تصورات طفل في السابعة."

قالت وهي تنقر بأصابعها على المكتب في حركة كشفت توترها:

– "حسنًا، يمكننا البدء بالبحث عن شخص يتحدث السلوفينية." وأضافت بتهكم: "لا بد من وجود واحد على الأقل في لندن."

تمتم مستفزًا إياها:

– "هذا ما يظنه المرء." لم يكن ينبغي له فعل ذلك، كان يجب أن يكون أكثر حكمة، لكن كان هناك شيء.. ممتع للغاية في مراقبة هياسنث وهي مصممة على أمر ما.

وكالعادة، لم تخذله. قالت بلهجة عملية للغاية:

– "في هذه الأثناء، أرى وجوب العودة إلى منزل 'كلير'."

سألها بأدب مبالغ فيه ليظهر لها أنه يراها مجنونة:

– "ونفتشه من الأعلى إلى الأسفل؟"

ردت بعبوس:

– "بالطبع لا."

كاد يبتسم؛ فهذا الرد يشبهها تمامًا.

تابعت:

– "لكن يبدو لي أن الجواهر يجب أن تكون مخبأة في غرفة نومها."

– "ولماذا تظنين ذلك؟"

– "أين يمكن أن تضعها غير ذلك؟"

اقترح وهو يميل برأسه:

– "غرفة ملابسها، غرفة الجلوس، العلية، خزانة رئيس الخدم، غرفة الضيوف، غرفة الضيوف الأخرى.."

قاطعته بضيق من سخريته:

– "لكن أين سيكون المكان الأكثر منطقية؟ حتى الآن، هي تضع كل شيء في مناطق نادراً ما يزورها جدك. أين يوجد مكان أفضل من غرفة نومها؟"

تأملها بتفكير طويل جعل حمرة الخجل تعلو وجهها، ثم قال أخيرًا:

– "نعلم أنه زارها هناك مرتين على الأقل."

رمشت بعينيها:

– "مرتين؟"

أوضح لها رغم أنها لم تسأل:

– "والدي، وشقيقه الأصغر الذي قُتل في معركة ترافالغار."

– "آه.. أنا آسفة." بدا أن هذا الخبر أطفأ حماسها للحظة.

هز غاريث كتفيه:

– "لقد كان ذلك منذ زمن بعيد، لكن شكرًا لكِ."

أومأت ببطء، وكأنها لا تدري ماذا تقول الآن.

– "حسنًا.. إذن.."

كرر وراءها:

– "حسنًا."

قالت بهدوء:

– "إذن.."

رد بصوت خفيض:

– "إذن.."

انفجرت فجأة:

– "أوه، سحقًا لكل هذا! لا أستطيع تحمل هذا الوضع. لستُ من النوع الذي يجلس مكتوف الأيدي ويكنس المشاكل تحت السجادة."

فتح غاريث فمه ليتحدث، لكنها لم تنتهِ بعد.

– "أعرف أنني يجب أن أصمت، وأعرف أنني يجب أن أترك الأمور وشأنها، لكنني لا أستطيع. ببساطة، لا أستطيع." نظرت إليه وكأنها تريد الإمساك بكتفيه وهزه بقوة: "هل تفهم؟"

اعترف بصدق:

– "ولا كلمة."

صرخت:

– "لا بد أن أعرف! لا بد أن أعرف لماذا طلبتَ الزواج مني."

كان هذا موضوعًا لا يرغب في العودة إليه:

– "ظننتكِ قلتِ إنك لم تأتِ لمناقشة أمر والدي."

قالت:

– "كذبت. ألم تصدقني حقًا؟"

– "لا، أظنني لم أفعل."

كانت تعتصر يديها وتبدو متألمة ومعذبة أكثر مما رآها من قبل. انسدلت بعض خصلات شعرها، وعلت وجهها حمرة قوية.

لكن عينيها هما اللتان تغيرتا أكثر من أي شيء آخر. كان فيهما يأس، وانزعاج غريب لا ينتمي إليها. وأدرك حينها ميزة هياسنث التي تميزها عن بقية البشر؛ إنها دائماً متصالحة مع نفسها، تعرف من تكون وتحب ما هي عليه، وهذا ما جعله يستمتع برفقتها.

وأدرك أنها تمتلك – بل وهي بحد ذاتها – الكثير من الأشياء التي طالما أرادها. هي تعرف مكانتها في هذا العالم، وتعرف إلى أين تنتمي، ومع مَن تنتمي.

وهو أراد الشيء نفسه، أراده بكثافة تغلغلت في أعماق روحه. كانت غيرة غريبة لا توصف، لكنها كانت هناك، تحرقه.

قالت:

– "إن كان لديك أي ذرة من مشاعر تجاهي، ستفهم مدى صعوبة هذا الأمر بالنسبة لي، لذا بحق الله يا غاريث، قل شيئاً!"

فتح فمه ليتكلم، لكن الكلمات خنقته. لماذا طلب الزواج منها؟ كان هناك مائة سبب، بل ألف. حاول تذكر اللحظة التي قذفت بالفكرة في رأسه. جاءت فجأة – يتذكر ذلك جيدًا – لكنه لم يتذكر السبب بالضبط، سوى أن الأمر بدا صحيحًا تمامًا. ليس لأنه متوقع، ولا لأنه لائق، بل لأنه "صحيح".

نعم، صحيح أن فكرة الانتصار النهائي في لعبته التي لا تنتهي مع والده قد خطرت بباله، لكن لم يكن هذا هو السبب.

لقد فعل ذلك لأنه اضطر إليه. لأنه لم يستطع تخيل عدم فعله.

لأنه أحبها.

شعر بانهيار قواه، ولولا المكتب الذي كان يستند إليه لسقط أرضًا.

كيف حدث هذا؟ أنا واقع في حب هياسنث بريدجرتون.

بالتأكيد هناك من يضحك عليّ في مكان ما الآن.

قالت بصوت متهدج:

– "سأرحل."

ولم يدرك أنه ظل صامتًا لدقيقة كاملة إلا عندما وصلت إلى الباب.

نادى بصوت أجش للغاية:

– "لا! انتظري! أرجوكِ."

توقفت، والتفتت، ثم أغلقت الباب.

وأدرك حينها أنه يجب أن يخبرها. ليس بأنه يحبها – لم يكن مستعدًا لهذا الاعتراف بعد – بل بالحقيقة حول مولده. لا يمكنه خداعها وجرّها للزواج.

– "هياسنث، أنا.."

غصت الكلمات في حلقه. لم يخبر أحدًا قط، ولا حتى جدته. لم يعرف الحقيقة أحد سواه والبارون. لعشر سنوات، احتفظ غاريث بالسر داخله، تركه ينمو ويملأ كيانه حتى شعر أحيانًا أنه ليس سوى ذلك السر؛ ليس سوى كذبة.

قال بتردد:

– "يجب أن أخبركِ بشيء ما."

سكنت تمامًا، وكأنها شعرت أن ما سيقال ليس بالأمر العادي. وهياسنث نادرًا ما تسكن.

– "أنا.. والدي.."

كان الأمر غريبًا؛ لم يفكر أبدًا في قول ذلك، ولم يتدرب على الكلمات. لم يعرف كيف يصيغ الجمل.

انفجر قائلًا في النهاية:

– "إنه ليس والدي الحقيقي."

رمشت هياسنث بعينيها مرتين.

– "لا أعرف من هو والدي الحقيقي."

ظلت صامتة.

– "وأتوقع أنني لن أعرف أبدًا."

راقب وجهها منتظرًا أي رد فعل. كانت خالية من التعبيرات، ساكنة لدرجة أنها لم تبدُ كأنها هي. وفجأة، وبينما كان يظن أنه فقدها للأبد، انزمّ فمها في خط حازم وقالت:

– "حسنًا، هذا يبعث على الارتياح حقًا."

انفرجت شفتاه دهشة:

– "عذرًا؟"

– "لم أكن متحمسة أبدًا لفكرة أن يحمل أطفالي دماء اللورد 'سانت كلير'." هزت كتفيها ورفعت حاجبيها بتعبيرها المعهود: "أنا سعيدة بحصولهم على لقبه، فهو أمر مفيد، لكن دمه شيء آخر تمامًا. إنه سيء الطباع بشكل مذهل، هل كنت تعلم ذلك؟"

أومأ غاريث برأسه، وشعر بفقاعة من المشاعر المبهجة تتصاعد في صدره:

– "لقد لاحظتُ ذلك."

قالت وكأنها تتحدث عن إشاعة عادية:

– "أفترض أنه يجب علينا إبقاء الأمر سرًا. مَن غيرنا يعرف؟"

رمش بعينيه وهو لا يزال مذهولًا من طريقتها العملية في التعامل مع المشكلة:

– "البارون وأنا فقط، على حد علمي."

– "ووالدك الحقيقي."

قال غاريث:

– "أرجو ألا يكون كذلك."

وأدرك أنها المرة الأولى التي يسمح لنفسه فيها بنطق هذه الكلمات، بل والتفكير فيها حقًا.

قالت هياسنث بهدوء:

– "قد لا يكون قد عرف، أو ربما ظن أنك ستكون في وضع أفضل مع عائلة 'سانت كلير' كابن نبيل."

قال غاريث بمرارة:

– "أعرف كل هذا، لكنه لا يجعلني أشعر بتحسن."

– "ربما كانت جدتك تعرف أكثر."

طارت عيناه إلى وجهها.

أوضحت قائلة:

– "إيزابيلا.. في مذكراتها."

– "لم تكن جدتي الحقيقية فعليًا."

– "وهل تصرفت يومًا على هذا الأساس؟ هل أشعرتك أنك لست حفيدها؟"

هز رأسه:

– "لا.. لقد أحبتني. لا أعرف لماذا، لكنها فعلت."

قالت هياسنث بصوت فيه غصة غريبة:

– "قد يكون السبب.. أنك محبوب قليلاً."

قفز قلبه فرحاً:

– "إذن أنتِ لا ترغبين في إنهاء الخطبة؟" سألها بحذر.

نظرت إليه بنظرة مباشرة غير معهودة:

– "وهل ترغب أنت في ذلك؟"

هز رأسه نفيًا.

قالت والابتسامة ترتسم على شفتيها:

– "لماذا ظننت إذن أنني سأفعل؟"

– "قد تعترض عائلتكِ."

– "هراء! نحن لسنا متغطرسين إلى هذا الحد. زوجة أخي هي الابنة غير الشرعية لإيرل 'بينوود' من ممثلة لا يعرف أحد أصلها، وأي فرد منا قد يضحي بحياته من أجلها." ضيقت عينيها بتفكير: "لكنك لست ابناً غير شرعي."

هز رأسه:

– "مما يثير استياء والدي الأبدي."

– "إذن لا أرى مشكلة. أخي وصوفي يحبان العيش بهدوء في الريف، جزئيًا بسبب ماضيها، لكننا لن نضطر لفعل الشيء نفسه.. إلا إذا رغبتَ أنت في ذلك."

حذرها قائلًا:

– "البارون قد يثير فضيحة كبرى."

ابتسمت:

– "هل تحاول إقناعي بالتراجع عن الزواج منك؟"

– "أريدكِ فقط أن تفهمي.."

– "لأنه كان يجدر بك أن تتعلم الآن أن محاولة إثنائي عن أي شيء هي مسعى ممل وغير مجدٍ."

لم يملك غاريث إلا الابتسام.

أكدت قائلة:

– "والدك لن ينطق بكلمة. ما الفائدة؟ لقد وُلدت في ظل زواج شرعي، لذا لا يمكنه انتزاع اللقب منك، وفضحك كابن غير شرعي لن يؤدي إلا إلى فضحه

هو كرجل مخدوع." لوحت بيدها ـفي الهواء بسلطة مطلقة: "لا يوجد رجل يرغب في ذلك."

تقوس ثغره بابتسامة، وشعر بشيء يتغير داخله، وكأنه أصبح أخف وزنًا وأكثر حرية.

تمتم وهو يقترب منها ببطء:

– "وهل تتحدثين باسم كل الرجال؟"

– "هل ترغب أنت ـفي أن تُعرف بأنك مخدوع؟"

هز رأسه:

– "لكن لا داعي للقلق بشأن ذلك."

بدت مرتبكة قليلاً – ومتحمسة أيضًا – وهو يغلق المسافة بينهما.

– "ليس إذا أبقيتني سعيدة."

– "يا للآنسة هياسنث بريدجرتون، هل هذا تهديد؟"

تحول تعبيرها إلى دلال:

– "ربما."

كان الآن على بعد خطوة واحدة منها:

– "أرى أن أمامي عملاً شاقًا."

ارتفع ذقنها، وبدأ صدرها يعلو ويهبط بسرعة أكبر:

– "أنا لست امرأة سهلة المنال."

أمسك يدها ورفع أصابعها إلى فمه:

– "أنا أعشق التحديات."

– "إذن من الجيد أنك.."

أخذ أحد أصابعها ووضعه بين شفتيه، فشهقت.

– ".. ستتزوجني،" أكملت بصعوبة.

انتقل إلى إصبع آخر:

– "هممم.."

– "أنا.. آه.. أنا.."

ضحك بخفة:

– "أنتِ تحبين الكلام كثيراً."

– "ماذا تقـ.. أوه!.."

ابتسم لنفسه وهو يقبل معصمها من الداخل.

– ".. تقصدين بذلك؟" لم يبقَ في سؤالها الكثير من القوة. كانت حرفيًا تذوب وهي تستند إلى الجدار، وشعر هو كأنه ملك العالم.

تمتم وهو يجذبها إليه ليقترب من جانب عنقها:

– "لا شيء.. فقط أنني أتطلع للزواج منك فعليًا لكي تطلقي كل الأصوات التي تحلو لكِ."

لم يستطع رؤية وجهها، فقد كان مشغولاً جدًا بياقة فستانها التي كان لا بد من إزاحتها قليلاً، لكنه شعر بحرارة الخجل تحت جلدها.

قالت باحتجاج واهن:

– "غاريث.. يجب أن نتوقف."

قال وهو يمرر يده تحت طرف تنورتها بعدما تأكد أن الصدر لن يتزحزح:

– "أنتِ لا تعنين ذلك."

تنهدت:

– "لا.. ليس حقًا."

ابتسم:

– "جيد."

أطلقت أنيناً ناعماً عندما داعبت أصابعها ساقها، ثم يبدو أنها استجمعت آخر ذرة من عقلها لتقول:

– "لكن لا يمكننا.. أوه.."

وافقها الرأي:

– "لا، لا يمكننا." فالمكتب لن يكون مريحًا، ولا توجد مساحة على الأرض، والله وحده يعلم إن كان فيليبس قد أغلق الباب الخارجي لغرفة النوم. تراجع قليلاً ومنحها ابتسامة شيطانية: "لكن يمكننا القيام بأشياء أخرى."

اتسعت عيناها:

– "أي أشياء أخرى؟" سألت بشك لذيذ.

شبك أصابعه بأصابعها ثم رفع يديها فوق رأسها:

– "هل تثقين بي؟"

أجابت:

– "لا، لكن لا يهمني."

وبينما كان لا يزال يمسك يديها عالياً، أسندها إلى الباب واقترب ليقبلها. كان مذاقها يشبه الشاي، ويشبهها.. هي.

كان يستطيع عد المرات التي قبلها فيها على أصابع يده الواحدة، ومع ذلك كان يدرك أن هذا هو جوهرها. كانت فريدة بين ذراعيه، وتحت قُبلته، وأيقن أن أي امرأة أخرى لن تمنحه هذا الشعور أبدًا.»

أفلت إحدى يديها، وراح يمرر أصابعه بنعومة على طول ذراعها وصولًا إلى كتفها.. ثم عنقها.. ففكها. ثم تحررت يده الأخرى لتجد طريقها من جديد إلى حاشية فستانها.

أنّت باسمه، وهي تلهث وتتنفس بصعوبة بينما كانت أصابعه تتحرك صعودًا على ساقها.

همس وشفتاه تلتهبان عند أذنها:

– "استرخي."

أجابت بصعوبة:

– "لا أستطيع."

– "بلى، تستطيعين."

أمسكت وجهه بيديها وأجبرته على النظر إليها قائلة:

– "لا.. لا أستطيع."

ضحك غاريث بصوت عالٍ، وقد سحره طبعها الآمر حتى في هذه اللحظات.

قال:

– "حسنًا جدًا، لا تسترخي إذن."

وقبل أن تتاح لها فرصة الرد، تجاوزت أصابعه حدود ملابسها الداخلية ولامستها.

– "أوه!"

قال وهو يضحك بخفوت:

– "لا استرخاء الآن."

لهثت قائلة:

– "غاريث.."

تمتم قائلًا:

– "هل هذه 'أوه غاريث'، أم 'لا يا غاريث'، أم 'زدني يا غاريث'؟"

أنّت قائلة:

– "زدني.. أرجوك."

قال وهو يضاعف جهده:

– "أعشق المرأة التي تعرف متى تتوسل."

أنزلت رأسها الذي كان ملقىً للخلف لتنظر في عينيه وقالت:

– "ستدفع ثمن هذه الكلمة."

رفع حاجبه متسائلًا:

– "حقًا؟"

أومأت برأسها:

– "لكن ليس الآن."

ضحك بنعومة:

– "اتفقنا."

داعبها برقة، مستخدمًا احتكاكًا ناعمًا ليوصلها إلى ذروة مرتعشة. كان تنفسها مضطربًا الآن، وشفتاها منفرجتين وعيناها غائبتين. كان يعشق وجهها، يعشق كل منحنى فيه، والطريقة التي يداعب بها الضوء وجنتيها وشكل فكها.

لكن كان هناك شيء ما ـ في ملامحها الآن، وهي غارقة ـ في نشوتها الخاصة، حبس أنفاسه. كانت جميلة؛ ليس بجمالٍ يسير بذكرها الركبان، بل بأسلوب أكثر خصوصية.

كان جمالها ملكًا له، وله وحده.

وهذا الشعور جعله يشعر بالتواضع أمامها.

انحنى ليقبلها برقة، بكل الحب الذي يعتمر ـ في صدره. أراد أن يلتقط شهقتها عندما تصل إلى ذروتها، أراد أن يشعر بأنفاسها وأنينها يمتزجان بفمه. كانت أصابعه تداعبها وتستثيرها، فتصلبت تحته، وجسدها محاصر بينه وبين الجدار، تندفع نحوهما معًا.

لهثت باسمه وهي تقطع القبلة للحظة كافية لنطق اسمه:

– "غاريث.."

وعدها قائلًا:

– "قريبًا." ثم ابتسم وأضاف: "ربما الآن."

وحينها، وبينما كان يضمها ـ في قبلة أخيرة، غمرها بلمساته الأكثر عمقًا، بينما استمرت أصابعه الأخرى ـ في مداعبتها. شعر بها وهي تضيق حوله، وشعر بجسدها يكاد يرتفع عن الأرض من قوة نشوتها.

وفي تلك اللحظة فقط، أدرك المقياس الحقيقي لرغبته هو. كان مستعرًا ومستعدًا ومستميتًا للحصول عليها، ومع ذلك، كان تركيزه منصبًا عليها لدرجة أنه لم يلحظ حاله.

حتى الآن.

نظر إليها؛ كانت مرتخية، فاقدة للأنفاس، وفي حالة من الذهول لم يرها عليها من قبل.

تبًا.

حدث نفسه غير مقتنع: لا بأس، فالحياة كلها أمامنا. ولن يقتله غطس سريع ـ في حوض من الماء البارد.

تمتم وهو ينظر إليها بامتنان ودلال:

– "سعيدة؟"

اكتفت بالإيماء برأسها، فهذا كل ما استطاعت فعله.

طبع قبلة على طرف أنفها، ثم تذكر الأوراق التي تركها على مكتبه. لم تكن مكتملة تمامًا، لكنه رأى أن الوقت قد حان ليريها إياها.

قال:

– "لدي هدية لكِ."

أضاءت عيناها:

– "حقًا؟"

أومأ برأسه:

– "فقط ضعي في اعتبارك أن العبرة بالمقصد."

ابتسمت وتبعته إلى مكتبه، ثم جلست على الكرسي أمامه. أزاح غاريث بعض الكتب، ثم رفع ورقة بعناية وقال:

– "لم تنتهِ بعد."

قالت بنعومة:

– "لا يهمني."

لكنه لم يسرع في إظهارها لها، بل قال:

– "أعتقد أن من الواضح تمامًا أننا لن نجد الجواهر."

احتجت قائلة:

– "لا! يمكننا.."

– "اششش.. دعيني أكمل."

كان الأمر يخالف كل غرائزها، لكنها نجحت في إغلاق فمها.

قال:

– "أنا لا أملك الكثير من المال."

– "هذا لا يهم."

ابتسم بمرارة:

– "أنا سعيد لأنكِ تشعرين بهذا، لأننا رغم أننا لن نحتاج لشيء، إلا أننا لن نعيش في ترف إخوتك وأخواتك."

قالت بسرعة:

– "أنا لا أحتاج لكل ذلك." وكانت تعني ما تقول، أو على الأقل كانت تأمل ذلك. لكنها كانت تدرك، من أعماق قلبها، أنها لا تحتاج لشيء بقدر حاجتها إليه.

بدا عليه الامتنان، وربما قليل من عدم الارتياح، وأضاف:

– "ربما يزداد الأمر سوءًا عندما أرث اللقب؛ فأظن أن البارون يحاول ترتيب الأمور بحيث يجعلني فقيرًا حتى وهو في قبره."

– "هل تحاول إقناعي بالتراجع عن الزواج منك مرة أخرى؟"

قال:

– "أوه، لا.. أنتِ عالقة معي الآن بكل تأكيد. لكني أردتُكِ أن تعرفي أنني لو استطعتُ لأعطيتكِ العالم بأسره." ثم مد لها الورقة: "بداية من هذا."

أخذت الورقة بين يديها ونظرت إليها. كانت لوحة مرسومة لها.

اتسعت عيناها دهشة وسألت:

– "هل رسمتَ هذا بنفسك؟"

أومأ برأسه:

– "لستُ مدربًا بشكل جيد، لكني أستطيع.."

قاطعته قائلة:

– "إنها رائعة جدًا."

لن يجد طريقه إلى التاريخ كفنان مشهور أبدًا، لكن الشبه كان دقيقًا، ورأت أنه نجح في التقاط شيء ما في عينيها، شيء لم تره في أي من اللوحات التي كلفت عائلتها رسامين محترفين برسمها لها.

قال وهو يستند إلى حافة مكتبه:

– "لقد كنتُ أفكر في إيزابيلا، وتذكرتُ قصة كانت تقصها عليّ وأنا صغير. كانت هناك أميرة، وأمير شرير، و.." ابتسم بمرارة: ".. وسوار من الماس."

كانت هياسنث تراقب وجهه، مأخوذة بالدفء في عينيه، لكن عند هذه الكلمة نظرت بسرعة إلى الرسم. هناك، على معصمها في اللوحة، كان هناك سوار ماسي.

قال:

– "أنا متأكد أنه لا يشبه ما أخفته حقًا، لكن هذا هو الوصف الذي أتذكره منها، وهذا ما كنتُ سأهديه لكِ لو استطعتُ."

قالت هياسنث وهي تشعر بالدموع تترقرق في عينيها وتوشك على الانسياب:

– "غاريث.. أنا.. إنها أثمن هدية تلقيتها في حياتي."

نظر إليها وكأنه غير متأكد مما إذا كان عليه تصديقها:

– "ليس عليكِ قول.."

أصرت وهي تنهض واقفة:

– "بل هي كذلك."

التفت وتناول ورقة أخرى من المكتب وقال:

– "لقد رسمته هنا أيضًا، لكن بشكل أكبر لتتمكني من رؤيته بوضوح."

أمسكت الورقة الثانية ونظرت إليها. كان قد رسم السوار وحده، وكأنه معلق في الهواء. لمست الصورة بأصابعها وقالت:

– "إنه جميل."

منحها ابتسامة متواضعة:

– "إن لم يكن له وجود في الواقع، فيجب أن يكون موجودًا."

أومأت برأسها وهي لا تزال تتفحص الرسم. كان السوار فاتنًا، وكل حلقة فيه مصاغة على شكل ورقة شجر تقريبًا. كان رقيقًا ومبتكرًا، وتمنت هياسنث لو تضعه على معصمها.

لكنها كانت تعلم أنها لن تعتز به أبدًا بقدر اعتزازها بهذين الرسمين.

قالت:

- "أنا.." ثم رفعت بصرها والدهشة تعلو وجهها. كانت توشك على قول: "أنا أحبك."

لكنها قالت بدلاً من ذلك:

- "أنا أحبهما كثيرًا."

لكنها عندما نظرت إليه، خُيل إليها أن الحقيقة كانت واضحة ـ في عينيها.

أنا أحبك.

ابتسمت ووضعت يدها فوق يده. أرادت قولها، لكنها لم تكن مستعدة تمامًا. لم تدرِ لماذا، ربما كانت تخشى أن تكون هي البادئة. هي التي لا تخشى شيئًا تقريبًا، لم تستجمع شجاعتها لنطق تلك الكلمات الثلاث.

كان أمرًا مذهلاً.

ومرعبًا.

قررت تغيير الأجواء وقالت وهي تنظف حنجرتها حتى استعاد صوتها نبرته العملية المعتادة:

- "ما زلتُ أرغب ـ في البحث عن الجواهر."

تأوه قائلًا:

- "لماذا لا تستسلمين؟"

- "لأنني.. حسنًا، لأنني لا أستطيع." ثم قطبت جبينها: "بالتأكيد لا أريد لوالدك أن يحصل عليها الآن. أوه.." رفعت بصرها إليه وسألت: "هل عليّ مناداته بهذا الاسم؟"

هز كتفيه:

- "أنا لا أزال أفعل ذلك. إنها عادة يصعب كسرها."

أقرت بذلك بإيماءة من رأسها وتابعت:

- "لا يهمني إن لم تكن إيزابيلا جدتك الحقيقية فعلاً. أنت تستحق السوار."

منحها ابتسامة مسلية:

– "ولماذا هذا؟"

أربكها السؤال للحظة:

– "لأنك تستحقه وحسب. ولأن أحدًا يجب أن يحصل عليه، ولا أريد أن يكون هو ذلك الشخص. ولأن.." نظرت بشوق إلى الرسم في يديها: ".. لأن هذا السوار فاتن."

سألها بضيق واضح:

– "ألا يمكننا الانتظار حتى نجد مترجم اللغة السلوفينية؟"

هزت رأسها مشيرة إلى الملاحظة التي لا تزال على المكتب:

– "ماذا لو لم تكن لغة سلوفينية؟"

قال بنفاد صبر:

– "ظننتكِ قلتِ إنها كذلك."

ردت:

– "قلتُ إن أخي يعتقد أنها كذلك. هل تعلم كم عدد اللغات الموجودة في وسط أوروبا؟"

تمتم بشتيمة تحت أنفاسه.

قالت:

– "أعلم، الأمر محبط للغاية."

نظر إليها بذهول:

– "ليس هذا سبب شتيمتي."

– "إذن لماذا؟"

قال بحدة:

– "لأنكِ ستكونين سبب هلاكي."

ابتسمت هياسنث وهي تشير بإصبعها السبابة إلى صدره مباشرة:

– "الآن عرفتَ لماذا قالت عائلتي إنهم كانوا مجانين للتخلص مني."

– "ليساعدني الله، لقد عرفتُ الآن."

مالت برأسها جانبًا وقالت:

– "هل يمكننا الذهاب غدًا؟"

– "لا."

– "بعد غد؟"

صرخ:

– "لا!"

حاولت برقة:

– "أرجوك؟"

أمسك كتفيها وأدارها حتى واجهت الباب:

– "سأعيدكِ إلى المنزل."

التفتت محاولة التحدث من فوق كتفها:

– "أرجـ.."

– "لا!"

مشيت هياسنث ببطء وهي تسمح له بدفعها نحو الباب. وعندما لم يعد بإمكانها التأجيل أكثر، أمسكت بمقبض الباب، لكن قبل أن تديره، التفتت للمرة الأخيرة وفتحت فمها و..

– "لا!"

– "لم أقل.."

تأوه وكأنه يلقي بذراعيه في الهواء يأسًا:

– "حسنًا جدًا.. لقد انتصرتِ."

– "أوه، شكرًا.."

قاطعها:

– "لكنكِ لن تأتي معي."

تجمدت مكانها وفمها لا يزال مفتوحًا:

– "عذرًا؟"

قال وهو يبدو وكأنه يفضل خلع كل أسنانه على القيام بذلك:

– "أنا سأذهب.. لكن أنتِ، لن تفعلي."

حدقت فيه محاولة إيجاد طريقة لتقول: "هذا ليس عدلاً"، دون أن تبدو طفولية. ولما رأت أن ذلك مستحيل، حاولت التفكير في كيفية سؤاله عن الطريقة التي ستعرف بها أنه ذهب حقًا دون أن تبدو وكأنها لا تثق به.

يا للهول، كان هذا مسعىً خاسرًا أيضًا.

لذا اكتفت بكتف يديها ورمقه بنظرة حادة.

لكن نظرتها لم تؤثر فيه إطلاقًا؛ إذ اكتفى بالنظر إليها وقال:

– "لا."

فتحت هياسنث فمها مرة أخيرة، ثم استسلمت وتنهدت قائلة:

– "حسنًا، أفترض أنني لو استطعتُ فرض رأيي عليك في كل شيء، لما كنتَ تستحق عناء الزواج منك."

أرجع رأسه للخلف وضحك بقوة:

– "ستكونين زوجة رائعة يا هياسنث بريدجرتون." قال ذلك وهو يدفعها بلطف خارج الغرفة.

– "همممف."

تأوه قائلًا:

– "يا إلهي، ليس إذا تحولتِ إلى جدتي."

قالت بغطرسة:

– "هذا هو طموحي الأسمى."

تمتم وهو يجذب ذراعها لتتوقف قبل أن يصلا إلى غرفة الجلوس:

– "من المؤسف ذلك."

التفتت إليه وتساؤلٌ في عينيها.

رسم ابتسامة بريئة على شفتيه وقال:

– "حسنًا، لا يمكنني فعل 'هذا' لجدتي."

صرخت بدهشة:

– "أوه!" كيف وصلت يده إلى هناك؟

– "أو 'هذا'."

– "غاريث!"

– "هل هذه 'غاريث نعم'، أم 'غاريث لا'؟"

ابتسمت، فلم يكن بوسعها المقاومة.

– "غاريث.. زدني."

الفصل التاسع عشر

في يوم الثلاثاء الذي تلاه.

يبدو أن كل شيء ذي شأن يحدث يوم الثلاثاء، أليس كذلك؟

هتفت هياسنث:

- "انظري ماذا أحضرت!"

ابتسمت ابتسامة عريضة وهي تقف عند مدخل غرفة جلوس السيدة دانبري، رافعة عاليًا كتاب الآنسة دافنبورت والماركيز الأسود.

سألت السيدة دانبري من مكانها عبر الغرفة:

- "كتاب جديد؟"

كانت جالسة في مقعدها الأثير، ولكن من الطريقة التي كانت تحمل بها نفسها، بدا الأمر وكأنه عرش.

قالت هياسنث بابتسامة ماكرة وهي تقدمه:

- "ليس أي كتاب".

أخذت السيدة دانبري الكتاب بين يديها، ونظرت إليه، وتهلل وجهها بابتهاج:

- "لم نقرأ هذا بعد".

ثم نظرت لأعلى إلى هياسنث:

- "آمل أن يكون سيئًا بقدر البقية".

قالت هياسنث وهي تتخذ مجلسًا بجوارها:

– "آه، بالله عليكِ يا سيدة دانبري. لا ينبغي أن تنعتيها بالسوء".

ردت الكونتيسة وهي تقلب الصفحات بلهفة:

– "لم أقل إنها ليست مسلية. كم فصلاً تبقى لدينا مع عزيزتنا الآنسة باتروورث؟"

التقطت هياسنث الكتاب المعني من طاولة قريبة وفتحته عند الموضع الذي حددته الثلاثاء الماضي. قالت وهي تقلب الصفحات جيئة وذهابًا للتحقق:

– "ثلاثة".

– "همممف. أتساءل كم عدد المنحدرات التي يمكن للمسكينة بريسيلا أن تتدلى منها في ذلك الوقت".

تمتمت هياسنث:

– "اثنان على الأقل، على ما أظن. شريطة ألا يُصيبها الطاعون".

حاولت السيدة دانبري النظر إلى الكتاب من فوق كتفها:

– "أتظنين ذلك ممكنًا؟ قليل من الطاعون الدبلي سيفعل العجائب للنثر".

قهقهت هياسنث:

– "ربما كان ينبغي أن يكون ذلك العنوان الفرعي. الآنسة باتروورث والبارون المجنون، أو..."

خفضت صوتها بشكل درامي:

– "قليل من الطاعون الدبلي".

– "أنا شخصيًا أفضل منقورة حتى الموت بواسطة الحمام".

قالت هياسنث بابتسامة، مستعدة للانطلاق في الفصل الثامن عشر:

– "ربما يجب أن نؤلف كتابًا".

بدت السيدة دانبري وكأنها تود ضرب هياسنث على رأسها.

– "هذا بالضبط ما كنتُ أخبركِ به".

جعدت هياسنث أنفها وهي تهز رأسها:

– "كلا، لن يكون الأمر ممتعًا كثيرًا بعد العناوين. هل تظنين أن أحدًا سيرغب في شراء مجموعة من عناوين الكتب المسلية؟"

قالت السيدة دانبري بسلطة كبيرة:

– "سيفعلون لو كان اسمي على الغلاف. وبالحديث عن ذلك، كيف تسير ترجمتكِ لمذكرات جدة حفيدي الأخرى؟"

تحرك رأس هياسنث قليلاً وهي تحاول تتبع بنية جملة السيدة دانبري المعقدة. قالت أخيرًا:

– "عذرًا، ما علاقة ذلك باضطرار الناس لشراء كتاب عليه اسمكِ؟"

لوحت السيدة دانبري بيدها بقوة في الهواء وكأن تعليق هياسنث شيء مادي يمكنها دفعه بعيدًا.

– "لم تخبريني بأي شيء".

أقرت هياسنث:

– "لقد تجاوزتُ المنتصف بقليل فقط. أتذكر من الإيطالية أقل بكثير مما ظننت، وأجد المهمة أصعب بكثير مما توقعت".

أومأت السيدة دانبري:

– "كانت امرأة جميلة".

رمشت هياسنث بدهشة:

– "أكنتِ تعرفينها؟ إيزابيلا؟"

– "بالطبع كنتُ أعرفها. ابنها تزوج ابنتي".

تمتمت هياسنث:

– "آه. نعم".

لم تدرِ لِمَ لم يخطر ببالها هذا من قبل. وتساءلت — هل تعلم السيدة دانبري أي شيء عن ظروف مولد غاريث؟ قال غاريث إنها لا تعلم، أو على الأقل إنه لم يتحدث معها عن الأمر قط. ولكن ربما كان كل منهما يلتزم الصمت بناءً على افتراض أن الآخر لا يعلم.

فتحت هياسنث فمها، ثم أغلقته بحدة. لم يكن من شأنها قول أي شيء. لم يكن كذلك.

لكن...

لا. أطبقت أسنانها، وكأن ذلك سيمنعها من البوح بأي شيء. لا يمكنها كشف سر غاريث. لا يمكنها ذلك، قطعًا وجزمًا.

سألت السيدة دانبري دون أي قدر من اللباقة:

– "هل أكلتِ شيئًا حامضًا؟ تبدين مريضة نوعًا ما".

قالت هياسنث وهي تفتعل ابتسامة مشرقة على وجهها:

– "أنا بخير تمامًا. كنتُ أفكر فحسب في المذكرات. لقد أحضرتها معي، في الواقع. لأقرأها في العربة".

كانت تعمل على الترجمة بلا كلل منذ أن علمت بسر غاريث في وقت سابق من ذلك الأسبوع. لم تكن واثقة مما إذا كانا سيعرفان هوية والد غاريث الحقيقي أبدًا، لكن مذكرات إيزابيلا بدت أفضل مكان ممكن لبدء البحث.

قالت السيدة دانبري:

– "حقًا؟"

استندت بظهرها في مقعدها وأغمضت عينيها.

– "اقرئي لي منها بدلاً من ذلك، لِمَ لا تفعلين؟"

أشارت هياسنث:

– "أنتِ لا تفهمين الإيطالية".

– "أعلم، لكنها لغة جميلة، عذبة وسلسة للغاية. وأنا بحاجة لأخذ قيلولة".

سألت هياسنث وهي تمد يدها إلى حقيبتها الصغيرة لإخراج المذكرات:

– "هل أنتِ واثقة؟"

– "من أنني أحتاج لقيلولة؟ نعم، ومما يؤسف له. بدأ الأمر قبل عامين. الآن لا أستطيع العيش دون قيلولة كل ظهيرة".

تمتمت هياسنث:

– "في الواقع، كنتُ أشير إلى قراءة المذكرات. إذا كنتِ ترغبين في النوم، فهناك بالتأكيد طرق أفضل من قراءتي لكِ بالإيطالية".

قالت السيدة دانبري بصوت يشبه قهقهة الساحرات:

– "عجبًا يا هياسنث، هل تعرضين غناء تهويدات لي؟"

أدارت هياسنث عينيها:

– "أنتِ سيئة كطفل صغير".

– "من حيث أتينا، يا عزيزتي الآنسة بريدجرتون. من حيث أتينا".

هزت هياسنث رأسها وعثرت على موضعها في المذكرات. كانت قد توقفت في ربيع عام 1793، قبل أربع سنوات من ولادة غاريث. وفقًا لما قرأته في العربة في طريقها إلى هنا، كانت والدة غاريث حاملاً، بما افترضت هياسنث أنه سيكون شقيق غاريث الأكبر جورج. كانت قد عانت من إجهاضين قبل ذلك، مما لم يحببها إلى زوجها.

ما وجدته هياسنث الأكثر إثارة للاهتمام في الحكاية هو خيبة الأمل التي عبرت عنها إيزابيلا بشأن ابنها. كانت تحبه، نعم، لكنها ندمت على الدرجة التي سمحت بها لزوجها بتشكيله. ونتيجة لذلك، كتبت إيزابيلا، كان الابن نسخة طبق الأصل من الأب. كان يعامل أمه بازدراء، ولم تكن زوجته أفضل حالاً.

كانت هياسنث تجد الحكاية برمتها حزينة نوعًا ما. لقد أحبت إيزابيلا. كان هناك ذكاء وفكاهة في كتابتها يتألقان، حتى حين لم تكن هياسنث قادرة على ترجمة كل كلمة، وأحبّت هياسنث أن تفكر أنه لو كانتا في سن واحدة، لكانتا صديقتين. أحزنها أن تدرك الدرجة التي قُمعت بها إيزابيلا وجُعلت تعيسة بواسطة زوجها.

وعزز ذلك إيمانها بأن هوية من يتزوجه المرء تهم حقًا. ليس من أجل الثروة أو المكانة، رغم أن هياسنث لم تكن مثالية لدرجة التظاهر بأن تلك الأمور غير مهمة تمامًا.

لكن المرء يحظى بحياة واحدة فقط، وبإذن الله، زوج واحد. وكم هو جميل أن تحب فعليًا الرجل الذي تعاهدينه بالوفاء. لم تُضرب إيزابيلا أو تُساء معاملتها، لكنها تم تجاهلها، وذهبت أفكارها وآراؤها أدراج الرياح. أرسلها زوجها إلى منزل ريفي ناءٍ، وعلم أبناءه بالمثال. عامل والد غاريث زوجته

بالطريقة نفسها تمامًا. وافترضت هياسنث أن عم غاريث كان ليكون كذلك أيضًا، لو عاش طويلاً بما يكفي ليتخذ زوجة.

سألت السيدة دانبري بحدة نوعًا ما:

– "هل ستقرئين لي أم لا؟"

نظرت هياسنث إلى الكونتيسة، التي لم تكلف نفسها عناء فتح عينيها لطلبها.

– "آسفة. أحتاج لحظة فقط لـ... آه، ها نحن ذا".

نحنحت هياسنث وبدأت تقرأ بالإيطالية:

– "Si avvicina il giorno in cui nascerà il mio primo nipote. Prego che sia un maschio..."

ترجمت في رأسها وهي تواصل القراءة بصوت عالٍ بالإيطالية:

يقترب اليوم الذي سيولد فيه حفيدي الأول. أدعو أن يكون صبيًا. كنتُ لأحب أن تكون فتاة صغيرة — ربما كان سيُسمح لي برؤيتها وحبها أكثر، لكن سيكون أفضل لنا جميعًا لو حظينا بصبي. أخشى التفكير في السرعة التي ستُجبر بها آن على تحمل اهتمامات ابني لو أنجبت فتاة.

كان ينبغي أن أحب ابني بشكل أفضل، لكن بدلاً من ذلك أنا قلقة بشأن زوجته.

توقفت هياسنث، تراقب السيدة دانبري بحثًا عن أي علامة تشير إلى أنها فهمت شيئًا من الإيطالية. كانت تقرأ عن ابنتها في النهاية. تساءلت هياسنث عما إذا كانت الكونتيسة لديها أي فكرة عن مدى بؤس ذلك الزواج. لكن السيدة دانبري، وبشكل لافت، كانت قد بدأت في الشخير.

رمشت هياسنث بدهشة — وريبة. لم تحلم قط بأن السيدة دانبري قد تغط في النوم بتلك السرعة. لزمت الصمت للحظات، منتظرة أن تنفتح عينا الكونتيسة فجأة مع طلب صاخب بأن تواصل.

لكن بعد دقيقة، كانت هياسنث واثقة من أن السيدة دانبري قد نامت حقًا.

لذا واصلت القراءة لنفسها، تترجم كل جملة بشق الأنفس في رأسها.

كانت التدوينة التالية مؤرخة بعد بضعة أشهر؛ عبرت إيزابيلا عن ارتياحها لأن آن أنجبت صبيًا، عُمد باسم جورج. كان البارون يطير فرحًا وفخرًا، بل وأهدى زوجته سوارًا ذهبيًا.

قلبت هياسنث بضع صفحات للأمام، محاولة معرفة كم سيستغرق الأمر حتى تصل إيزابيلا لعام 1797، عام ولادة غاريث. واحد، اثنان، ثلاثة... عدت الصفحات، مارة بسرعة عبر السنوات. سبعة، ثمانية، تسعة... آه، 1796. ولد غاريث في مارس 1797، لذا إذا كتبت إيزابيلا عن حمله، فسيكون هنا، وليس في 1797.

عشر صفحات فقط، هذا كل شيء.

وخطر ببالها...

لِمَ لا تقفز للأمام؟ لا يوجد قانون يلزمها بقراءة المذكرات بترتيب زمني مثالي. يمكنها فقط اختلاس النظر للأمام لعامي 1796 و1797 لترى إن كان هناك أي شيء يتعلق بـ غاريث ونسبه. إن لم يكن، ستعود مباشرة إلى حيث توقفت وتبدأ القراءة من جديد.

ألم تكن السيدة دانبري هي من قالت إن الصبر بالتأكيد ليس فضيلة؟

نظرت هياسنث بأسف إلى عام 1793، ثم، ممسكة بخمس ورقات معًا، انتقلت إلى 1796.

للخلف... للأمام... للخلف...

للأمام.

قلبت إلى 1796، وثبتت يدها اليسرى لأسفل حتى لا تعود للخلف مرة أخرى.

للأمام بالتأكيد.

قرأت لنفسها:

– "24 يونيو 1796. وصلتُ إلى كلير هاوس لزيارة صيفية، فقط لأُبلّغ بأن ابني قد غادر بالفعل إلى لندن".

طرحت هياسنث الأشهر بسرعة في رأسها. ولد غاريث في مارس 1797. ثلاثة أشهر تعيدها لديسمبر 1796، وستة أخرى إلى...

يونيو.

ووالد غاريث كان خارج المدينة.

بالكاد قادرة على التنفس، واصلت القراءة:

تبدو آن راضية بذهابه، وجورج الصغير كنز حقيقي. هل هو أمر فظيع جدًا أن أعترف بأنني أكثر سعادة حين لا يكون ريتشارد هنا؟ إنها بهجة كبيرة أن يكون كل الأشخاص الذين أحبهم قريبين جدًا...

عبست هياسنث وهي تنهي التدوينة. لم يكن هناك شيء خارج عن المألوف. لا شيء عن غريب غامض، أو صديق غير لائق.

نظرت لأعلى إلى السيدة دانبري، التي كان رأسها يميل الآن للخلف بشكل غير مريح. وكان فمها مفتوحًا قليلاً أيضًا.

عادت هياسنث بحزم إلى المذكرات، مقلبة إلى التدوينة التالية، المؤرخة بعد ثلاثة أشهر.

شهقت.

آن تحمل طفلاً. ونحن جميعًا نعلم أنه لا يمكن أن يكون ابن ريتشارد. لقد كان بعيدًا لشهرين. شهرين. أنا خائفة عليها. إنه غاضب. لكنها لن تكشف الحقيقة.

همست هياسنث من بين أسنانها:

– "اكشفيها... اكشفيها".

– "هيه؟"

أغلقت هياسنث الكتاب بقوة ونظرت لأعلى. كانت السيدة دانبري تتململ في مقعدها.

سألت السيدة دانبري بنعاس:

– "لِمَ توقفتِ عن القراءة؟"

كذبت هياسنث، وأصابعها تمسك بالمذكرات بقوة لدرجة أنها كادت تحرق ثقوبًا في الغلاف:

– "لم أتوقف. لقد غفوتِ".

تمتمت السيدة دانبري:

– "هل فعلتُ؟ لا بد أنني بدأت أهرم".

ابتسمت هياسنث بحدة.

قالت السيدة دانبري ملوحة بيدها:

– "حسنًا جدًا".

تململت قليلاً، متحركة أولاً لليسار، ثم لليمين، ثم عائدة لليسار مرة أخرى.

– "أنا مستيقظة الآن. لنعد إلى الآنسة باترוורث".

ذُهلت هياسنث:

– "الآن؟"

– "مقارنة بمتى؟"

لم تملك هياسنث إجابة جيدة لذلك. قالت، مستجمعة كل ما تملك من صبر:

– "حسنًا جدًا".

أجبرت نفسها على وضع المذكرات بجانبها، والتقطت الآنسة باتروورث والبارون المجنون بدلاً منها.

نحنحت، مقلبة للصفحة الأولى من الفصل الثامن عشر.

سألت السيدة دانبري:

– "حلقكِ يزعجكِ؟ لا يزال لدي بعض الشاي في الإبريق".

قالت هياسنث:

– "لا شيء".

زفرت، ونظرت لأسفل، وقرأت بحيوية أقل بكثير من المعتاد:

– "كان البارون يملك سرًا. كانت بريسيلا واثقة تمامًا من ذلك. السؤال الوحيد كان: هل ستُكشف الحقيقة أبدًا؟"

تمتمت هياسنث:

– "بالفعل".

– "هيه؟"

قالت هياسنث بتنهيدة:

– "أظن أن شيئًا مهمًا على وشك الحدوث".

قالت السيدة دانبري:

– "شيء مهم دائمًا على وشك الحدوث يا عزيزتي. وإن لم يكن، فمن الأفضل لكِ التصرف وكأنه كذلك. ستستمتعين بالحياة بشكل أفضل بهذه الطريقة".

بالنسبة لـ السيدة دانبري، كان التعليق فلسفيًا بشكل غير معهود. توقفت هياسنث، تتأمل كلماتها.

تابعت السيدة دانبري، مادة يدها لعصاها وضاغطة بها على الأرض:

– "ليس لدي صبر مع هذه الموضة الحالية للملل. ها! متى أصبح إظهار الاهتمام بالأشياء جريمة؟"

– "عذرًا؟"

– "فقط اقرئي الكتاب. أظن أننا نصل للجزء الجيد. أخيرًا".

أومأت هياسنث. المشكلة كانت أنها كانت تصل للجزء الجيد من الكتاب الآخر. أخذت نفسًا، محاولة إعادة انتباهها إلى الآنسة باتروورث، لكن الكلمات سبحت أمام عينيها. أخيرًا، نظرت لأعلى إلى السيدة دانبري وقالت:

– "أنا آسفة، لكن هل تمانعين بشدة لو أنهيتُ زيارتنا مبكرًا؟ لستُ أشعر أنني على ما يرام".

حدقت فيها السيدة دانبري وكأنها أعلنت للتو أنها تحمل طفل نابليون غير الشرعي.

أضافت هياسنث بسرعة:

- "سأكون سعيدة بتعويضكِ غدًا".

رمشت السيدة دانبري:

- "لكنه يوم الثلاثاء".

- "أدرك ذلك. أنا..."

تنهدت هياسنث.

- "أنتِ مخلوقة تعشق العادة، أليس كذلك؟"

- "سمة الحضارة هي الروتين".

- "نعم، أفهم، ولكن..."

قاطعتها السيدة دانبري:

- "لكن علامة العقل المتقدم حقًا هي القدرة على التكيف مع الظروف المتغيرة".

سقط فك هياسنث. لم تكن لتتخيل في أقصى أحلامها جموحًا أن تنطق السيدة دانبري بذلك.

قالت السيدة دانبري وهي تشير لها نحو الباب:

- "اذهبي يا عزيزتي. افعلي أيًا كان ما يثير اهتمامكِ بهذا القدر".

للحظة لم تستطع هياسنث فعل شيء سوى التحديق فيها. ثم، وقد غمرها شعور جميل ودافئ، جمعت أشياءها، ونهضت واقفة، وعبرت الغرفة إلى جانب السيدة دانبري.

قالت وهي تنحني وتطبع قبلة على خدها:

- "ستكونين جدتي".

لم تتصرف بمثل هذه الألفة من قبل، لكن الأمر بدا صحيحًا بطريقة ما.

قالت السيدة دانبري وهي تمسح عينيها بينما كانت هياسنث تسير نحو الباب:

- "يا لكِ من طفلة سخيفة. في قلبي، كنتُ جدتكِ لسنوات. كنتُ أنتظر فقط أن تجعلي الأمر رسميًا".

الفصل العشرون

في وقت لاحق من تلك الليلة. في وقت متأخر نوعًا ما، في الحقيقة.

اضطرت هياسنث لتأجيل محاولاتها للترجمة بسبب عشاء عائلي مطول، تبعته لعبة مملة لا تنتهي من الحزورات. أخيرًا، في الحادية عشرة والنصف، عثرت على المعلومة التي كانت تنشدها.

وقد أثبتت الإثارة أنها أقوى من الحذر...

عشر دقائق أخرى ولم يكن غاريث ليكون هناك لسماع الطرقة. كان قد ارتدى سترته الصوفية، ذلك الشيء الخشن الذي كانت جدته لتنعته بالفظاعة المروعة ولكنه كان يتميز بكونه أسود حالكًا كالليل. كان جالسًا للتو على أريكته ليرتدي حذاءه الأكثر هدوءًا حين سمعها.

طرقة. خفيفة ولكن مُلِحّة.

أخبرته نظرة خاطفة على الساعة أن الوقت يوشك على الانتصاف. كان فيليبس قد خلد للنوم منذ زمن، لذا توجه غاريث إلى الباب بنفسه، متمركزًا بالقرب من الخشب الثقيل سائلاً:

– "نعم؟"

جاء الرد المُصرّ:

– "إنه أنا".

ماذا؟ لا، لا يمكن أن يكون...

فتح الباب بقوة.

همس وهو يسحب هياسنث إلى الغرفة:

– "ما الذي تفعلينه هنا؟"

مرت بجانبه مسرعة، متعثرة ـ في كرسي حين أفلتها لينظر خارجًا إلى الردهة.

– "ألم تحضري أحدًا معكِ؟"

هزت رأسها.

– "لا وقت لـ..."

همس بغضب عارم:

– "هل جُننتِ؟ هل فقدتِ عقلكِ تمامًا؟"

ظن أنه كان غاضبًا منها ـ في المرة الأخيرة التي فعلت فيها هذا، راكضة عبر لندن بمفردها بعد حلول الظلام. لكن على الأقل حينها كان لديها عذر من نوع ما، بعد أن فاجأها والده. هذه المرة... هذه المرة...

كاد لا يستطيع السيطرة على نفسه. قال، لنفسه أكثر مما لها:

– "سأضطر لحبسكِ. هذا هو الأمر. هذا هو الحل الوحيد. سأضطر لتثبيتكِ و..."

– "لو أنك تستمع فقط..."

قال من بين أسنانه وهو يمسكها من ذراعها ويسحبها إلى غرفة نومه:

– "ادخلي هنا".

كانت الغرفة الأبعد عن مسكن فيليبس الصغير المتفرع من غرفة الجلوس. عادة ما ينام الخادم كالموتى، لكن مع حظ غاريث، ستكون هذه الليلة التي يقرر فيها الاستيقاظ لتناول وجبة خفيفة ـ في منتصف الليل.

همست هياسنث وهي تهرول خلفه:

– "غاريث، يجب أن أخبرك..."

استدار نحوها بعينين غاضبتين:

– "لا أريد سماع أي شيء منكِ لا يبدأ بـ أنا حمقاء ملعونة".

كتفت ذراعيها.

– "حسنًا، أنا بالتأكيد لن أقول ذلك".

ثنى أصابعه وبسطها، وكانت تلك الحركة المتحكم فيها بعناية هي الشيء الوحيد الذي يمنعه من الانقضاض عليها. كان العالم يتحول إلى لون أحمر خطير، وكل ما استطاع التفكير فيه هو صورتها وهي تسابق الريح عبر مايفير، بمفردها، لتتعرض للهجوم، أو الأذى...

صرّ على أسنانه:

- "سأقتلكِ".

تبًا، إذا كان أحد سيهاجمها أو يؤذيها، فليكن هو.

لكنها كانت تهز رأسها فقط، غير مصغية لأي شيء يقوله.

- "غاريث، يجب أن..."

قال بقوة:

- "لا. ولا كلمة. لا تنبسي بكلمة. فقط اجلسي هناك..."

رمش، مدركًا أنها كانت واقفة، ثم أشار إلى السرير.

- "اجلسي هناك بهدوء حتى أقرر ما الذي سأفعله بكِ بحق الجحيم".

جلست، ولمرة واحدة لم تبدُ وكأنها ستفتح فمها لتتحدث. في الواقع، بدت مغترة بنفسها نوعًا ما.

مما جعله يرتاب على الفور. لم تكن لديه أدنى فكرة كيف اكتشفت أنه اختار تلك الليلة للعودة إلى كلير هاوس لبحث أخير عن المجوهرات. لا بد أنه زل بلسانه بشيء ما، ألمح إلى الرحلة خلال إحدى محادثاتهما الأخيرة. كان يود أن يعتقد أنه أكثر حذرًا من ذلك، لكن هياسنث كانت ذكية ببراعة شيطانية، وإذا كان لأحد أن يستنتج نواياه، فهي هي.

كان مسعى أحمق في رأيه؛ لم يكن لديه دليل على مكان الماس باستثناء نظرية هياسنث حول غرفة نوم البارونة. لكنه وعدها بالذهاب، ولا بد أنه كان يمتلك حس شرف أدق مما ظن، لأنه ها هو ذا، يتجه إلى كلير هاوس للمرة الثالثة ذلك الشهر.

حدق فيها بغضب.

ابتسمت بصفاء.

مما أرسله مباشرة إلى حافة الهاوية. هذا يكفي. هذا بالتأكيد...

قال بصوت منخفض لدرجة أنه كاد يرتجف:

– "حسنًا. سنضع بعض القواعد، هنا والآن".

تصلب عمودها الفقري.

– "عذرًا؟"

– "حين نتزوج، لن تخرجي من المنزل دون إذني..."

قاطعته:

– "أبدًا؟"

أنهى كلامه وهو بالكاد يتعرف على نفسه في كلماته:

– "حتى تثبتي أنكِ بالغة مسؤولة".

لكن إذا كان هذا ما يتطلبه الأمر للحفاظ على سلامة الحمقاء الصغيرة الملعونة من نفسها، فليكن.

أطلقت زفرة نافدة الصبر:

– "متى أصبحتَ متعجرفًا هكذا؟"

كاد يزأر:

– "حين وقعتُ في حبكِ!"

أو كان ليفعل، لو لم يكونا في وسط مبنى سكني، يقطنه رجال عزاب يسهرون لوقت متأخر ويحبون النميمة.

– "أنت... أنت... أنت ماذا؟"

انفرج فمها في شكل بيضاوي جذاب، لكن غاريث كان قد تجاوز مرحلة تقدير التأثير. قال وهو يلوح بذراعيه كالمجنون:

– "أحبكِ، أيتها المرأة الحمقاء".

كان مذهلاً ما أوصلته إليه. لم يستطع تذكر آخر مرة فقد فيها أعصابه هكذا، آخر مرة جعله شخص ما غاضبًا لدرجة أنه بالكاد يستطيع الكلام.

باستثنائها هي، بالطبع.

طحن أسنانه ببعضها.

- "أنتِ أكثر كائن مثير للجنون والإحباط..."
- "ولكن..."
- "وأنتِ لا تعلمين أبدًا متى تتوقفين عن الكلام، لكن ساعدني يا الله، أنا أحبكِ رغم ذلك".
- "ولكن يا غاريث..."
- "وإذا اضطررتُ لربطكِ بالسرير الملعون فقط للحفاظ على سلامتكِ من نفسكِ، فليشهد الله أن هذا ما سأفعله".
- "ولكن يا غاريث..."

قال وهو يهز إصبعه نحوها بطريقة غير مهذبة للغاية:

- "ولا كلمة. ولا كلمة واحدة ملعونة".

أخيرًا، بدت يده وكأنها تتجمد، وسبابته مشيرة بحدة، وبعد بضع حركات متشنجة، تمكن من تهدئة نفسه وسحب يديه إلى وركيه.

كانت تحدق فيه، وعيناها الزرقاوان واسعتان ومليئتان بالدهشة. لم يستطع غاريث إبعاد نظره بينما نهضت ببطء وأغلقت المسافة بينهما.

همست:

- "أنت تحبني؟"

تنهد بتعب، منهكًا ببساطة من احتمال كل ذلك:

- "سيكون ذلك هلاكي، أنا واثق، ولكن نعم. يبدو أنني لا أستطيع منع نفسي".
- "آه".

ارتجفت شفتاها، ثم اهتزتا، ثم بطريقة ما كانت تبتسم.

- "جيد".

ردد:

- "جيد؟ هذا كل ما لديكِ لتقوليه؟"

تقدمت للأمام، ولمست خده.

- "أنا أحبك أيضًا. بكل قلبي، وبكل ما أنا عليه، وبكل..."

لن يعرف أبدًا ما كانت على وشك قوله. لقد ضاع تحت قبلته.

شهقت خلال اللحظة الخاطفة التي توقف فيها لالتقاط أنفاسه:

– "غاريث".

قال وفمه يستولي على فمها مرة أخرى:

– "ليس الآن".

لم يستطع التوقف. لقد أخبرها، والآن عليه أن يريها.

كان يحبها. الأمر بهذه البساطة.

– "ولكن يا غاريث..."

– "صه..."

أمسك رأسها بين يديه، وقبلها وقبلها... حتى ارتكب خطأ تحرير فمها بالانتقال إلى عنقها.

– "غاريث، يجب أن أخبرك..."

همس:

– "ليس الآن".

كانت لديه أمور أخرى في ذهنه.

– "ولكنه مهم جدًا، و..."

سحب نفسه بعيدًا. تمتم:

– "يا إلهي أيتها المرأة. ما الأمر؟"

قالت، وشعر بنوع من الرضا لأن تنفسها كان مجهدًا تمامًا مثله:

– "عليك أن تستمع إليّ. أعلم أنه كان جنونًا المجيء إلى هنا في وقت متأخر كهذا".

رأى من المناسب أن يضيف:

– "بمفردكِ".

أقرت له، وشفتها تلتوي بضيق:

– "بمفردي. لكن أقسم لك، ما كنتُ لأفعل شيئًا بهذه الحماقة لو لم أكن بحاجة للتحدث معك فورًا".

مال فمه بسخرية:

– "ألم تكن رسالة لتفي بالغرض؟"

هزت رأسها. وقالت، ووجهها جاد لدرجة قطعت أنفاسه:

– "غاريث، أنا أعرف من هو والدك".

كان الأمر وكأن الأرض تميد من تحته، ومع ذلك، في الوقت نفسه، لم يستطع إبعاد عينيه عن عينيها. أمسك بكتفيها، وأصابعه تنغرس بالتأكيد بقوة مفرطة في جلدها، لكنه لم يستطع التحرك. لسنوات قادمة، لو سأله أحد عن تلك اللحظة، لقال إنها كانت الشيء الوحيد الذي يبقيه واقفًا.

سأل، وهو يكاد يخشى ردها:

– "من هو؟"

طوال حياته كراشد أراد هذه الإجابة، والآن وقد حانت، لم يستطع الشعور بشيء سوى الرعب.

همست هياسنث:

– "إنه شقيق والدك".

كان الأمر وكأن شيئًا اصطدم بصدره.

– "العم إدوارد؟"

قالت هياسنث وعيناها تبحثان في وجهه بمزيج من الحب والقلق:

– "نعم. كان ذلك في مذكرات جدتك. لم تكن تعلم في البداية. لا أحد علم. علموا فقط أنه لا يمكن أن يكون والـ... أعني، البارون. كان في لندن طوال الربيع والصيف. وأمك... لم تكن".

همس:

– "كيف اكتشفت الأمر؟ وهل كانت متأكدة؟"

قالت هياسنث بنعومة:

– "إيزابيلا استنتجت ذلك بعد ولادتك. قالت إنك تبدو كأحد أفراد سانت كلير أكثر من أن تكون نغلاً، وكان إدوارد مقيمًا في كلير هاوس. حين كان والدك غائبًا".

هز غاريث رأسه، محاولًا يائسًا استيعاب هذا.

– "هل كان يعلم؟"

– "والدك؟ أم عمك؟"

– "والـ..."

التفت، وصدر صوت غريب خالٍ من الفكاهة من حلقه.

– "لا أدري ماذا أسميه. أياً منهما".

صححت:

– "والدك — اللورد سانت كلير. لم يكن يعلم. أو على الأقل، لم تظن إيزابيلا أنه يعلم. لم يكن يعلم أن إدوارد كان في كلير هول ذلك الصيف. كان قد تخرج لتوه من أكسفورد، و... حسنًا، لستُ واثقة تمامًا مما حدث، لكن بدا الأمر وكأنه كان من المفترض أن يذهب إلى اسكتلندا مع أصدقاء. لكنه لم يفعل، وذهب إلى كلير هول بدلاً من ذلك. جدتك قالت..."

توقفت هياسنث، واكتسى وجهها بتعبير واسع العينين. تمتمت:

– "جدتك. لقد كانت حقًا جدتك".

شعر بيدها على كتفه، تتوسل إليه أن يلتفت، لكن بطريقة ما لم يستطع النظر إليها في تلك اللحظة. كان الأمر كثيرًا. كان كثيرًا جدًا.

– "غاريث، إيزابيلا كانت جدتك. كانت كذلك حقًا".

أغمض عينيه، محاولًا استدعاء وجه إيزابيلا. كان الأمر صعبًا؛ فالذكرى قديمة جدًا.

لكنها أحبته. تذكر ذلك. لقد أحبته.

وكانت تعلم الحقيقة.

هل كانت لتخبره؟ لو عاشت لتراه رجلاً، لتعرف الرجل الذي أصبح عليه، هل كانت لتخبره الحقيقة؟

لن يعرف أبدًا، لكن ربما... لو رأت كيف عامله البارون... ما أصبح عليه كلاهما...

أحب أن يعتقد أن نعم.

جاء صوت هياسنث:

– "عمك..."

قال غاريث بيقين خافت:

– "كان يعلم".

– "كان يعلم؟ كيف عرفت؟ هل قال شيئًا؟"

هز غاريث رأسه. لم يدرِ كيف عرف أن إدوارد كان مدركًا للحقيقة، لكنه كان واثقًا الآن من أنه كان كذلك. كان غاريث في الثامنة حين رأى عمه لآخر مرة. كبيرًا بما يكفي ليتذكر الأشياء. كبيرًا بما يكفي ليدرك ما هو مهم.

وإدوارد أحبه. أحبه إدوارد بطريقة لم يفعلها البارون قط.

كان إدوارد هو من علمه ركوب الخيل، إدوارد هو من أهداه جروًا في عيد ميلاده السابع.

إدوارد، الذي عرف العائلة جيدًا بما يكفي ليعلم أن الحقيقة ستدمرهم جميعًا. لن يغفر ريتشارد لـ آن إنجاب ابن ليس من صلبه، لكن لو علم أبدًا أن عشيقها كان شقيقه...

شعر غاريث بنفسه يرتخي ضد الجدار، محتاجًا لدعم يتجاوز ساقيه.

ربما كانت نعمة أن الأمر استغرق كل هذا الوقت لتتكشف الحقيقة.

– "غاريث؟"

كانت هياسنث تهمس باسمه، وشعر بها تقترب لجانبه، وتنسل يدها في يده برقة ناعمة أوجعت قلبه.

لم يدرِ ما يفكر. لم يدرِ ما إذا كان ينبغي أن يغضب أم يرتاح. هو حقًا من آل سانت كلير، لكن بعد سنوات عديدة من التفكير في نفسه كدجال، كان من الصعب استيعاب الأمر. وبالنظر لسلوك البارون، هل كان ذلك شيئًا يدعو للفخر أصلاً؟

لقد خسر الكثير، وأمضى وقتًا طويلاً يتساءل من هو، ومن أين أتى، و...

– "غاريث".

صوتها مرة أخرى، ناعم، هامس.

عصرت يده.

ثم فجأة...

عرف.

ليس أن الأمر كله لم يكن مهمًا، لأنه كان كذلك.

لكنه عرف أن الأمر لم يكن بأهميتها هي، وأن الماضي لم يكن بأهمية المستقبل، وأن العائلة التي خسرها لم تكن عزيزة عليه بقدر العائلة التي سيصنعها.

قال، وصوته يرتفع أخيرًا فوق الهمس:

– "أنا أحبكِ".

التفت، وقلبه، وروحه ذاتها في عينيه.

– "أنا أحبكِ".

بدت مرتبكة من تغير مزاجه المفاجئ، لكن في النهاية ابتسمت فقط — وبدت وكأنها قد تضحك فعليًا. كان ذلك النوع من التعبيرات الذي يرتسم على وجه المرء حين يمتلك سعادة أكبر من أن يبقيها كلها في الداخل.

أراد أن يجعلها تبدو هكذا كل يوم. كل ساعة. كل دقيقة.

قالت:

– "أنا أحبك أيضًا".

أخذ وجهها بين يديه وقبلها، مرة واحدة، بعمق، على الفم.

– "أعني، أنا أحبك حقًا".

رفعت حاجبًا:

– "هل هذه مسابقة؟"

وعدها:

– "إنها أي شيء تريدينه".

ابتسمت تلك الابتسامة الساحرة والمثالية التي كانت جوهرها. قالت وهي تميل رأسها للجانب:

– "أشعر أنني يجب أن أحذرك إذن. حين يتعلق الأمر بالمسابقات والألعاب، أنا أفوز دائمًا".

– "دائمًا؟"

أصبحت عيناها ماكرتين.

– "كلما كان الأمر مهمًا".

شعر بنفسه يبتسم، وشعر بروحه تخف وهمومه تتلاشى.

– "وماذا يعني ذلك بالتحديد؟"

قالت وهي تمد يدها وتفك أزرار معطفها:

– "يعني أنني حقًا، حقًا أحبك".

تراجع للخلف، مكتفًا ذراعيه وهو يمنحها نظرة تقييمية.

– "أخبريني المزيد".

سقط معطفها على الأرض.

– "أيكفي هذا؟"

– "آه، ليس كافيًا على الإطلاق".

حاولت أن تبدو جريئة، لكن وجنتيها بدأتا تكتسيان باللون الوردي. قالت وهي ترفرف برموشها:

– "سأحتاج للمساعدة في الباقي".

كان بجانبها في لحظة.

– "أنا أعيش لخدمتكِ".

– "أهذا صحيح؟"

بدت مفتونة بالفكرة، وبشكل خطير لدرجة أن غاريث شعر بأنه مضطر للإضافة:

– "في غرفة النوم".

وجدت أصابعه الشريطين عند كتفيها، وجذبهما، مما جعل صدر فستانها يرتخي بشكل خطير.

همس:

– "مزيد من المساعدة يا سيدتي؟"

أومأت.

– "ربما..."

لف أصابعه حول خط العنق، مستعدًا لإنزاله، لكنها وضعت يدًا فوق يده. نظر لأعلى. كانت تهز رأسها.

قالت:

– "لا. أنت".

استغرق الأمر لحظة ليدرك ما تعنيه، ثم انتشرت ابتسامة بطيئة عبر وجهه. قال وهو يسحب سترته الصوفية من فوق رأسه:

– "ولكن بالطبع يا سيدتي. أي شيء تقولينه".

– "أي شيء؟"

قال بنعومة:

– "في هذه اللحظة، أي شيء".

ابتسمت.

– "الأزرار".

انتقل إلى مثبتات قميصه.

– "كما تشائين".

وفي لحظة كان قميصه على الأرض، تاركًا إياه عاريًا من الخصر لأعلى.

وجه نظراته الحارة إلى وجهها. كانت عيناها واسعتين، وشفتاها قد افترقتا. استطاع سماع صوت أنفاسها المتهج، بتوافق تام مع ارتفاع وهبوط صدرها.

لقد أُثيرت. وبشكل مجيد، وكان كل ما بوسعه فعله ألا يجرها إلى السرير في التو واللحظة.

همس:

– "أي شيء آخر؟"

تحركت شفتاها، ورفت عيناها نحو سرواله. أدرك ببهجة أنها خجولة للغاية، لا تزال بريئة أكثر من أن تأمره بخلعه.

سأل وهو يعلق إبهامه تحت حزام الخصر:

– "هذا؟"

أومأت.

قشر سرواله عنه، ونظراته لا تبارح وجهها قط. وابتسم — في اللحظة ذاتها التي اتسعت فيها عيناها.

أرادت أن تكون خبيرة ومحنكة، لكنها لم تكن كذلك. ليس بعد.

قال بنعومة وهو يقترب أكثر، وأكثر، حتى صار وجهه على بعد بوصات من وجهها:

– "أنتِ ترتدين ملابس أكثر مما ينبغي".

وضع إصبعين تحت ذقنها ورفع وجهها، مائلاً للأسفل لتقبيلها بينما وجدت يده الأخرى خط عنق فستانها وجذبته للأسفل.

تحررت منه، وحرك يده إلى الجلد الدافئ لظهرها، ضاغطًا إياها ضده حتى التقى صدرها بصدره. تتبعت أصابعه بخفة الانحناء الرقيق لعمودها الفقري، لتستقر عند أسفل ظهرها، حيث استقر فستانها ب헐اعة حول وركيها.

قال، تاركًا أنفه يستقر ضد أنفها:

– "أنا أحبك".

– "أنا أحبك أيضًا".

قال مبتسمًا في أذنها:

– "أنا سعيد للغاية. لأنه لو لم تكوني كذلك، لكان هذا كله محرجًا للغاية".

ضحكت، ولكن كان هناك تردد طفيف في ضحكتها. سألت:

– "هل تقول إن كل نسائك الأخريات أحببنك؟"

تراجع للخلف، مطوقًا وجهها بين كفيه.

قال، وهو يحرص كل الحرص على أن تغوص نظراتها في أعماق عينيه بينما ينتقي كلماته:

– "ما أرمي إليه، هو أنني لم أحبهن قط. ولستُ أدري إن كنتُ سأقوى على الاحتمال، وأنا أحبكِ هذا الحب الجارف، إن لم تبادليني الشعور ذاته".

راحت هياسنث تتأمل محياه، هائمة في زرقة عينيه العميقة. لمست جبينه، ثم شعره، ممسدة خصلة ذهبية جانبًا قبل أن تدسها بحنان خلف أذنه.

تاق جزء منها للوقوف هكذا إلى الأبد، تكتفي بالنظر إلى وجهه، تحفظ عن ظهر قلب كل استدارة وظل، من الانحناء الممتلئ لشفتيه السفلى إلى التقوس الدقيق لحاجبيه. إنها ستبني حياتها مع هذا الرجل، وتهبه حبها وتنجب أطفاله، وامتلأ كيانها بأروع شعور بالترقب، وكأنها تقف على شفا شيء ما، توشك أن تخوض غمار مغامرة مذهلة.

وكل ذلك يبدأ الآن.

أمالت رأسها، ودنت منه، وارتفعت على أطراف أصابعها، لا لشيء إلا لتطبع قبلة يتيمة على شفتيه.

قالت:

– "أنا أحبك".

همس، وأدركت أنه مذهول بهذه المعجزة بقدر ذهولها:

– "أنتِ تفعلين حقًا، أليس كذلك؟"

حذرته:

– "في بعض الأحيان سأدفعك للجنون".

كانت ابتسامته مائلة ككتفيه حين يهزهما:

– "سأذهب إلى ناديّ".

أضافت:

– "وستفعل بي الشيء نفسه".

– "يمكنكِ تناول الشاي مع والدتكِ".

التمست إحدى يديه يدها بينما تحركت الأخرى حول خصرها، حتى التحما معًا وكأنهما في رقصة فالس.

- "وسنقضي أروع الأوقات لاحقًا في تلك الليلة، نتبادل القبلات ونستجدي الغفران من بعضنا البعض".

قالت هياسنث، متسائلة عما إذا كان يجب أن يكون هذا حديثًا أكثر جدية:

- "غاريث..."

قال:

- "لم يقل أحد إن علينا قضاء كل لحظة يقظة معًا، ولكن في نهاية اليوم..."

مال وقبّل كلاً من حاجبيها بدوره.

- "... ومعظم الوقت خلاله، لا يوجد أحد أفضل رؤيته، ولا أحد أفضل سماع صوته، ولا أحد أفضل استكشاف عقله سواكِ".

قبّلها حينها. مرة واحدة، ببطء وعمق.

- "أحبكِ يا هياسنث بريدجرتون. وسأظل أحبكِ دائمًا".

- "آه يا غاريث".

ودت لو قالت شيئًا أكثر بلاغة، لكن كلماته كان يجب أن تكفي لكليهما، لأنها في تلك اللحظة كانت مغلوبة على أمرها، مفعمة بالمشاعر لدرجة لا تقوى معها على فعل شيء سوى التنهد باسمه.

وحين حملها بين ذراعيه ومضى بها إلى سريره، كان كل ما استطاعت قوله هو:

- "نعم".

انزلق فستانها قبل أن تلامس الحشية، وبحلول الوقت الذي غطى جسده جسدها، كان الجلد يلامس الجلد. كان هناك شيء مثير في أن تكون تحته، تشعر بقوته، وسطوته. كان بإمكانه السيطرة عليها لو أراد، بل وإيلامها، ومع ذلك، صارت بين ذراعيه أغلى الكنوز.

كانت يداه تجوبان جسدها، تحفران مسارًا من النار عبر بشرتها. شعرت هياسنث بكل لمسة في صميم كيانها. مسد ذراعها، فشعرت بذلك في أحشائها؛ لمس كتفها، فدب الخدر في أصابع قدميها.

قبّل شفتيها، فغنى قلبها.

باعد بين ساقيها برفق، واحتضن جسده جسدها. استطاعت أن تشعر به، صلبًا ومُلحًّا، لكن هذه المرة لم يكن هناك خوف، ولا توجس. مجرد حاجة عارمة لامتلاكه، لاحتوائه بداخلها والالتفاف حوله.

أرادته. أرادت كل بوصة منه، كل جزء كان قادرًا على منحه من نفسه.

توسلت، وهي تضغط وركيها نحوه:

– "أرجوك... أرجوك".

لم يقل شيئًا، لكنها سمعت حاجته في خشونة أنفاسه. اقترب أكثر، متموضعًا قرب مدخلها، فقوّست جسدها لتقترب وتلاقيه.

تشبثت بكتفيه، وأصابعها تنغرس في جلده. كان هناك شيء جامح بداخلها، شيء جديد ونهم. احتاجته. احتاجت هذا. الآن.

شهقت، محاولة بيأس ضغط نفسها ضده:

– "غاريث".

تحرك قليلاً، مغيرًا الزاوية، وبدأ ينزلق للداخل.

كان ذلك ما أرادته، ما توقعته، لكن رغم ذلك، كانت لمسته الأولى صدمة. تمددت، وشعرت بالشد، وحتى بقليل من الألم، لكن مع ذلك، كان الشعور جيدًا، وصحيحًا، وأرادت المزيد.

كان يلهث، وأنفاسه تخرج في دفعات صغيرة قاسية وهو يتقدم، كل دفعة تملؤها بشكل أكمل:

– "هيا... هيا... هيا..."

ثم، أخيرًا، كان هناك، مضغوطًا بداخلها بالكامل حتى التقى جسده بجسدها.

شهقت، ورأسها يرتد للخلف من فرط القوة:

– "يا إلهي".

تحرك، جيئة وذهابًا، والاحتكاك يجلد حواسها حتى فقدان الوعي. مدت يدها، خرمشت، أمسكت — أي شيء لتقريبه، أي شيء للوصول إلى نقطة الانهيار.

كانت تعرف إلى أين تتجه هذه المرة.

صرخت:

– "غاريث!"

وضاع الصوت في فمه وهو ينقض لتقبيلها.

بدأ شيء ما بداخلها يشتد ويلتف، يلتوي ويتوتر حتى تيقنت أنها ستتحطم. ثم، حين لم تعد تقوى على الاحتمال لثانية واحدة أخرى، وصل كل شيء إلى ذروته، وانفجر شيء بداخلها، شيء مذهل وحقيقي.

وبينما تقوّست، وجسدها يهدد بالتحطم من قوة الشعور، شعرت بـ غاريث يصاب بالجنون والوحشية، ودفن وجهه في عنقها وهو يطلق صرخة بدائية، مسكوبًا نفسه بداخلها.

لدقيقة، ربما دقيقتين، لم يفعلا شيئًا سوى التنفس. وأخيرًا، تدحرج غاريث عنها، ولا يزال يضمها بقرب بينما استقر على جانبه.

قالت، لأن الكلمات بدت تلخص كل ما كانت تشعر به:

– "يا... يا للروعة".

سأل وهو يسحبها برفق حتى تقوسا معًا كملعقتين:

– "متى سنتزوج؟"

– "ستة أسابيع".

قال:

– "أسبوعان. مهما كان ما عليكِ قوله لوالدتكِ، لا يهمني. اجعليه أسبوعين، أو سأخطفكِ إلى غريتنا".

أومأت هياسنث، تدس نفسها ضده، وتنتشي بشعور وجوده خلفها.

قالت، والكلمة تكاد تكون تنهيدة:

– "أسبوعان. ربما حتى أسبوع واحد فقط".

وافقها:

– "هذا أفضل".

استلقيا معًا لعدة دقائق، يستمتعان بالصمت، ثم التفت هياسنث بين ذراعيه، لاوية عنقها لتتمكن من رؤية وجهه.

– "هل كنت ذاهبًا إلى كلير هاوس هذا المساء؟"

– "ألم تكوني تعلمين؟"

هزت رأسها.

– "لم أظن أنك ستذهب مرة أخرى".

– "لقد وعدتكِ بأنني سأفعل".

– "حسنًا، نعم، لكنني ظننتُ أنك تكذب، فقط لتكون لطيفًا".

شتم غاريث تحت أنفاسه.

– "ستكونين هلاكي. لا أصدق أنكِ لم تقصدي حقًا أن أذهب".

قالت:

– "بالطبع قصدتُ أن تذهب. لم أظن فقط أنك ستفعل".

ثم جلست فجأة لدرجة اهتز معها السرير. اتسعت عيناها، واكتست ببريق وتوهج خطيرين.

– "لنذهب. الليلة".

إجابة سهلة:

– "كلا".

– "آه، أرجوك. أرجوك. كهدية زفاف لي".

قال:

– "كلا".

– "أتفهم ترددك..."

كرر، محاولًا تجاهل الشعور بالغرق في معدته، الشعور بأنه سيستسلم:

– "كلا. لا أظنكِ تفعلين".

قالت وعيناها مشرقتان ومقنعتان:

- "ولكن حقًا، ما الذي لدينا لنخسره؟ سنتزوج في أسبوعين..."

رفع حاجبًا واحدًا.

صححت:

- "الأسبوع القادم. الأسبوع القادم، أعدك".

فكر في ذلك. كان الأمر مغريًا.

قالت:

- "أرجوك. أنت تعلم أنك تريد ذلك".

تساءل بصوت مسموع:

- "لِمَ أشعر وكأنني عدتُ للجامعة، مع أكثر أصدقائي انحلالاً يقنعني بضرورة شرب ثلاثة أكواب أخرى من الجن؟"

سألت:

- "ولم قد ترغب في مصادقة شخص منحل؟"

ثم ابتسمت بفضول خبيث.

- "وهل فعلت ذلك؟"

تأمل غاريث حكمة الإجابة عن ذلك؛ حقًا، لم يرغب في أن تعرف أسوأ تجاوزاته أيام الدراسة. لكن ذلك سيخرجها من موضوع المجوهرات، و...

حثته مرة أخرى:

- "لنذهب. أعلم أنك تريد".

همس وهو يلف يده حول مؤخرتها:

- "أعلم ما أريد فعله، وهو ليس ذلك".

نكزته:

- "ألا تريد المجوهرات؟"

بدأ يداعبها.

- "همم-هممم".

صرخت وهي تحاول التملص بعيدًا:

- "غاريث!"

– "غاريث نعم، أم غاريث..."
قالت بحزم، وهي تتفاداه بطريقة ما وتتلوى إلى الجانب الآخر من السرير:
– "لا. غاريث، لا. ليس قبل أن نذهب إلى كلير هاوس للبحث عن المجوهرات".
تمتم:
– "يا إلهي. إنها ليسيستراتا[1]، عادت إليّ في هيئة بشرية".
رمته بابتسامة منتصرة من فوق كتفها وهي ترتدي ملابسها.
نهض واقفًا، عالمًا أنه قد هُزم. وفضلاً عن ذلك، كان معها حق. كان قلقه الرئيسي على سمعتها؛ وطالما بقيت بجانبه، كان واثقًا تمامًا من قدرته على حمايتها. وإذا كانا سيتزوجان حقًا في غضون أسبوع أو اثنين، فإن طيشهما، لو ضُبطا، سيتم تجاوزه بغمزة وابتسامة خبيثة. لكن رغم ذلك، شعر أنه يجب أن يبدي ولو مقاومة رمزية، فقال:
– "ألا يُفترض أن تكوني متعبة بعد كل هذا النشاط في السرير؟"
– "مفعمة بالطاقة تمامًا".
أطلق زفرة متعبة. قال بصرامة:
– "هذه هي المرة الأخيرة".
جاء ردها فوريًا:
– "أعدك".
ارتدى ملابسه.
– "أعني ذلك. إذا لم نجد المجوهرات الليلة، فلن نذهب مرة أخرى حتى أرث المكان. حينها يمكنكِ هدم المكان حجرًا حجرًا إن شئتِ".
قالت:

[1] ليسيستراتا (*Lysistrata*): شخصية مسرحية شهيرة من تأليف الكاتب الإغريقي أريستوفان (القرن الخامس قبل الميلاد)، قادت فيها النساء إضرابًا جنسيًا لإجبار الرجال على إنهاء الحرب، وأصبحت رمزًا ساخرًا لاستخدام الذكاء والضغط الاجتماعي في مواجهة العنف والسلطة الذكورية.
فيشبّه غاريث هياسنث مازحًا بليسيستراتا، باعتبارها تستخدم الامتناع كوسيلة سيطرة وفرض إرادة

- "لن يكون ذلك ضروريًا. سنجدها الليلة. أشعر بذلك في عظامي".

فكر غاريث في عدة ردود، لم يكن أي منها صالحًا لأذنيها.

نظرت إلى نفسها بتعبير آسف، وهي تلمس طيات تنورتها.

- "لستُ بملابس مناسبة حقًا".

كان القماش داكنًا، لكنه لم يكن سروال الصبي الذي ارتدته في رحلتيهما السابقتين.

لم يكلف نفسه عناء اقتراح تأجيل صيدهما. لم تكن هناك جدوى. ليس وهي تتوهج بالإثارة عمليًا.

وبالفعل، أشارت بقدم واحدة من تحت حاشية فستانها وقالت:

- "لكنني أرتدي أكثر أحذيتي راحة، وبالتأكيد هذا هو الشيء الأهم".

- "بالتأكيد".

تجاهلت حدته.

- "هل أنت جاهز؟"

قال بابتسامة زائفة بوضوح:

- "بقدر ما سأكون يومًا".

لكن الحقيقة هي أنها زرعت بذرة الإثارة بداخله، وكان يرسم طريقه بالفعل في عقله. لو لم يرغب في الذهاب، ولو لم يكن مقتنعًا بقدرته على حمايتها، لكان قد قيدها إلى السرير قبل السماح لها بخطو خطوة واحدة في الليل.

أخذ يدها، رفعها إلى فمه، وقبلها. سأل:

- "هل ننطلق؟"

أومأت ومشت على أطراف أصابعها أمامه، خارجة إلى الردهة. قالت بنعومة:

- "سنجدها. أعلم أننا سنفعل".

الفصل الحادي والعشرون

بعد نصف ساعة..

وضعت هياسنث يديها على خصريها وهي تتفحص غرفة نوم البارونة الراحلة بنظرات يائسة، وقالت:

– "لن نعثر عليها."

لقد أمضيا خمس عشرة دقيقة في الوصول إلى منزل "كلير"، وخمس دقائق أخرى في التسلل عبر النافذة المعطوبة والزحف نحو غرفة النوم، ثم قضيا الدقائق العشر الأخيرة في البحث في كل زاوية وركن؛ لكن الجواهر لم يكن لها أثر.

لم يكن من عادة هياسنث بريدجرتون أن تعترف بالهزيمة، وفي الواقع، كان هذا التصرف بعيدًا كل البعد عن شخصيتها لدرجة أن جملتها: "لن نعثر عليها"، خرجت بنبرة ينمُّ عنها الذهول أكثر من أي شيء آخر.

لم يدر بخلدها قط احتمال عدم العثور على الجواهر؛ فقد رسمت هذا المشهد في مخيلتها مئات المرات، وخططت ودبرت، وأشبعت المخطط بحثًا وتفكيرًا، ولم تتخيل للحظة أنها ستقف في النهاية خالية الوفاض.

شعرت وكأنها اصطدمت بجدار من الطوب.

ربما كانت متفائلة بحماقة، أو ربما أعماها الحماس، لكنها في هذه المرة كانت على خطأ.

سألها غاريث وهو يتطلع إليها من مكانه:

- "هل استسلمتِ إذن؟"

كان جاثيًا بجانب السرير، يتحسس الألواح الخشبية في الحائط خلف مسند الرأس. لم يبدُ صوته مسرورًا، بل كان يوحي بشيء من الراحة لانتهاء الأمر.

كان يعلم – أو يكاد يوقن – أنهم لن يجدوا شيئًا، وقد جاء الليلة لمجرد مسايرتها فقط، وهو ما جعل هياسنث تزداد حبًا له. لكن ملامحه الآن وجوهر صوته كانا يقولان شيئاً واحداً: لقد حاولنا وفشلنا، هل يمكننا المضي قدماً الآن؟

لم تكن على وجهه ابتسامة شامتة، ولم يقل "لقد أخبرتكِ بذلك"، بل كانت نظرة واقعية جامدة، تشوبها ربما مسحة ضئيلة من خيبة الأمل، وكأن جزءًا صغيرًا منه كان يأمل أن تثبت هي صحة حدسها.

عندما لم تجب، ناداها:

- "هياسنث؟"

تمتمت قائلة:

- "أنا.. حسناً.." لم تدرِ ماذا تقول.

قاطعها بملامح حازمة:

- "ليس لدينا الكثير من الوقت."

كان من الواضح أن وقت التأمل قد انتهى. نهض واقفًا وهو ينفض الغبار عن يديه. كانت غرفة نوم البارونة مغلقة، ولا يبدو أنها كانت تخضع لجدول تنظيف منتظم.

تابع قائلًا:

- "الليلة هو موعد الاجتماع الشهري للبارون مع نادي مربي الكلاب."

رددت هياسنث بدهشة:

- "مربو الكلاب؟ في لندن؟"

أوضح غاريث:

– "يجتمعون في الثلاثاء الأخير من كل شهر دون إنفاق. لقد دأبوا على ذلك لسنوات؛ ليبقى الجميع على اطلاع بالمعلومات ذات الصلة بمهنتهم أثناء وجودهم في المدينة."

سألت هياسنث بفضولها المعتاد:

– "وهل تتغير تلك المعلومات كثيرًا؟"

أجاب غاريث باقتضاب:

– "ليس لدي أدنى فكرة. الأرجح أنه مجرد عذر للاجتماع واحتساء الشراب. تنتهي الاجتماعات دائماً في الحادية عشرة، ثم يقضون نحو ساعتين في الأحاديث الجانبية، مما يعني أن البارون سيكون في منزله.."

أخرج ساعة جيبه وتمتم بشتيمة تحت أنفاسه: ".. الآن."

أومأت هياسنث بأسى:

– "أنا مستسلمة. لا أظنني نطقت بهذه الكلمة قط دون إكراه، لكني أعلن استسلامي."

داعب غاريث ذقنها برقة قائلًا:

– "ليست نهاية العالم يا هاي. فكري فقط أن بإمكانك استئناف مهمتكِ بمجرد أن يغادر البارون الحياة وأرث هذا المنزل. وهو أمر.." وأضاف بتفكير: ".. أملك فيه بعض الحق فعليًا." ثم هز رأسه مكملاً: "تخيلي ذلك."

سألته:

– "هل تظن أن إيزابيلا أرادت حقًا لأي شخص أن يجدها؟"

أجاب غاريث:

– "لا أعلم. لكن المنطق يقول إنها لو أرادت ذلك، لاختارت لغة أكثر شيوعًا لدليلها الأخير بدلاً من السلوفينية."

قالت هياسنث وهي تنهد:

– "يجب أن نرحل. عليّ العودة للمنزل في كل الأحوال. إذا كان عليّ إزعاج والدتي لتغيير موعد الزفاف، فأريد فعل ذلك الآن وهي تشعر بالنعاس ويسهل إقناعها."

نظر إليها غاريث وهو يضع يده على مقبض الباب:

- "أنتِ امرأة شيطانية."

- "ألم تكن تصدق ذلك من قبل؟"

ابتسم، ثم أومأ لها برأسه عندما تأكد أن الرواق آمن. تحركا معًا بهدوء نزولًا إلى غرفة الجلوس ذات النافذة المعطوبة، وبخفة وصمت، انزلقا للخارج وقفزا إلى الزقاق بالأسفل.

مشى غاريث في المقدمة، وتوقف عند نهاية الزقاق ممدًا ذراعه خلفه ليبقي هياسنث بعيدة بينما كان يسترق النظر إلى شارع "دوفر".

همس وهو يومئ برأسه نحو الشارع:

- "لننطلق."

كانا قد أتيا في عربة "هانسوم" - فمنازل غاريث لم تكن قريبة بما يكفي للمشي - وتركاها تنتظر عند تقاطعين بعيدين. لم يكن من الضروري ركوب العربة للعودة إلى منزل هياسنث الذي يقع في الجانب الآخر من "مايفير"، لكن غاريث قرر استغلال العربة ما دامت تحت تصرفهما. كان هناك مكان جيد لنزولهما خلف زاوية المنزل رقم خمسة، حيث تغمره الظلال ولا تطل عليه نوافذ كثيرة.

قال غاريث وهو يمسك يد هياسنث ويجذبها:

- "من هنا، هيا، يمكننا.."

توقف فجأة، وتعثر في مشيته. كانت هياسنث قد تسمرت في مكانها.

همس بحدة وهو يلتفت إليها:

- "ما الخطب؟"

لكنها لم تكن تنظر إليه؛ بل كانت عيناها مصوبتين نحو شيء ما - أو شخص ما - جهة اليمين.

إنه البارون.

تجمد غاريث. كان اللورد سانت كلير – والده، عمه، أو أياً كان ما يجب أن يسميه – واقفاً عند أعلى الدرجات المؤدية إلى منزل "كلير". كان مفتاحه في يده، ومن الواضح أنه رآهما في اللحظة التي كان يهمُّ فيها بدخول المبنى.

قال البارون بعينين تلمعان:

– "هذا أمر مثير للاهتمام."

شعر غاريث بصدره ينتفخ في استعراض غريزي للقوة وهو يدفع هياسنث لتكون خلفه جزئياً، وقال:

– "سيدي."

كان هذا كل ما اعتاد مناداة الرجل به، وبعض العادات يصعب كسرها.

تمتم البارون:

– "تخيل مدى فضولي. هذه هي المرة الثانية التي أصادفك فيها هنا في منتصف الليل."

لم ينطق غاريث بكلمة.

أشار اللورد سانت كلير إلى هياسنث وتابع:

– "والآن.. أحضرتَ خطيبتكَ الجميلة معك. تصرف غير لائق، لا بد لي من قول ذلك. هل تعلم عائلتها أنها تتسكع في الخارج بعد منتصف الليل؟"

سأله غاريث بصوت حاد:

– "ماذا تريد؟"

ضحك البارون بخفوت:

– "أعتقد أن السؤال الأكثر أهمية هو: ماذا تريد أنت؟ إلا إذا كنت تنوي إقناعي بأنك هنا لمجرد استنشاق هواء الليل العليل."

تفرس غاريث في وجهه، باحثاً عن علامات التشابه. كانت كلها موجودة؛ الأنف، العينان، طريقة وضعه لكتفيه. لهذا السبب لم يفكر غاريث قط، حتى ذلك اليوم المشؤوم في مكتب البارون، في أنه قد يكون ابناً غير شرعي. لقد كان طفلاً مشوشاً؛ فوالده كان يعامله بازدراء شديد. وعندما كبر بما يكفي

ليفهم شيئًا مما يدور بين الرجال والنساء، تساءل عن الأمر؛ فقد بدا خيانة والدته تفسيرًا مرجحًا لسلوك والده تجاهه.

لكنه كان يطرد تلك الفكرة في كل مرة؛ بسبب ذلك الأنف اللعين الخاص بعائلة "سانت كلير" القابع في منتصف وجهه. ثم نظر البارون في عينيه وأخبره أنه ليس ابنه، وأنه لا يمكن أن يكون كذلك، وأن تشابه الأنف مجرد صدفة.

صدقه غاريث حينها. فالبارون كان أي شيء إلا أن يكون غبيًا، وبالتأكيد كان يعرف كيف يعدُّ الأشهر وصولاً إلى تسعة. لم يخطر ببال أي منهما أن الأنف قد يكون أكثر من صدفة، وأن غاريث قد يكون "سانت كلير" في نهاية المطاف.

حاول غاريث أن يتذكر: هل كان البارون يحب شقيقه؟ هل كان ريتشارد وإدوارد سانت كلير مقربين؟ لم يستطع تذكرهما معًا، ولكن مرة أخرى، فقد كان يُنفى إلى غرفة الحضانة معظم الوقت على أي حال.

طالب البارون بجواب:

– "حسنًا؟ ما الذي ستقوله لتبرير نفسك؟"

كانت الكلمات على طرف لسانه. نظر غاريث في عيني الرجل الذي كان، لسنوات طويلة، القوة المهيمنة في حياته، وكاد أن يقول: لا شيء على الإطلاق، يا العم ريتشارد.

كانت ستكون ضربة مباشرة وموجعة، مفاجأة كاملة مصممة لزعزعة كيانه وإصابته في الصميم. كانت ستستحق العناء فقط لرؤية علامات الصدمة على وجه البارون. كانت ستكون مثالية.

إلا أن غاريث لم يرغب في فعل ذلك. لم يكن بحاجة إليه.

وهذا الإدراك جعله يحبس أنفاسه.

في السابق، كان سيحاول تخمين كيف سيشعر والده؛ هل سيشعر بالراحة لعلمه أن البارونية ستؤول إلى "سانت كلير" حقيقي، أم سيستشيط غضبًا ويتحطم لعلمه أن شقيقه هو من خانه؟

في السابق، كان غاريث سيزن خياراته، ويوازن بينها، ثم يتبع غريزته ليوجّه الضربة الأكثر سحقاً.

أما الآن..

فلم يعد يهتم.

لن يحب هذا الرجل أبدًا. سحقاً، لن يطيقه حتى. لكن ولأول مرة في حياته، كان يصل إلى مرحلة لا يهم فيها الأمر بتاتاً. ودهش لمدى روعة هذا الشعور.

أمسك بيد هياسنث وشبك أصابعه بأصابعها، وقال بهدوء:

– "نحن مجرد خارجين في نزهة مشي."

كان تصريحاً ينم عن سخافة واضحة، لكن غاريث ألقاه ببراعته المعتادة، وبالنبرة نفسها التي كان يستخدمها دائماً مع البارون. وأضاف وهو يدير جسده ليقودها نحو الشارع: "هيا بنا يا آنسة بريدجرتون."

لكن هياسنث لم تتحرك. التفت غاريث لينظر إليها، فبدت كأنها تجمدت في مكانها. نظرت إليه بعينين متسائلتين، وعلم أنها لا تصدق أنه التزم الصمت.

نظر غاريث إليها، ثم إلى اللورد سانت كلير، ثم نظر في أعماق نفسه. وأدرك أنه بينما قد لا تهم حربه الأبدية مع البارون، إلا أن الحقيقة تهم؛ ليس لأنها تملك القوة للجرح، بل لأنها الحقيقة، ويجب أن تُقال. لقد كان السر الذي حدد مسار حياتهما معًا لفترة طويلة، وحان الوقت ليتحررا معًا.

قال غاريث وهو ينظر في عيني البارون:

– "يجب أن أخبرك بشيء ما."

لم يكن من السهل أن يكون مباشراً هكذا، فليس لديه خبرة في التحدث مع هذا الرجل دون ضغينة. شعر بشعور غريب، كأنه عارٍ تماماً.

لم ينطق اللورد سانت كلير بشيء، لكن تعابير وجهه تغيرت قليلاً، وأصبح أكثر ترقباً.

قال غاريث:

– "أنا أمتلك مذكرات الجدة سانت كلير." وعندما رأى علامات الدهشة على وجه البارون، أضاف: "لقد وجدتها كارولين بين متعلقات جورج مع ملحوظة تأمرها بإعطائي إياها."

قال البارون بحدة:

– "لم يكن يعلم أنك لست حفيدها."

فتح غاريث فمه ليرد بقوة: "لكني كنت حفيدها"، لكنه تمكن من كتم التعليق. سيفعل هذا بالطريقة الصحيحة؛ لا بد أن يفعل. كانت هياسنث بجانبه، وفجأة بدت أساليبه الغاضبة السابقة صبيانية وغير ناضجة. لم يكن يريدها أن تراه هكذا، ولم يكن يريد أن يكون هكذا.

وتابع غاريث بصوت مستقر:

– "الآنسة بريدجرتون لديها بعض المعرفة باللغة الإيطالية، وقد ساعدتني في ترجمتها."

نظر البارون إلى هياسنث، ودرست عيناه الثاقبتان ملامحها للحظة قبل أن يعود بنظره إلى غاريث.

قال غاريث بصوت خفيض:

– "لقد كانت إيزابيلا تعرف من هو والدي. لقد كان العم إدوارد."

لم يقل البارون شيئًا، ولا حتى كلمة واحدة. وباستثناء انفراجة طفيفة في شفتيه، ظل ساكنًا لدرجة أن غاريث تساءل عما إذا كان يتنفس أصلاً.

هل كان يعلم؟ هل كان يشك؟

بينما وقف غاريث وهياسنث في صمت، استدار البارون ونظر نحو نهاية الشارع، واستقرت عيناه على نقطة بعيدة. وعندما التفت إليهما مجدداً، كان وجهه شاحباً كالكفن.

تنحنح وأومأ برأسه؛ مرة واحدة فقط، كعلامة على الإقرار. وقال وهو يشير برأسه نحو هياسنث:

– "يجب أن تتزوج هذه الفتاة؛ فالله وحده يعلم أنك ستحتاج إلى مهرها."

ثم صعد بقية الدرجات، ودخل منزله، وأغلق الباب.

قالت هياسنث بعد لحظة من الوقوف بذهول:

– "هذا كل شيء؟ هذا كل ما سيقوله؟"

شعر غاريث بجسده يبدأ في الاهتزاز. وأدرك أنها ضحكة، كأنها شعور عابر. لقد كان يضحك.

احتجت هياسنث وعيناها تلمعان بالاستنكار:

– "لا يمكنه فعل ذلك! لقد كشفت للتو عن أكبر سر في حياتكما، وكل ما يفعله هو.. هل أنت تضحك؟"

هز غاريث رأسه نفيًا، رغم أنه كان من الواضح أنه يفعل.

سألت هياسنث بشك:

– "ما المضحك في الأمر؟"

كان تعبير وجهها.. يشبهها تماماً، مما جعله يضحك بصوت أعلى.

كررت سؤالها: "ما المضحك؟"، لكن هذه المرة بدت وكأنها على وشك الابتسام أيضاً. وأصرت وهي تجذب كُمَّ ثوبه: "غاريث، أخبرني."

هز كتفيه بعجز وقال:

– "أنا سعيد." وأدرك أن هذا هو الحق؛ فقد استمتع بحياته من قبل، ومر بلحظات سعيدة بالتأكيد، لكنه لم يشعر بهذا الشعور منذ زمن طويل؛ سعادة كاملة وشاملة. كاد ينسى هذا الإحساس.

وضعت يدها فجأة على جبينه وتمتمت:

– "هل أنت محموم؟"

– "أنا بخير." ثم جذبها بين ذراعيه وتابع: "أنا أكثر من بخير."

شهقت هياسنث وهي تبتعد عنه عندما انحنى ليقبلها:

– "غاريث! هل جننت؟ نحن في منتصف شارع 'دوفر'، والوقت.."

قاطع كلامها بقبلة.

تمتمت بصعوبة:

– "إنه منتصف الليل."

ابتسم بابتسامة شيطانية:

– "لكني سأتزوجكِ الأسبوع القادم، أتذكرين؟"

– "نعم، ولكن.."

همس قائلاً:

– "وبالمناسبة.."

انفغر فم هياسنث دهشة وهو ينزل على ركبة واحدة. وصاحت بصوت خفيض وهي تتلفت بجزع يمنة ويسرة:

– "ماذا تفعل؟"

كانت متأكدة أن اللورد سانت كلير يراقبهم من النافذة، والله وحده يعلم من يشاهدهم أيضاً. وهمست: "سيرانا أحد ما."

بدا غير مبالٍ:

– "سيقول الناس إننا واقعون في الحب."

– "أنا.." يا إلهي، كيف لامرأة أن تجادل في ذلك؟

أمسك يدها وقال:

– "هياسنث بريدجرتون، هل تقبلين الزواج مني؟"

رمشت بعينيها في ارتباك:

– "لقد قلتُ بالفعل إنني أقبل."

– "نعم، ولكن كما قلتِ أنتِ، لم أطلب يدكِ للأسباب الصحيحة. كانت في معظمها أسبابًا صحيحة، ولكن ليس كلها."

– "أنا.. أنا.." كانت تتلعثم في كلماتها، وتخنقها العاطفة.

كان ينظر إليها، وعيناه تلمعان بصفاء وزرقة في ضوء مصابيح الشارع الخافت. قال:

– "أنا أطلب منكِ الزواج لأنني أحبكِ؛ لأنني لا أستطيع تخيل حياتي دونكِ. أريد رؤية وجهكِ في الصباح، وفي الليل، ومائة مرة بينهما. أريد أن أهرم معكِ، أريد أن أضحك معكِ، وأريد أن أتذمر أمام أصدقائي من مدى تحكمكِ بي، بينما أعلم في سري أنني الرجل الأكثر حظاً في المدينة."

سألته:

– "ماذا؟"

هز كتفيه:

– "على الرجل أن يحافظ على مظهره. سأكون مكروهاً عالمياً إذا أدرك الجميع كم أنتِ مثالية."

– "أوه." مرة أخرى، كيف لامرأة أن تجادل في ذلك؟

ثم أصبحت نظرة عينيه جادة:

– "أريدكِ أن تكوني عائلتي. أريدكِ أن تكوني زوجتي."

تطلعت إليه؛ كان يرمقها بمثل هذا الحب والتفاني الواضحين لدرجة أنها لم تدرِ ماذا تفعل. شعرت بالحب يحيط بها، يغمرها، وعلمت أن هذا هو الشعر، وهذه هي الموسيقى.

هذا هو الحب.

ابتسم لها، ولم يكن بوسعها إلا أن تبادله الابتسام، وهي تدرك بضعف أن وجنتيها قد تبللتا بالدموع.

نادى باسمها: "هياسنث.. هياسنث."

أومأت برأسها، أو هكذا ظنت أنها فعلت.

ضغط على يديها وهو ينهض واقفاً:

– "لم أظن قط أنني سأضطر لقول هذا لكِ أنتِ تحديداً، ولكن بحق الله، قولي شيئاً أيتها المرأة!"

قالت:

– "نعم." وارتمت بين ذراعيه صارخة: "نعم!"

خاتمة

بعد بضع لحظات لنوافيكم بآخر التطورات..

بعد أربعة أيام من نهاية قصتنا، زار غاريث اللورد روثام، ليكتشف أن الإيرل لم يعد يشعر أن الخطبة ملزمة بأي حال، خاصة بعد أن نقل إليه وعد الليدي بريدجرتون برعاية إحدى بنات روثام الصغيرات في الموسم القادم.

وبعد أربعة أيام أخرى، أبلغت الليدي بريدجرتون غاريث، بلهجة لا تقبل الجدل، أن ابنتها الصغرى لن تتزوج على عجل، واضطر للانتظار شهرين قبل الزواج من هياسنث في حفل فخم وراقٍ في كنيسة القديس جورج بلندن.

وبعد أحد عشر شهراً من ذلك، أنجبت هياسنث طفلاً معافى سُمي جورج.

وبعد عامين، رُزقا بابنة سُميت إيزابيلا.

وبعد أربعة أعوام، سقط اللورد سانت كلير عن حصانه أثناء رحلة صيد ثعالب وقُتل فوراً. تولى غاريث اللقب، وانتقل هو وهياسنث إلى منزلهما الجديد في المدينة؛ منزل "كلير".

كان ذلك منذ ست سنوات.. وهي لا تزال تبحث عن الجواهر منذ ذلك الحين..

سألها غاريث:

– "ألم تفتشي هذه الغرفة من قبل؟"

رفعت هياسنث بصرها من مكانها على أرضية غرفة الغسيل الخاصة بالبارونة. كان غاريث واقفاً عند الباب، ينظر إليها بتعبير ينم عن الدلال.

أجابت وهي تختبر الألواح الخشبية بحثاً عن أجزاء مفككة – وكأنها لم تجذبها وتفحصها مرات لا تُحصى من قبل:

– "ليس منذ شهر على الأقل."

قال غاريث:

– "عزيزتي.." وعرفت من نبرته ما كان يفكر فيه.

رمقته بنظرة حادة:

– "لا تبدأ."

كرر:

– "عزيزتي.."

– "لا." وعادت للألواح الخشبية: "لا أريد سماع شيء. لو استغرق الأمر حتى يوم وفاتي، سأعثر على هذه الجواهر اللعينة."

– "هياسنث."

تجاهلته وهي تضغط على الحواف حيث يلتقي اللوح بالأرضية.

راقبها غاريث لعدة ثوانٍ قبل أن يعلق:

– "أنا متأكد تماماً أنكِ فعلتِ ذلك من قبل."

لم تمنحه سوى نظرة عابرة قبل أن تنهض لتفحص إطار النافذة.

ناداها: "هياسنث."

التفتت فجأة لدرجة أنها كادت تفقد توازنها:

– "الملاحظة تقول: 'النظافة من الإيمان، وملكوت السماء غني حقاً'."

قال بتهكم:

– "باللغة السلوفينية."

ذكّرته قائلة:

– "ثلاثة سلوفينيين! ثلاثة سلوفينيين قرأوا الدليل، وجميعهم توصلوا إلى الترجمة نفسها."

وبالتأكيد لم يكن من السهل العثور على ثلاثة سلوفينيين.

قال غاريث اسمها مجدداً، وكأنه لم ينطقه مرتين بالفعل.. ومرات لا تحصى من قبل، وبالنبرة المستسلمة نفسها دائماً.

قالت:

– "لا بد أن تكون هنا. لا بد من ذلك."

هز غاريث كتفيه قائلًا:

– "حسنًا جدًا، لكن إيزابيلا ترجمت مقطعًا من الإيطالية، وتريدكِ أن تراجعي عملها."

توقفت هياسنث، وتنهدت، ثم رفعت أصابعها عن إطار النافذة. في سن الثامنة، أعلنت ابنتها أنها ترغب في تعلم لغة سميتها، فاستأجر غاريث وهياسنث مدرساً يقدم لها الدروس ثلاث مرات أسبوعياً. وفي غضون عام، تفوق طلاقة إيزابيلا والدتها، واضطرت هياسنث للاستعانة بالمدرس لنفسها في اليومين الآخرين لمجرد مواكبتها.

سألته وهي تتبعه عبر غرفة النوم إلى الرواق:

– "لماذا لم تدرس الإيطالية قط؟"

قال باستخفاف:

– "ليس لدي ملكة للغات، ولا حاجة لي بها بوجود سيدتيّ بجانبي."

قلبت هياسنث عينيها وحذرته:

– "لن أخبرك بأي كلمات بذيئة أخرى."

ضحك بخفة:

– "إذن لن أعطي الآنسة 'أورسيني' المزيد من الجنيهات مع تعليمات لتعليمكِ الكلمات البذيئة."

التفتت إليه هياسنث برعب:

– "لم تفعل!"

– "لقد فعلت."

زمّت شفتيها قائلة:

– "ولا يبدو عليك حتى أدنى شعور بالندم."

– "ندم؟" ضحك في أعماق حنجرته، ثم انحنى ليضغط بشفتيه على أذنها. كانت هناك بضع كلمات إيطالية تكبد عناء حفظها؛ فصوبها جميعاً في أذنها همساً.

شهقت قائلة:

– "غاريث!"

– "هل هذه 'غاريث نعم'، أم 'غاريث لا'؟"

تنهدت، فلم يكن بوسعها المقاومة:

– "غاريث.. زدني."

نقرت إيزابيلا سانت كلير بقلمها الرصاص على جانب رأسها وهي تتأمل الكلمات التي كتبتها للتو. كان التحدي يكمن في الترجمة من لغة إلى أخرى؛ فالمعنى الحرفي لا يبدو صحيحاً أبداً، لذا كان على المرء اختيار تعبيراته بأقصى درجات العناية. لكن هذا.. نظرت إلى الصفحة المفتوحة من كتاب "جاليليو" (Discorso intorno alle cose che stanno، in sù l'acqua، ò che in quella si muovono).. هذا كان مثالياً.

مثالي.. مثالي.. مثالي.

كلماتها الثلاث المفضلة.

نظرت نحو الباب، بانتظار ظهور والدتها. كانت إيزابيلا تحب ترجمة النصوص العلمية لأن والدتها كانت تتعثر دائماً في الكلمات التقنية، وكان من الممتع بالطبع رؤية أمها تتظاهر بأنها تعرف من الإيطالية أكثر من ابنتها.

لا يعني ذلك أن إيزابيلا كانت لئيمة. زمّت شفتيها وهي تفكر في ذلك. لم تكن لئيمة؛ فالشخص الوحيد الذي كانت تعشقه أكثر من والدتها هي جدتها الكبرى دانبري، التي رغم كونها حبيسة كرسي متحرك، كانت لا تزال تبرع في استخدام عصاها بدقة تضاهي دقة لسانها.

ابتسمت إيزابيلا. عندما تكبر، أرادت أن تكون في البداية مثل والدتها تماماً، ثم عندما تنتهي من ذلك، تصبح مثل جدتها الكبرى. تنهدت؛ ستكون حياة رائعة.

ولكن ما الذي أخرهم؟ لقد مر وقت طويل منذ أن أرسلت والدها للأسفل – ويجب أن نُضيف أنها تحبه بالقدر نفسه؛ لكنه كان مجرد رجل، ولم تكن تستطيع التطلع لأن تصبح مثله.

كشرت إيزابيلا. الأرجح أن والدها ووالدتها يتبادلان الضحك والهمس ويتواريان في زاوية مظلمة. يا إلهي، كان الأمر محرجاً حقاً.

نهضت إيزابيلا مستسلمة لانتظار طويل. رأت أنه من الأفضل استخدام غرفة الغسيل. وضعت قلمها بعناية، ونظرت للمرة الأخيرة نحو الباب ثم عبرت الغرفة نحو غرفة غسيل الحضانة. كانت تلك الغرفة الصغيرة القابعة في زاوية القصر القديم، وبشكل غير متوقع، غرفتها المفضلة في المنزل. من الواضح أن شخصاً ما في السنوات الماضية قد أحب هذه الغرفة، فزُينت ببلاط مبهج افترضت أنه يعود لنمط شرقي ما؛ كانت هناك ألوان زرقاء جميلة، وألوان مائية متلألئة، وصفراء كأنها خيوط من أشعة الشمس الصافية.

لو كانت الغرفة كبيرة بما يكفي لتجر إليها سريراً وتجعلها غرفتها، لفعلت. كانت تجد من المضحك أن أجمل غرفة في المنزل (من وجهة نظرها على الأقل) كانت الأكثر تواضعاً. غرفة غسيل الحضانة؟ وحدها غرف الخدم كانت تُعتبر أقل منها شأناً.

قضت إيزابيلا حاجتها، وأعادت الوعاء إلى الزاوية، وتوجهت نحو الباب. ولكن قبل أن تصل، لفت نظرها شيء ما.

صدع.. بين بلاطتين.

تمتمت إيزابيلا:

– "لم يكن هذا موجوداً من قبل."

جثت على ركبتيها، ثم خفضت نفسها حتى جلست على الأرض لتفحص الصدع الذي يمتد من الأرضية إلى أعلى البلاطة الأولى، بارتفاع نحو ست

بوصات. لم يكن هذا النوع من الأشياء التي يلاحظها معظم الناس، لكن إيزابيلا لم تكن مثل معظم الناس؛ فهي تلاحظ كل شيء.

وهذا كان شيئاً جديداً.

بسبب إحباطها من عدم قدرتها على الاقتراب أكثر، استندت على ساعديها وركبتيها، ثم وضعت خدها على الأرض.

– "همممم." نقرت على البلاطة التي تقع يمين الصدع، ثم التي تقع يساره. "همممم."

لماذا ينفتح صدع فجأة في جدار حمامها؟ بالتأكيد منزل "كلير"، الذي تجاوز عمره مائة عام، قد انتهى من مراحل استقراره وتحركه. ورغم أنها سمعت عن مناطق بعيدة تهتز فيها الأرض، إلا أن هذا لا يحدث في مكان متحضر مثل لندن.

هل ركلت الجدار دون قصد؟ هل أسقطت شيئاً؟

نقرت مجدداً.. ثم مجدداً.

تراجعت بذراعها مستعدة للضرب بقوة أكبر، لكنها توقفت. كان حمام والدتها يقع تحتها مباشرة. إذا أحدثت جلبة فظيعة، فستأتي أمها بالتأكيد لتسأل عما تفعله. ورغم أنها أرسلت والدها لإحضار أمها منذ دهور، إلا أن الرهان كان قائماً بأن أمها لا تزال في حمامها. فعندما تدخل أمها الحمام.. حسناً، فإما أن تخرج في دقيقة، أو تبقى هناك لساعة. كان أمراً غريباً حقاً.

لذا لم ترد إيزابيلا إحداث الكثير من الضجيج؛ فمن المؤكد أن والديها سيستاءان من تفكيكها للمنزل.

ولكن ربما نقرة صغيرة..

أنشدت أغنية أطفال لتختار أي بلاطة تهاجم، واختارت التي على اليسار، وضربتها بقوة أكبر قليلاً. لم يحدث شيء.

غرست ظفرها عند حافة الصدع وحفرت؛ فعلقت قطعة صغيرة من الجبس تحت ظفرها.

– "همممم." ربما يمكنني توسيع الصدع..

نظرت نحو منضدة الزينة حتى وقعت عيناها على مشط فضي. قد يفي بالغرض. أمسكت به ووضعت السن الأخير بعناية قرب حافة الصدع. ثم، وبحركات دقيقة، سحبته وضربت به الجبس الممتد بين البلاط.

تلوى الصدع صعوداً! أمام عينيها مباشرة!

فعلت ذلك مجدداً، وهذه المرة وضعت المشط فوق البلاطة اليسرى. لم يحدث شيء. جربت فوق اليمنى.

ثم ضربت بقوة أكبر.

شهقت إيزابيلا عندما اخترق الصدع الجبس حرفياً، حتى امتد على طول الجزء العلوي من البلاطة. ثم فعلت ذلك بضع مرات أخرى حتى امتد للجانب الآخر.

وبأنفاس محبوسة، غرست أظافرها على جانبي البلاطة وجذبتها. حركتها يميناً ويساراً، وهي تحاول جاهدة نزعها بكل قوتها.

وفجأة، وبصوت صرير وأنين ذكرها بالطريقة التي تتحرك بها جدتها الكبرى عندما تحاول النهوض من كرسيها المتحرك إلى سريرها، استسلمت البلاطة.

وضعت إيزابيلا البلاطة بعناية، ثم تطلعت إلى ما خلفها. حيث كان من المفترض ألا يكون هناك شيء سوى الجدار، كانت هناك حجرة صغيرة، بمساحة بضع بوصات مربعة. مدت إيزابيلا يدها، وضمت أصابعها لتجعل يدها طويلة ونحيفة.

شعرت بشيء ناعم.. كالمخمل.

سحبته للخارج. كان كيساً صغيراً، يربطه خيط حريري ناعم.

اعتدلت إيزابيلا بسرعة، وتربعت في جلستها. وأدخلت إصبعاً واحداً داخل الكيس لتوسيع فوهته التي كانت مشدودة بإحكام.

ثم بيديها اليمنى، قلبته، لتنزلق المحتويات في كفها اليسرى.

يا إلـ...

كتمت إيزابيلا صرختها بسرعة. لقد انهمر فيض حقيقي من الماس في يدها.

لقد كان عقداً.. وسواراً. ورغم أنها لم تكن تظن نفسها من الفتيات اللاتي يفقدن عقولهن بسبب الحلي والملابس، إلا أن – يا إلهي – كانت هذه أجمل أشياء رأتها في حياتها قط.

نادت والدتها:

– "إيزابيلا؟"

أوه، لا.. أوه لا أوه لا أوه لا.

– "إيزابيلا؟ أين أنتِ؟"

– "في.." توقفت لتنظف حنجرتها؛ فقد خرج صوتها كزقزقة عصفور. "أنا في الحمام يا أمي. سأخرج بعد لحظة."

ماذا تفعل؟ ماذا تفعل؟

حسناً، كانت تعرف ما "يجب" عليها فعله. ولكن ما الذي "تريد" فعله؟

جاء صوت والدتها:

– "هل هذه ترجمتكِ الموجودة هنا على الطاولة؟"

– "آه، نعم!" وسعلت. "إنها من 'جاليليو'. الأصل موجود بجانبها تماماً."

– "أوه." صمتت والدتها. بدا صوتها غريباً. "لماذا.. لا يهم."

نظرت إيزابيلا بجنون نحو الجواهر. لم يكن أمامها سوى لحظة لاتخاذ القرار.

نادت والدتها مجدداً:

– "إيزابيلا! هل تذكرتِ القيام بتمارين الحساب هذا الصباح؟ ستبدئين دروس الرقص هذا العصر، هل تذكرتِ؟"

دروس الرقص؟ التوى وجه إيزابيلا وكأنها ابتلعت سماً.

– "السيد 'لاروش' سيكون هنا في الثانية تماماً. لذا ستحتاجين.."

حدقت إيزابيلا في الماس. بقوة. بقوة لدرجة أن رؤيتها الجانبية تلاشت، والضجيج من حولها تلاشى إلى العدم. اختفت أصوات الشارع التي تنسل عبر

النافذة المفتوحة. اختفى صوت والدتها وهي تتحدث عن دروس الرقص وأهمية الانضباط. اختفى كل شيء باستثناء تدفق الدماء في أذنيها وصوت أنفاسها السريعة المضطربة.

نظرت إيزابيلا إلى الماس.

ثم ابتسمت.

وأعادتها إلى مكانها.

السر في قبلته

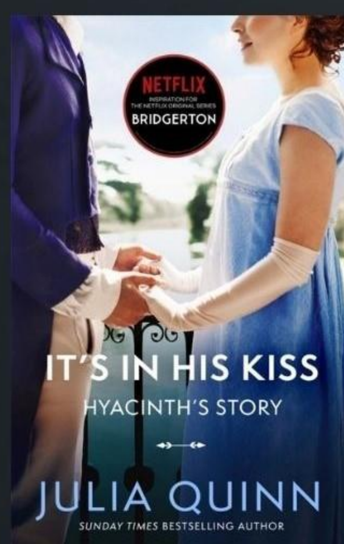
جوليا كوين

يُجمع المجتمع الراقي على حقيقة واحدة: لا توجد فتاة تشبه هياسنث بريدجرتون. إنها ذكية ببراعة شيطانية، وجريئة بصراحتها إلى حد الذهول، وبرأي البعض -وخاصة غاريث سانت كلير-أنه يُفضل التعامل معها بجرعات صغيرة. ومع ذلك، ثمة شيء فيها -شيء ساحر ومستفز- يأسر المرء ولا يكاد يطلق سراحه.

تتقاطع طرق غاريث وهايسنت في الحفل الموسيقي السنوي -والنشاز كالعادة- لعائلة "سميث-سميث". وبالنسبة لهايسنت، تبدو كل كلمة ينطقها غاريث وكأنها تحدٍ لها، فتعرض عليه المساعدة في حل معضلة ميراث شائكة يواجهها.

ولكن، بينما يغوصان سوياً في التاريخ الغامض لعائلة سانت كلير، يكتشفان أن الإجابات التي ينشدانها لا تقبع في الماضي.. بل في بعضهما البعض؛ وأنه لا شيء أبسط -أو أكثر تعقيداً- من قبلة واحدة.. مثالية.

اكتشف لماذا يعشق القراء جوليا كوين...



ترجمة / قناة wadistreambooks

@t.me/wadistreambooks